الأعمال الكامِلة

الشعرية والنثرية

علي الناصر



سلسلة الأعمال الكاملة (١٢)

الأعمال الكاملة

علي الناصر

الشعرية والنثرية

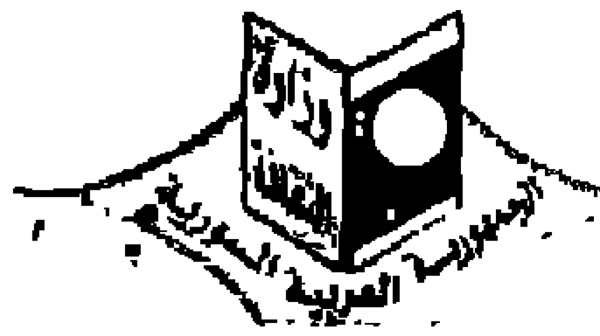
الأعمال الكاملة

علي الناصر

الشعرية والنثرية

تحرير وتقديم

د. رضوان القضماني



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ٢٠٠٦

عــلي الناصــر : الأعمــال الكاملة الشعري والنثرية / تحرير وتقديم رضوان القضماني . - دمشق : وزارة الثقافة ، ٢٠٠٦ .- ٣٦٨ ص؛ ٢٤ سم . - (الأعمال الكاملة ؛ ١٢)

١- ٨١٠,٨ ن ا ص ع ٢- العنوان ٣- الناصر

٤- القضماني ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

الأعمال الكاملة

«١٢»

من أين تأتي ريادة علي الناصر؟

-١-

بدأت مسيرة الشعر العربي السوري الحديث منذ العقود الأولى في القرن العشرين، أي بعد انتهاء الحكم العثماني بين الحربين العالميتين الأولى والثانية. واتسمت هذه البداية بصراع دؤوب بين القديم والحديث ظلَّ أنصار الشعر التقليدي متفوقين فيه. ويذكر مؤرخو الأدب أربعة أعلامٍ أُول في هذه المسيرة تتقارب تواريخ ولادتهم في العقد الأخير من القرن التاسع عشر: محمود البزم (١٨٨٧ – ١٩٥٥) وخير الدين الزركلي (١٨٩٣ – ١٩٥٩) وخليل مردم بك (١٨٩٥ – ١٩٥٩) وشفيق جبري (١٨٩٨ – ١٩٨٠) ويسقطون من شعراء مرحلة الريادة هذه الدكتور علي الناصر (١٨٩٦–١٩٧٠) الذي صدرت مجموعته الأولى "قصة قلب" عام ١٩٢٨، ومجموعته الثانية "الظمأ" عام ١٩٣١، أما ديوانه "سريال" الذي شارك فيه أورخان ميسر فقد صدر عام ١٩٤٧... ولتجاهُلِ هذا الشاعر ونسيان ريادته أسباب عدة يبرز منها أن الصراع بين القديم والحديث، بين التقليد والتجديد، رجحت فيه كفة أنصار الشعر التقليدي الذين التفوا حول محمد كرد علي ومجلته المقتبس – وكان محمد كرد علي رئيساً للمجمع العلمي العربي بدمشق – وقد استطاع أنصار الشعر التقليدي أن يشيعوا ذائقة شعرية لاتقبل التجديد. وكانوا يطمحون إلى استعادة مجد غابر بمضارعة الشعر القديم والحفاظ على رابطة قوية مع الأدب القديم والحضارة العربية في أزهى عصورها، وحصروا قضيتهم بالمسألة القومية، ولم يلتفتوا إلى غيرها مثل تقويم الظروف الاجتماعية القائمة... أما المجموعة الثانية من جيل الروّاد التي يمثّلها بدوي الجبل (١٩٠٣–١٩٨١) وأنور العطار (١٩٠٨–١٩٧٢) وعمر أبو ريشة (١٩١٠–

١٩٩٠) فقد استطاع فيها بدوي الجبل أن يستقل عن مدرسة محمد كرد علي، وأن يبقى خارج إطارها ليؤسس أصالةً تصارع من أجل تحرير نفسها وتأكيد تفردها المستقل. أما عمر أبو ريشة فقد أضفى حساسية شعرية أكثر حداثة من بدوي الجبل، فكان شعره مزيجاً من الواقعية والرومانسية والكلاسية المعاصرة. أما أنور العطار وغيره من معاصريه مثل بدر الدين الحامد وزكي المحاسني وأحمد الجندي ورفيق فاخوري... فلم يستطع أيٌّ منهم أن يدخل تغييرات ملموسة في الشعر السوري لتبقى السمة الأساسية السائدة في شعرهم، في النصف الأول من القرن العشرين، - إذا استثنينا شعر علي الناصر- أنه شعر التزم خطاً وسطاً، إذ بقي معتدلاً إلى حدٍ كبير، ولم يعرف أياً من الطفرات المفاجئة التي ميزت شعر المهجر أو مصر، لكن بوادر التغيير في هذه الحالة الوَسطية بدأت مع علي الناصر، وراحت تتنامى في الثلاثينيات والأربعينيات مع تنامي الشعر الرومانسي والشعر الحر وقصيدة النثر (ديوان سريال ١٩٤٧)، حيث بدأ التمايز يظهر واضحاً بين طرفين، أحده أتباع حركة التجديد في الشعر، وثانيه الشعراء التقليديون، وكان علي الناصر أول من بدأ حركة التجديد تلك، ولو بشكل خجل، إلا أن قضايا الحداثة الشعرية راحت تتمثل في قصائده، ومن أهمها مسألة الشكل الجديد للقصيدة، ومسألة الوزن والإيقاع وتداخل الوعي واتحاد الذات بالكون وذوبان الشاعر في الموجودات وذوبان الموجودات جميعاً ضمن القصيدة،مع حساسية لغوية جديدة تسعى إلى استخدام الكلمة استخداماً حديثاً والدخول إلى أجواء موسيقية حديثة يحققها البناء العام للقصيدة... ظهر هذا عند علي الناصر منذ عام ١٩٢٨، ثم راح يتآزر مع ما يكتبه أورخان ميسر وخير الدين الأسدي وشريف خزندار وموريس قبق وغيرهم.

- ٢ -

يرى كثير من الباحثين أن التجديد الشعري في سورية بدأ في النصف الثاني من ثلاثينيات القرن العشرين. وقد بدأ هذا التجديد حين ساور عمر أبو ريشة "إحساس صادق عميق بأن الكلاسية الجديدة لا يمكن أن تمضي بعيداً إذا لم تجدد

نفسها لتصبح معاصرة حقاً"[١] ، ولذا نحا عمر أبو ريشة – خلافاً لمعاصريه – منحى التجديد. لكنَّ مثل هذا الرأي يجانبه بعض الصواب، لأنه يغفل تجديد علي الناصر الريادي في الشعر العربي السوري حين ظهرت قصيدته الطويلة "قصة قلب" (١٩٢٨) التي وزعت أبياتها على أربعةٍ وعشرين مقطعاً، تنوعت أوزانها ورويّاتها وتباينت في عدد أبياتها، واختص كل مقطعٍ ببنيةٍ عروضية تختلف عن سواه، لكن هذا التنويع الشكلي في مقاطع القصيدة والتي ضمَّها كتيب صغير لم يغير الوحدة الموضوعية في القصيدة القائمة على قصة حبٍ وعذابات صاحبه ومعاناته. ولعل هذه القصيدة تشكل بدءاً للحداثة في الشعر السوري، إلاّ أن النقاد أغفلوا في غالبيتهم – أو لم يتوقفوا – عند هذا التجديد وتلك الحداثة، فلَمْ يَرِد ذكرٌ لعلي الناصر في كتاب الدكتور كمال خير بك "حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر". ونشوء الحركة الحديثة في الشعر العربي تبدأ في هذا السِفْرِ القيم من بدر شاكر السياب وتَجَمُّع "شعر" في لبنان. ويرى كمال خير بك أن هذه الحركة قامت على مسألتين: نشوء قاموس شعري جديد، وتحويل في البنى الإيقاعية بنشوء بنىً وزنية حديثة[٢]. وهو ما نجد تباشيره واضحةً في "قصة قلب"، وهو ما سيتبلور في ديوان "ظمأ" (١٩٣١)، أي قبل أن يظهر التجديد في شعر أبي ريشة. أما الدكتور أحمد بسام ساعي فلا يشير في كتابه "حركة الشعر الحديث في سورية من خلال أعلامه" إلى تجديد علي الناصر بقدر ما يشير على "رِدَّتِه" عن هذا التجديد حين يقول: "وقد وُجِدت في هذه الإرهاصات أو بعضها لدى شعراء كثر أمثال علي الناصر وأورخان ميسر وبديع حقي وممدوح عدوان وعبد الكريم الناعم وشوقي بغدادي وعلي الزيبق، ولكنهم توقفوا عندها ولم يتجاوزوها إلى القصيدة الكليّة، بل إن بعضهم، كالطبيب علي الناصر ارتد في الستينيات إلى "الوعي" وإلى "الشعر الخليلي"، وكان قد نشر ديوانه الأول "الظمأ" عام ١٩٣١ وتضمن مقطوعات سريالية، ثم ديوانه الثاني "سريال" عام ١٩٤٧ ويوحي عنوانه بطبيعة قصائده".[٣]

يشير الدكتور عمر الدقاق في كتابه "فنون الأدب المعاصر في سورية" إشارة منصفة إلى ريادة علي الناصر حين يقول: "ومع أنه من الجيل السابق في معاصرته

الشعراء التقليديين الأوائل، فقد كان في طليعة رواد التجديد الأدبي في سورية، إذ وجد في الوزن والقافية قيوداً للقريحة، وما الشعر لديه إلاّ تفجرات عفوية تصدر عن الذهن والنفس في حالٍ من الوعي أو اللاوعي متى قُدِّرَ لها الظهور، وإذْ ذاك يرصدها الشاعر -وهو يرى أن قضايا المجتمع والوطن ليس مجالها الشعر والفن، بل الدأب والعمل، إذ لا صلة للشعر إلاّ بالجمال والفكر والروح"(٤).

- ٣ -

خصَّ الأستاذ سامي الكيالي الشاعر علي الناصر بفصل خاصٍ في كتابه "الأدب العربي المعاصر في سورية، ١٨٥٠-١٩٥٠"، وهو ما لم يفعله غيره، لكنَّهُ فَصْلٌ هدف إلى التعريف بالشاعر وإبداء بعض الآراء الشخصية في شعره وتذوقٍ قصائده وفهمها. يقول سامي الكيالي في علي الناصر: "وربما كان في طليعة الشعراء المحدثين الذين ثاروا على الوزن وعلى القافية ودعوا إلى تحرير الشعر من هذه القيود، وإلى إرسال الكلام إرسالاً لا يتوخون فيه إلاّ أن يكون منبعثاً عن الشعور، ذا وقعٍ في الأذن، وذا جرسٍ على الأسماع" ، ويعلق على بعض ما وصف علي الناصر به نفسه قائلاً: "قال هذا يوم كان يقرزم الشعر في بدء شبابه. وبالرغم من هذا الاتجاه الذي دعا إليه لم يستطع أن يحرر نفسه من قيود الوزن، ومن عبودية القافية في الكثير من قصائده"، ثم يعلق على ديوان "سريال" فيقول: "ونقرأ هذه المقطوعات فلا نفهم منها شيئاً، لا هي رمزية، ولا هي سريالية، وجلَّ ما في الأمر... أنها كلمات متقطعة لا يربط بينها رابط ولا ترمز إلى شيء، وإن اعتقدا - يقصد المؤلِّفَيْن- أنها هي الشعر الذي يضم في كُلِّ حرفٍ من حروف الكلمات عوالِمَ مَرَّت في ضمير الشاعر".

إنَّ الجانب الأهم في الفصل الذي خَصَّ به سامي الكيالي الشاعرَ علي الناصر يكمن في أنه عرفنا بعملين غير منشورين جمعا بمجلدين يضمّان ديوان "الأغوار" و"قصة أيام". وديوان الأغوار قصائد ومقطوعات عن الفترات التي مَرَّت

من حياته بين الشباب والشيخوخة – حتى في كهولته هو هذا الإنسان الغريب، الثائر، المتمرد، الصاخب – وصخبه هو صدى أغوار نفسه التي تعيش بين "الواقع" و"الأوهام". ولعل أبلغ تصوير لهذه الحالة قوله:

مــا زلــتُ أوقــن أن سُــخفَ الــوهم يُغنْــي
دعنــــي أهدهـــند عمـــق مأســـاتي بفنّـــي
طـــوبى لمـــن فـــي مـــأتم الـــدنيا يغنّـــي
ويلــــون الأحــــداث بــــالحلم المفــــنّ
إنــــي لأعلـــم كيـــف أن العـــيش يثنـــي
وتبـــاطؤ الأعمـــار مـــا يـــوحي ويعنـــي
لكنني، ولقــد نعمــت بــصحوة فــوقَ التمنــي...
... يا صحوة: قد كنتِ فوقَ طِلابِ روحي والتمني!

وقد ضمّ "الأغوار" إلى جانب القصائد نفحاتٍ نثريةً سماها أساطير، منها أسطورة الغوطة، وأسطورة الأرز، وقصص واقعية في سطور"[٦].

ورد ذكر ديوان الأغوار في المقدمة التي كتبها حميد الأنطاكي للبلدة المسحورة، حيث يقول: "فقد قرأتُ له "الظمأ" واستقرأته "الأغوار" وهو قيد الطبع والآن تصفحت بلدته المسحورة"... وهي مقدمة كتبت في أيلول عام ١٩٣٥.

يذكر علي الناصر ديوان الأغوار في رسالةٍ له إلى أمين الريحاني نشرت في "دنّ الدموع" يقول فيها: "وقد سعيت أن أكون عند حُسنِ ظنك وأن أشذب ما أكتب، إلا أن الطبع دائماً يغلب التطبع، فليتَ عينيكَ ترى "ديوان الأغوار" بأية حالٍ من الفوضى، هذا بعد أن ضاع قسم منه... وأن الشاعر الصافي النجفي حينما زارني في حلب واطلّع على بعض مقطوعاته أخذ اسمه خلسةً وألصقه بأحد

دواوينه الذي كان معداً للطبع... وأنَّ أحد أصدقائي، وهو شاعر مشهور، غزا ثلاث قطع منه ومن زميله "الظمأ"..."[٧].

ويضيف علي الناصر أنَّ ناشراً إنكليزياً شاباً شاعراً يدعى غوردن سافج أَخَذَ الديوان وترجمه وأعده للنشر، وعندما أصبح طبعه وشيكاً توفي الناشر الشاعر في أثناء عملية جراحية، وطويت المسألة. وقد علمت – أنا العبد الفقير صاحب هذه المقدمة – أن المخطوط الآن في حوزة أحد الناشرين في حلب، وهو يضن به على الجميع لأسباب تجارية.

يعرفنا سامي الكيالي – وكان قريباً من الشاعر وعلى معرفةٍ وثيقة به – بـ "قصةِ أيام"، وهي قصيدة طويلة ضمها المجلدان غير المنشورين اللذان أشرنا إليهما، ونظمها علي الناصر وهو في السبعين من عمره (في أيار ١٩٦٦). يقول عنها سامي الكيالي: ستَظَلُّ "قصة أيام" أجمل وأعمق ما نظمه من الشعر... فـ "هذا الشاعر الذي عاش حياته مع كتب الطب ودواوين الشعر أَلزَمَ نفسه بوحدةٍ قاسية سرعان ما يجن جنونه وتثور عاطفتة حين تدغدغ أحلامَه فتاةٌ تهتف إليه فيتنفس الصعداء بعد أن عاش سبعين عاماً في ضبابٍ واكتئاب:

أتــــنفس الــــصعداء لمــــا فجـــأة تتكلمــــين
يا ضحكة خضراء في أذني كـــالروحِ الأمـــين
أتنفس الـــصعداء لكنـــي أعـــود إلـــى الجنـــون

ويسجل سحب تلك الأيام بقوله:

سبعون عامــاً عــشتها ســبعونَ عامــاً فــي ضــباب
غمـــزات أضـــواءٍ كـــذابٍ أشْـــبَعَتْني باكتئـــاب
يممتهـــا كالظـــامئ المـــصهور يخـــدع بالـــسراب

روحي الملحة في الجمال وفي الكمـال وفـي الـشراب
لـم تجـن غيـر مـرارة الخـذلان منهـا والعـذاب
ياللمفاجـأة الغريبـة بعـد يـأسٍ واضـطراب
عانقـت بالحـب الـصدوق هنـا: الطفولـة والـشباب

ثم يقول:

آهٍ بـلا جـدوى فليـت مـرارة الآهـاتِ تجـدي
بينـي وبينـك هُـوّة فـوق التمـرد والتحـدي
أإذا رجعنـا هـل يطيـق عظـيمَ مـا عانـاه وجـدي
يا قصةَ ألْحـدثتِ فـي قلبـي... أنـا أبكيـك وحـدي

ثم يهدهد ثائرته:

تُطِلُّ لتشجي النفس بعـد هـدوئها أمورٌ تقضَّتْ تـستثير ولا تُجـدي
فلم تخمد الأيـام مـشبوب نارهـا وتذكو ضراماً حين أهذي بها وحـدي
ضلالةُ وهـمٍ غادرتهـا لـشؤمها فلم يبقَ فيها غير حشرجَة الـصدر
فيا ليت أني فـي الحيـاة فراشـة لأحفر في صدر التي ذهبـت قبـري

وهكذا لم يبق لنا من "قصة أيام" إلا ما أورده سامي الكيالي في كتابه.

- ٤ -

تعد قضايا قصيدة النثر المسألة الأكثر جدلاً في حركة الشعر العربي المعاصر في سورية، وبدأت معالم هذه القصيدة بالظهور عند علي الناصر في ديوانه "الظمأ" عام ١٩٣١، وهو الديوان الذي تخطىٰ فيه علي الناصر الشكل العروضي الخليلي إلى التفعيلة قبل "بلوتولاند" لويس عوض عام ١٩٤٨، و"كوليرا"

نازك الملائكة عام ١٩٤٧[٨]. وحوى ديوان "الظمأ" بعضاً من نصوص الشعر المنثور، وهي نصوص لمّا تتبلور فيها بنية قصيدة النثر بعد، ونلاحظ هذا – مثلاً – في "اضحكي" حيث يقول:

يا حبيبتي!

اضحكي كالطبيعة في الربيع، والزهور في الصباح، والبروق في الغيوم، والنجوم في الليالي، والنسيم في الأغصان.

اضحكي كأن قلبك الغض لا يفقه معنى الألم.

اضحكي ولا تنسي أن تذرفي في الأحايين دمعة، فالضحك ألحان الحياة والدموع إلهاماتها.

حبّي يا حبيبتي.

حبي حتى يصهرك الحب ويطهر قلبك من أرجاس المادة.

حبي وآمني، فالحب والإيمان جناحاك اللذان ترفرفين بها في ملكوت الخلود.[٩].

ثم أخذ الشعر المنثور عند الناصر يأخذ شكلاً أنضج في البلدة المسحورة عندما اكتسب النص بعداً ملحمياً. واقترب من قصيدة النثر أكثر في "موانا" حين راح الشاعر يضبط سيولة النثر ويبني قصيدته على إيقاعات شعرية متناوبة[١٠].

توقف محمد جمال باروت عند مسائل قصيدة النثر في شعر علي الناصر في كتابه: "الشعر يكتب اسمه" ويحمل الكتاب عنواناً فرعياً هو "بدايات القصيدة النثرية في سورية". ويسعى الكتاب إلى التأسيس لقصيدة النثر في سورية بدءاً من روّادها الأُول. يتحدث المؤلف في الفصل الأول عن بدايات القصيدة النثرية في سورية فيقول: "وفي الحديث عن هذه البدايات يمكن القول إن علي الناصر وأورخان ميسر وخير الدين الأسدي هم من الطليعة التي ارتادت هذه البدايات وحاولت أن تستقصي من خلالها أفقاً جديداً للشعر العربي"[١١]. ويرى باروت أن كل واحدٍ من هؤلاء الثلاثة حقق نقلة في تطور قصيدة النثر

السورية، من الحقبة الجبرانية الرومانسية إلى الأفق الملحمي على يدي علي الناصر، وإلى الأفق السريالي على يدي أورخان ميسر، وإلى الأفق الرؤيوي الصوفي على يدي خير الدين الأسدي(١٢). ويؤكد باروت أن التحول الذي أحدثته قصيدة النثر - عند علي الناصر خاصة - كان على ثلاثة مستويات: مستوى العلاقة باللغة، ومستوى الشكل البنائي، ومستوى الموقف من العالم. وتناول باروت سمات قصيدة النثر عند علي الناصر وأهمها (الملحمية) في "البلدة المسحورة" و"موانا"، و"السريالية" في "سريال" وعَدَّ تجربة الناصر من أكثر التجارب طليعية في النصف الأول من القرن العشرين، لأنها تجربة أثبتت "لأول مرة" إمكانية كتابة الشعر بمعزل عن الأدوات التقليدية القائمة(١٣).

- ٥ -

يقول علي الناصر: "إني أومن بأن الشاعر الحقيقي يخلق فنّه بوحي من روحه، وإنْ نَسَبَ الباحثون إبداعه إلى المدارس والمناهج الفنية، فالفن المُسَخَّر بتصميم سابقٍ فن زائف لا أصالة له.. فهل يغرِّد الهزار وأمامه (نوطة النغم) "(١٤).

إلا أن تماثل إبداع الأديب مع سمات مدرسة أدبية أو منهج معين ليس تسخيراً ولا يصدر عن تصميم سابق ما دام إبداعاً حقيقياً، لأن المدرسة الأدبية تتشكل من إبداعات تلاقت على أشكال محددة للتأثير والتأثر والتواصل.

يبدأ تشكل المدرسة الأدبية في أدبٍ ما بتغير الحساسية الشعرية. وتغير الحساسية الشعرية تعبير استخدمته د.سلمى الخضراء الجيوسي في رسالتها لنيل الدكتوراه، ثم شاع في كتابها: الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، وأولع به محمد جمال باروت فاستخدمه في كتابه: الشعر يكتب اسمه. وإذا أردنا أن نرصد ريادة علي الناصر فلا بد لنا من أن نبدأ من دوره في تغير الحساسية الشعرية في سوريا في العشرينيات من القرن الماضي. وتغير الحساسية يخلق حساسية جديدة تقوم على التمرد على حساسية سابقة، إذ لا بد من التمرد، والتمرد يعني التفرد، وللتفرد والتمرد طرائق لا تلبث - كما يقول عبد السلام العجيلي في مقدمة "اثنان في واحد" -

حتى تتحول إلى مذاهب يعتنقها كثيرون... وقد بدأ التمرد – الذي ما لبث أن صار مذهباً – بالخروج عن الاتبّاعية (أو الكلاسيكية، أو التقليدية، أو المحافظة... سمّوها ما شئتم!)، وهو خروج على موضوعاتها التقليدية كمضمون وتبسيط إيقاعاتها الخليلية كشكل. ويؤرخ أكثر الدارسين لنشوء هذا التغير في الحساسية الشعرية ويحددونه في النصف الثاني من الثلاثينيات، ويسميه جلال فاروق الشريف بـ "الإرهاصات الأولى للرومانتيكية في الشعر في سورية" ويعزوها إلى وصفي القرنفلي (١٩١١-١٩٧٢)(١٥). إلا أن هذه الرومانسية كانت مضطربة – على حدِّ تعبير جلال الشريف نفسه – لأنها كانت تضع رجلاً في الرومانسية بينما ما تزال الرجل الأولى في الكلاسية، فهي رومانسية ترفض القيم الفكرية والسياسية التي قامت عليها الكلاسية لكنها تحتفظ بقوالبها وأوزانها خصوصاً الشكل الخليلي فيها. إلا أن جلال الشريف – وغيره كثيرون– يصر على أن "الرائد الأول للرومانتيكية في الشعر العربي المعاصر في سورية" هو وصفي قرنفلي(١٦). ولعله بجانب الحقيقة في ذلك فمن يقرأ ديوان وصفي قرنفلي "وراء السراب" يلحظ بسهولة ودون عناء كبير أنه شاعر كلاسيكي في أوزان شعره وتفعيلاته وقوافيه. أما علي الناصر فقد نشر قصائده المتحررة من قيود بحور الخليل قبل أكثر من عقدٍ من الزمن سبق نشر أول قصيدة لوصفي قرنفلي. ونشأت الحساسية الشعرية الجديدة عند علي الناصر "حين وجد قيد البيت الموزون بالوزن التقليدي يحول دون ما يبتغيه من تعبير، فحطم ذلك القيد، وكان في تحطيمه له متفرداً عمن حوله وعمن سبقه"(١٧).

لكن إرهاصات الرومانسية بدأت في شعر علي الناصر قبل ذلك، إذ ظهرت مع ظهور أول عمل منشور له عام ١٩٢٨ وهو "قصة قلب" الذي تتمثل فيه مقومات الرومانسية التي أوجزها الدكتور إحسان عباس بقوله: "لقد مجدت هذه المدرسة العودة إلى الطبيعة، وألّهت النغمة، وامتلأت بالحنين الطاغي وبالكآبة والألم، وبالنفور من حياة المدينة، وبالثورة على التقاليد والشرائع. وقدستْ شريعة الحب واتخذت القلب إماماً هادياً،

وغمرتها الرموز الصوفية، وثارت على الشكل، واهتمت بالمضمون، وحطمت القالب اللغوي الصلب، ولجأت إلى التحليل، وتعلقت في ما كتبه جبران بخيالٍ لا يقرّ على هذه الأرض إلاّ ليستجمع فيطير إلى آفاقٍ أعلى" [١٨]. ألا نجد التجلي الأمثل لكل هذه المقومات في أعمال علي الناصر كلها – باستثناء سريال إذ لم نقبل بقول من يقول إن السريالية إحدى تجليات الرومانسية والرمزية – لنأخذ مثالاً من "قصة قلب" ١٩٢٨.

سَـــمُّوكِ أفروديـــت بنـــت الزبـــد   آلهـــةَ الحـــسن بـــشكل البـــشر

ضلّوا فقد كُوِّنْتِ مـــن بلـــسم الـــ   أحـــلام والنعمـــى وضـــوء القمـــر

ومـــن صـــبا لبنـــان غِـــبَّ الحيـــا   ومن شـــذا الأزمـــار وقـــت الـــسحر

ومن غنا الأطيـــار فـــي روضـــها   ومن صـــدة الألحـــان بنـــت الـــوتر

ولندع هذا الشكل التقليدي لننتقل إلى التجديد الشكلي في ديوان "الظمأ" من قصيدة له عنوانها "الخيال" (١٩٣١):

مـــا وراء الغيـــوم، مـــا وراء النجـــوم، مـــا وراء الخيـــال،

سحتُ بالحسنِ

طـــرت بـــالجوى، ســـائقي الهـــوى، غـــايتي الجمـــال،

تابعاً هجسي

مـــــا وراء الغيـــــوم   لهفـــــة المحـــــروم

مـــــا وراء النجـــــوم   ظلمـــــة تـــــدوم

مـــــا وراء الخيـــــال   غايـــــةُ الـــــنفسِ

أم لعلنا نتوقف عند مقطع من الشعر المنثور في "موانا" (١٩٣٥)

موانا.. موانا!

ألا تشعرين بنغمةٍ جديدة في هذا اللحن؟

موانا: لهجة غريبة، خفيّة، مدغدغة بوقار.

نغمة، زفرة، حرقة، ذكرى صادقة، تنتفض من مدفن الزمن، وتنتشر طيفاً في ضباب. ذلك الطيف هو أنتِ، هو أنا، هو أنا بكل ما عندي، متقمصاً في شكله الغريب.

لنتأمل هذه الرباعية التي عنوانها "بَعْدَ لأيٍ" من ديوان "اثنان في واحد" (١٩٦٨).

بعـــــدَ لأيٍ دخلـــــتُ هيكـــــلَ حبّـــــي
فـــــإذا هيكلـــــي العزيـــــزُ خـــــرابُ
نـــــسجَتْ بيتَهـــــا العناكـــــبُ فيـــــه
وتـــــداعَى، يـــــا وَيْلَتـــــا، المِحْـــــرَابُ
رتَّـــــلَ البـــــومُ يأســـــهُ فيـــــه لـــــيلاً
ونعـــــاهُ عنـــــدَ الـــــصباحِ الغـــــرابُ
بعـــــد لأيٍ دخلـــــتُ هيكـــــلَ حبّـــــي
واهنـــــاً، أســـــتحِثُ أنقـــــاضَ روحـــــي
ثـــــمَّ أوقـــــدْتُ شـــــمعتي وبكيـــــتُ!

إذن، فَلْنُطوبْ علي الناصر شاعراً رومانسياً
لكنْ، ألا يَحُدُّ هذا التطويب من ريادة علي الناصر ويقزّمها؟
بَلا! إذْ لَمّا ينتهِ الحديث عنها بعد.

- ٦ -

يقول أمين الريحاني في مقدمة "الظمأ":

"أما قيمة الديوان الحقيقية فهي تنحصر، على ما أرى في ما يصح أن يدعى شعر الاقتضاب. لا أريد بذلك ما هو متعارف كالارتجال أو كالهجوم على المديح

بعد الغزل، بل هو الهجوم على الموضوع بسهم ينفذ إلى قلبه، وبما لا يخلو من شبه الارتجال". أليس هذا تعريفاً جميلاً لما نطلق عليه اليوم قصيدة الومضة أو القصيدة القصيرة جداً التي رحنا ننظّر لها ونضع فيها كتباً ومؤلفات منذ أن غدا أدونيس سيدها الأول؟ لقيت القصيدة القصيرة (الومضة) تطوراً كبيراً في الشعر العربي في سورية في النصف الثاني من القرن العشرين، وصار لها أعلامها، فهي القصيدة التي تعبر عن روح العصر الذي صار كل شيء فيه يمر سريعاً في حياتنا كأنه الومضة، وأخذت هذه القصيدة القائمة على "الاقتضاب" – حسب تعبر الريحاني – جميع أبعادها اللغوية والأدبية لتصبح قادرة على أن تعبر عن عالم الشاعر ورؤاه، مهما تعقدت تلك الرؤى، ومهما تعددت وتلونت. إنها حساسية شعرية خلقت قالبها وشكلها ليكون هو "الشعر الجديد نظماً وتقطيعاً ولهجةً. فيتناسق وروح هذا العصر السريع التنفس والسير القليل الصبر على المسافات الفنية والتمهيدات الشعرية. قل قولك بكلمة وجيزة بليغة وامش سريعاً إلى غرضك، هي روح هذا الشعر الجديد"(١٩). يقول علي الناصر في "سربال":

شفةٌ
أشلاءٌ من زهرة ممزقة
مشوهةٍ لم يبق من تناسقها
إلا قطرة دم
ترنو إلى عين.

إنه اقتضاب شعري تشكل من منمنمات، قطع فسيفساء، كلُّ واحدة تركيبٌ قصير مستقل يدخل في بنية لوحة /صورة، وكل حجر/ ركن من الأحجار/ الأركان في اللوحة/ الصورة الفنية اعتمد الركن الاسمي ليكون مسنداً إليه (شفةٌ، أشلاء من زهرةٍ..) ليشكل طرف مفارقة تشكل الطرف الثاني منها من ركن فعلي ليكون المسند في ومضة خلق تشكيلي (ترنو إلى عين)... كل هذه الحساسية الشعرية بدأها علي الناصر في ثلاثينيات القرن الماضي.. أليست ريادة؟!.

إذا كنا في الربع الأخير من القرن العشرين الماضي نتحدث عن قصة قصيرة جداً شكلت تياراً صَكَكْنا رَوْسماً لتسميته: (ق ق ج)، فإن علي الناصر كان أول من كتب هذه القصة القصيرة جداً في "الظمأ" وفي "الأغوار" وغيرهما، وكان الناشر الإنكليزي غوردن سافج قد سَمّاها Ultra short stories أي: الأقاصيص فوق القصيرة... وقد ترجمها الناشر "وسافر بها بعد انتهاء الحرب إلى بلاده ليعرف أبناء جلدته على نوعٍ من الأدب مستحدثٍ في سورية، كما يزعم".(٢٠):

"ومشينا صامتين حتى الصخرة التي اتخذناها هيكلاً للحب والتي اندفعت بصدرها البارز إلى البحر.

جلسنا وكلٌ دَعَمَ ذَقْنَهُ بكلتا يديه وأطلق روحه لتسرح في الأفق البعيد.

لم ندرِ كم مرَّ من الزمن.

قمنا وما تلاقت أنظارنا حتى تَحَدَّرت منها دمعة"(٢١).

ختاماً، إنها ريادة، والريادة خطوة أولى، وكل خطوة أولى لا تنجو من بعض تعثر، لكنه تعثر لا يغض من قيمة هذه الريادة ولا ينفي أنها قامت على إبداع أقره أمين الريحاني حين قال: "إن في كتابك هذا عبقرية مبدعة، ولكنها لا تزال تتعثر في مدارج الفن"، كان هذا في تشرين الثاني من سنة ١٩٣٥.

حمص. كانون الثاني ٢٠٠٦.

رضوان القضماني

الهوامش:

١- جلال فاروق الشريف. الرومنتيكية في الشعر العربي المعاصر في سورية. اتحاد الكتاب العرب. دمشق: ١٩٨١. ص١٢٣.

٢- كمال خير بك. حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر. (دراسة حول الإطار الاجتماعي – الثقافي للاتجاهات والبنى الأدبية) دار الفكر – بيروت ١٩٨٢.

٣- أحمد بسام ساعي. حركة الشعر الحديث في سورية من خلال أعلامه. دار المأمون – دمشق – ١٩٧٨. ص ١١٩-١٢٠.

٤- د. عمر الدقاق. فنون الأدب المعاصر في سورية. دار الشرق ١٩٧١.

٥- سامي الكيالي. الأدب العربي المعاصر في سورية: ١٨٥٠-١٩٥٠. مكتبة الدراسات الأدبية. دار المعارف بمصر. الطبعة الثانية. (اعتمدنا طبعة مطبعة الكاتب العربي بدمشق عام ١٩٧٩). ص ٢٨٧-٢٩٨.

٦- الكيالي. نفسه. ص ٢٩٦-٢٩٧.

٧- من مقدمة "دنّ الدموع". ص ٧-٨.

٨- محمد جمال باروت. الشعر يكتب اسمه. اتحاد الكتاب العرب. دمشق ١٩٨١. ص١٣.

٩- علي الناصر. الظمأ. ص ١٦٧-١٦٨.

١٠- الشعر يكتب اسمه. ص١٤.

١١- نفسه ص٨.

١٢- نفسه ص٩.

١٣- نفسه ص ١٠.

١٤- الكيالي. الأدب العربي المعاصر في سورية. ص ٢٨٨.

١٥- الشريف. الرومنتيكية. ص١٢٣.

١٦- الشريف. نفسه ص ١٣٧.

١٧- عبد السلام العجيلي. مقدمة ديوان "اثنان في واحد" ص ١٢.

١٨- د. إحسان عبّاس. فن الشعر. دار الشروق عمان. ط/٤: ١٩٨١. ص٤٦.

١٩- أمين الريحاني. من مقدمته لديوان "الظمأ" المؤرخة بـــ ١٥ أيلول ١٩٣١. الصفحة (د).

٢٠- من مقدمة علي الناصر لملحمة (دنّ الدموع). ص:٧.

٢١- الظمأ. ص ١٦٣.

علي النـاصر

١٨٩٦ - ١٩٧٠

- ولد في حماة سنة ١٨٩٦.

- أتم فيها دراسته الابتدائية. وأتم الإعدادية في دمشق، والطب في اسطنبول (في الطبيّة الشاهانية)، ثم سافر إلى باريس ومكث فيها بين عامي ١٩٢٣-١٩٢٤، وتخصص بالأمراض الجلدية.

- عاد إلى حلب ليزاول مهنته طبيباً حتى وفاته.

- أتقن التركية والفرنسية والإنكليزية والفارسية وحَذَق فيها.

- يكتب النثر كما يكتب الشعر.

- طبيب شاعر، أحبَّ العزلة والأدب، أغرم ببودلير وإدغار ألنْ بو وتأثر بهما. نعته عباس محمود العقاد بـ "بودلير الشعر العربي".

- أكثر شعره يدور حول ذاته وهواجسه وأحلامه، حول ضيقه وبرمه وشكوكه ويقينه، عن حبه والأزمات التي تدغدغ عاطفته، وعن آرائه في الطبيعة والبشر.

- وُجِدَ مقتولاً في عيادته بحلب عام ١٩٧٠.

الأعمال الكاملة

١ - قصة قلب	١٩٢٨
٢ - الظمأ	١٩٢٨ - ١٩٣١
٣ - البلدة المسحورة	١٩٣٥
٤ - موانا	١٩٣٥
٥ - سريال	١٩٤٧
٦ - دَنّ الدموع	١٩٥٤
٧ - اثنان في واحد	١٩٦٨
٨ - الأغوار*	١٩٣١

* مخطوط: – لم نتمكن من العثور عليه.

كلمة

"لا أدري كيف يمكن للشاعر أن يُعَرِّيَ نفسه أمام الجمهور ولا يكلل عرقُ الخجل جبينه.

إنه يتحرك في أجواء نفسه، والنفس البشرية إذا زال عنها كابوس الوعي تأتي بما يأتي به الأطفال، فلو درى الطفل بأن العيون تتفحصه لتعثّرَ في طفولته.

إن "اللاشعور" نفسه لا ينجو من الواعية إلا إذا اضطر أن ينفجر كبركان، وقد يسبب هذا الانفجار الخراب فيدمّر ولا يبني..

إنَّ الشعر الصادق يحلل ولا ينقد.

والشاعر الحقيقي جدير بالرثاء والعطف في حياة يكفي أنها تؤول إلى ذلك النوم الأبدي الأبله.

إن شعلة الوعي التي مُنِحَها الإنسان، والتي يسعى إلى ازدياد توقدها هي "بؤس الشاعر" و"علّةَ اضطرابه". وهي العامل الأكبر لئلا يرى الحياة إلا بمنظاره، ذي الزجاج، جَمّ الألوان.

إنه ينظر إلى الحياة كما ينظر الأطفال من عدسة صندوق العجائب.

وها أنا أعرض لكم... نماذجَ ما رأيته بمنظاري المخدوع".*

---

* كلمة لم تنشر، قَدَّمَ بها نفسه حين اضطر أن يلقي مقطوعاتٍ من شعره أمام الجمهور. نقلناها من كتاب سامي الكيالي: "الأدب العربي المعاصر في سوريا". ص ٢٩٧-٢٩٨.

قصة قلب

مقطوعات شعرية

المقدمة

بقلم الكاتب الأديب

الأستاذ سامي الكيالي

-١-

.. كم في هذا العالم من قلوب معذبة أضناها الألم، ونفوس باكية أرمضها الابتئاس؛ تئن وتشكو في عالم الوحدة الفسيح فلا يسمع أنينها أحد ولا ينصت لشكواها إنسان؛ وتظل غارقة في بحار الأسى غير قادرة أن تُسمع شكاتها وأنينها سائر القلوب، وما تزال في وحشتها المؤلمة وكربتها المضنية حتى يقيض الله لها نفساً حساسةً تسكن في هيكل شاعر يشجيه ما يشجي تلك القلوب فيبكي بكاءها وينثر دموعاً مخضلّة هي آلام الحب المبددة ودموع الغرام المسفوحة عند البعض وقصائد مرصوفة من الشعر المؤثر المشجي عند الآخرين.

وكأني بصديقي علي الناصر، وقد براءه الله "إحساساً وألماً"؛ كأني به واستمع في سكون الليل وفي هداءته إلى شكاة العشاق وبكاء المغرمين، – هذه الأنات التي زادت بكاءه بكاءً – أحبّ أن ينفثُ عنهم بعض ما هم فيه وأن يصعّد تلك الزفرات المحرقة من جوانب القلوب فكتب هذه القصة التي أن دعاها "قصة قلب" فأحرى بها في نظري أن تدعى "قصة قلوب".

نعم؛ هي قصة مشجية من تلك القصص التي تمثل لوناً من ألوان الابتئاس الذي يختم على بعض القلوب الشاعرة التي لا تجد هنائها وبريق سعادتها المبدد إلا

في شرب الكأس حتى ثمالته وفي امتصاص الشيء حتى نهايته. ولقد قدر لصديقنا الشاعر أن يحب – ومن يعلم فقد يكون حبه أفلاطونياً؟ – وإن يمر بشبه من تلك الحالات التي مرت بعمر بن أبي ربيعة، وبألفريد دي موسه، وأن يخلق صلات بريئة طاهرة مع سرب من ذوات الخدور اللواتي لم يبخلن عليه بالنظرات التي كانت تزيد قلبه ضراماً ونفسه اشتعالاً؛ هذه النظرات التي ترسل اليأس والأمل خيوطاً تتصل بالقلب فتوقف خفقاته تارة وتحييه تارة أخرى؛ هذه النظرات هي التي أنضجت شاعرية صديقنا الشاعر وسكبت على مخيلته فيض الإلهام، وهذا الذي جعله أن لا يترك هذه العناصر تمر بدون أن يغتنمها فاغتنمها وما زال حتى وقف قلبه عند هذه الفتاة اللعوب التي لم ترع الذمام ــ وحسناً ما فعلت ــ فجمع دموعه المتناثرة في هذه القصة التي لا أعلم ما سيكون وقعها عند ــ ربة هذا الشعر ــ التي لها دون غيرها فضل صوغه بهذه اللغة السهلة التي هي لغة القلوب الصامتة وكفى!..

- ٢ -

وفي المقدمة التي كتبها الأستاذ ساروليا أستاذ التاريخ الحديث في كلية الآداب بالجامعة المصرية لمجموعة من الشعر الإفرنسي اسمها (Petite Anthologie des poe'tes Françoise) نظرات صادقة في تحديد اتجاه الشعر الحديث أحب أن أنقل منها هذه الكلمة:

"نستطيع أن نؤكد كمبدأ عام أن الفن الحديث وضع بين الشعر والنثر فاصلاً أشد تحديداً لم يضع مثله الفن الكلاسيكي.

١- فلقد افتتح الشعر الحديث. وهذا أول ما نلاحظه – ميداناً لم يعرفه الشعر من قبل فهو كشقيق لما وراء المادة وللدين، ينتقل إلى أقطار الفكرة والخيال والحلم، يهجر الشواطئ المحدودة التي يسبح بجوارها وجودنا الضعيف،

ليكشف محيط الأسرار الذي يكتنفنا في كل مكان، يأمل أن يفسر غير القابل للتفسير وأن يعرف غير القابل للمعرفة؛ يرغب أن يشعرنا رعشة الشيء المجهول وأن يفهم أو يحذر ما عساه تكون القوى الخفية الأولى التي توجه الحياة الإنسانية، إنه يعمل قبل كل شيء أن يجعل من نفسه سيد القوى من عاطفة إلى غريزة إلى وراثة، وزيادة على الحياة المحسوسة يسعى أن ينفذ إلى الميدان الغامض الشاسع حيث غير المحسوس، يتغذى من المشاهد العظمى للطبيعة تلك التي لا يراها عبثاً بل يراها "الألماماتر" صاحب الوحي والإلهام.

فالشعر عند شللي أو ماترلنك يريد أن يفجاء الوشائج الرقيقة والصلات المعماة التي تربط الحياة الإنسانية بالحياة الكونية، ويجهد أن يعرف المعاني المخباءة لآلاف الأصوات التي تنبجس من الهيولي.

٢- وللدخول إلى هذا العالم السحري يستعمل الشاعر الحديث وسائل وملكات غير العقل الجاف فإن الملكة الشعرية تهرب من التحليل وسواءً أسميناها إلهاماً أم شيطاناً أم وهماً أم معرفة مباشرة أم حماسة أم قداسة، فإن خطواتها لا تشابه في شيء ما خطوات العقل المتعقل الجاف. فبالخيال يعطي الشاعر جسماً لأحلامه ويجعل من الفكرة المجردة رمزاً محسوساً، وبالموسيقى اللفظية والوزن ينال غرضين لما يحققهما علم الجمال تحقيقاً مرضياً. فمن جهة يوقظ الوزن الشعور ومن جهة أخرى يخمد تغير الإيقاعات تغيراً على وتيرة واحدة التقدير وينومه كما يهزهزنا المحيط ثم يهدئنا بمده وجزره، ويترك العقل الجاف ليهدء ويقلع عن أن يقدم للخيال والشعور ومسائل متبعة ليغرق هو في مطالعة الجمال[1] ... الخ".

في هذا الاتجاه الذي حدده الأستاذ ساروليا للشعر.

(١) ترجمة الصديق عبده حسن الزيات.

- عناصر نريد من جماعة "المحافظين" في الأدب أن تكون موضع دراستهم وهم في عزلة من عصبيتهم الحمقاء التي ترجع بهم قروناً إلى الوراء بينما الفكر يسير بسرعة البرق إلى الأمام، نريدهم أن يخرجوا من محيطهم الضيق وأفقهم المحدود وأن يهجروا تلك الشواطئ التي ألفوا العيش بجوارها، إلى محيط يكشف لنا ما لايزال مجهولاً عنا، وينزع عن أعيننا الغشاء وتلك النظارات الملونة التي ترينا كل شيء بغيراونه الحقيقي إلى محيط يصلنا بالمحيط الإنساني العام الذي تتقارب عنده الفكرات وتلتقي عند مصبه مختلف الميول.

- ٣ -

وفي هذه المجموعة الشعرية التي تقدم بها صديقنا الطبيب علي الناصر الذي أراد أن يهجر تلك الطريقة القديمة في وصف الطلول والخربات الصم بينما لا طلول ولا خربات صم بل عيش في ظلال المدنية الوراف، والذي دشّن حبه الحقيقي بهذه "البواكير" التي تصور نزوات نفس كئيبة أمضها الألم وقلب مشوق أنحله العذاب صورة من الشعر الحسي الذي يرينا صدق العاطفة؛ بل الصورة الصادقة لوحدته وألمه ويأسه وحبه وابتسامه وغضبه والكثير من هذه الحالات النفسية التي كانت تهز منه الفؤاد وتحرك من نفسه الشعور الحساس الذي تترقرق خيوطه على هذه الصفحات..

سامي الكيالي

قصة قلب

إلى التي لم ترع

الذمام

١٩/١٠/١٩٢٤

أول نظرة: القصيدة الأولى

١

رأيــــت ذات صــــباح والوقــت وقــت خريــف
والأرض بــل ثراهـــا غيــث أتاهـــا خفيــف
والـشمس همــت نهوضـاً بحمـــل غـــيم كثيـــف
وأرســـلت الروابــــي شـــعاع نـــور ضـعيف
بنتـــاً كدميـــة ديـــرٍ بحـــسن قـــد ظريـــف
والـشعر سـبط تـدلى علـــى خـــصر نحيــف
نظــرت وجهـــاً تحلـــى بطـــرف حـــب عفيــف
كـــل الـــشباب تجلـــى بـــشكل خلـــقٍ شــريف

* * *

لما رأت وجه بؤسي   كوجه ليل مخيف
راحت تَحُثُّ خطاها   على رخام الرصيف
فما تمالكت... حتى   واراها قصر منيف

* * *

لمستُ قلبي بكفي   رباه أنت رؤوف
أشمس روحِي هذي   حتى عراها كسوف
كتمتُ في النفس سراً   وقلت عقلي سخيف

٢

عبثت هذه الفتاة بلبي   إن لُبّي بحمقه لا يجارى
كيف قد راح بالغرام عليلاً   بعدما أشبع الغرام احتقارا
ما وقار الأبيّ غير ستارٍ   ويد الحبّ تهتك الأستارا

٣

ألا ليت أني نسيم الرياض
أقدم عرفي إلى حضرتك
ويا ليت أني دموع الندى
تقاطر نثراً على فلّتك
ويا ليت أني نشيد الغرام
أرافق أنغام قيثارتك
ويا ليت أني خيال الكرى
أزور جمالك في هجعتك

ويا ليت أني نور الصباح
أضم ضيائي إلى طلعتك
ويا ليت أني رسول السرور
فأهدى الحبور إلى مهجتك
ويا ليت أني فراش الضياء
فأحرق نفسي على شعلتك
ويا ليت أني هزار الغصون
أغرد شوقاً إلى رؤيتك
ويا ليت أني كتاب الحياة
يريك خفاياه في وحدتك
ويا ليت أني ملاك العفاف
أرفرف حرصاً على عفتك

٤

سموك أفروذيت بنت الزبد
آلهة الحسن بشكل البشر
ضلوا فقد كوّنت من باسم الـ
أحلام والنعمى وضوء القمر
ومن صبا لبنان غِبَّ الحيا
ومن شذا الأزهار وقت السحر
ومن غنا الأطيار في روضها

ومـــــن صـــــدى الألحــــان بنـــت الــــوتر
وبـــــسمة العــــشاق حــــين اللقــــا
وبهجــــــة الطـــــل إذا مــــــا انتثــــر
وخطــــــرة الإلهـــــام تـــــوحي إلـــــى
مـــــستلهم أعيــــــاه طـــــول الحـــــصر
والطهـــــر طهـــــر الطفـــــل فـــــي مهـــــده
وغايــــــة اللطــــــف ولطــــــف الخفـــــر
ومـــــــن حنـــــــان الأم إذ فاجــــــأت
وحيـــــدها المعبــــــود وقــــت الخطـــــر

٥

تخلـــل شـــعرها الـــذهبي	شـــعاع مـــن ســـنا القمـــر
وأرقـــصه النـــسيم علـــى	جبـــين زيـــن بـــالحفر
جلـــست أمامهـــا أرنـــو	لحـــسن الله فـــي البـــشر
فيــــا لله منظرهــــا	فكـــم يـــوحي لمفتكـــر
فمـــا بـــال الفتـــاة دَجَـــى	تـــرود الأفـــق بـــالنظر
تنـــاجي الليـــل صـــامتة	بـــذهن عـــجَّ بـــالفكر
دعـــى الآمـــال فـــاتِنَتي	فلـــيس الخِبْـــر كـــالخَبَرِ*
وصـــوني الـــنفس مـــن	وله وكوني منه فـــي حـــذر

* الخِبْرُ: العلم بالشيء، والخَبَرُ: النَبأُ. — المحرر.

أعيــذ دماغــك المملــوء بــالأحلام مــن خطــر
أخــاف عليــك عاصــفة تميــل بغـصنك النـضر
فترفعــه وتخفــضه كفعــل الــشارب الخمــر
فيغــدو منــه ناضــره بــلا عــين ولا أثــر
أودّ لــو أننــي الــواقي فــأدفع نــازل القــدر
هلمــي يــا منــى نفــسي نقــضّي الليــل بالــسمر
ونقرأ مــن كتــاب الكــون ما قــد خــط مــن عبــر:
يــذيع غرامــه القمــري بالنغمــات فــي الــسحر
ويهــوى العــيش منــتقلاً علــى الأزهــار والــشجر
طليقــاً فــي تنقلــه بعيــد الهــم والكــدر
فيوقعــه القــضا الماضــي بــأمر غيــر منتظــر
فيمسي وهــو فــي قفــص عليــه ذل منكــسر
وإمــا غارقــاً بــدم ببُنــدق صــائد بطــر
كــذاك الــدهر مملــوء بآيــات لمعتبــر
زهــور الــروض مولعــة بنــشر أريجهــا العطــر
تلــون تاجهــا بــسناً مــن الأضــواء منتثــر
تحللــه وتنــشره كقوس الشمس في المطــر
لتجذب نحوهــا الحــشرات ذات النفــع لا الــضرر
وهــذا لــيس مــن عبــث فكــل الحــب للثمــر
يــصول القــيظ منتقمــاً عليهــا فعــل مقتــدر

وتـــذروها الريـــاح كمـــا تـــشيل بـــأحقر العَفَـــر
زمـــان الحـــسن كـــالورد قـــصير غايـــة القـــصر
وأما الحـــسن فـــي خلـق فمحبـــوب مـــع الكبـــر
فعيـــشي العمـــر ناعمـــة وإن لم يقض لـــي وطـــري
فليـــت الـــدهر مقتـــدراً يضيف إليك مـــن عمـــري
أو النعمـــاء طـــوع يـــدي فأهـــديها إلـــى البـــشر
لـــئلا تحزنـــي ممـــا يلاقـــيهم مـــن الـــضرر
هناءَ الـــنفس حـــين تـــرى هنـــاءَ البـــدو والحـــضر

***

عذيري منـــك قـــد أبـــدلت حلـــو العـــيش بـــالمَقِر*
وقـــد أذكيـــت فـــي كبـــدي غرامـــاً طـــائر الـــشرر
جميـــع الحـــب منحـــصر وحبـــي غيـــر منحـــصر
فـــإن أســـرفت فـــاحتملي وإن أذنبـــت فـــاغتفري

٦

عبـــدتك يـــا ســـلوى عبـــادة ضـــارع
إلـــى الله فـــي قطـــع مـــن الليـــل حالـــكِ
وأفنيـــت أحلامـــي الجميلـــة ضـــلة
وأنّـــى لمثلـــي منحـــة مـــن نوالـــكِ

---

* المقِر: المر أو الحامض. – المحرر.

خيالــــك نَــــصْب العـــين أنـــىَّ تحولـــت
علــــى كـــل مــــرأى يلـــوح جمالُــــكِ
ففـــي الزهـــر والأضـــواء رمـــزك باســـم
وفـــي نغمـــة القمـــري لحـــن دلالـــك
وفـــي نـــسمات الـــصبح يـــا سـلوَ صـــورة
لِرقَّتِـــك المثلــــى وطيـــب خـــصالك
وفـــي دمعـــة المحـــزون عطفـــك ماثـــل
وفـــي ظلمـــة الليـــل الرهيـــب جلالـــك
وفـــي الرعـــد والأنـــواء والبحـــر إن طغـــى
وفـــي الـــذاريات الهـــوج معنـــى ضـــلالك*
فلـــولا مقـــالُ النـــاسُ جُـــنَّ مـــن الهـــوى
لقلـــت بـــشرع الحـــسن جـــل جلالـــك

٧

فـــي ظـــلال الأشـــجار وقـــت الـــصباح
حيـــث شـــدو الطيـــور بـــالأفراح
وتَثَنّـــي الغـــصون غنجـــاً وتيهـــاً
ببـــستان النـــسيم جَـــمّ المـــزاح
وميـــاه الـــشلال شـــوقاً ترامـــى

---

* الذاريات: الرياح. – المحرر.

مـــــن علاهــــــا إلـــــي فـــــسيح البطـــــاح

تتـــــزّى فـــــوق الـــــصخور وتجـــــري

بـــــين أدغـــــال مـــــشجر فيـــــاح

حينمـــــا كنـــــت تجلـــــسين بقربـــــي

ونفـــــدّي اللـــــذات بـــــالأرواح

وتـــــصوغين فـــــوق رأســـــك تاجـــــاً

مـــــن زهـــــور الأجـــــاص والتفـــــاح

وتُميتـــــين لاعجـــــاً كـــــان حيـــــاً

برحيـــــق مـــــن ثغـــــرك الوضـــــاح

وتنـــــاغينني بلحـــــن خفـــــي

قـــــد تعـــــالى عـــــن عجمـــــة الإفـــــصاح

حينمـــــا كنـــــت تقـــــرأين خفيـــــاً

فـــــي فـــــؤادي يـــــدق عـــــن إيـــــضاحي

كنـــــت أقـــــرا الحيـــــاة فـــــي عينيـــــك

حِينمـــــا البحـــــر كـــــان رهـــــواً لطيفـــــا

وضـــــياء الهـــــلال يـــــأتي ضـــــعيفا

ونجـــــوم الـــــسماء ترنـــــو إلينـــــا

بعيـــــون تـــــسيل نـــــوراً ظريفـــــاً

حـــــين شـــــدنا فـــــوق الـــــصخور لحـــــب

معبـــــداً لا نـــــزال فيـــــه عكوفـــــا

نحـــــرق الــــــنفس فــــــي الغـــــرام بخـــــوراً
يتعـــــــالى إلــــــى "الألمــــــب" شــــــريفا
وإلــــــى "الزُهْــــــرة" الـــــــسنى ســــــناها
راح يـــــــروي عنــــــا حـــــديثا طريفــــــا
حينمـــــا كنـــــت فــــوق صــــدري تميلـــــين
بــــــرأس بـــــــه خلقـــــــت رؤوفـــــــا
وبروحــــــي أشـــــم شـــــعرك وجـــــدا
وبزاكــــــي شـــــذاه كنـــــت كلوفـــــا
وتمــــــدين أخمـــــصيك إلــــــى البحــــــر
فتمــــــسي القــــــبلات منـــــه ألوفـــــا
إذ تعــــــدّين فـــــي الـــــسماء نجومـــــا
وتمـــــــدين ســــــــاعداً مكـــــــشوفا
وتقـــــولين يــــــا لهـــــا مـــــن درار
فلنــــــضعها قلائـــــــد وشـــــــنوفا*
كنــــــت أقــــــرا الإلهـــــام فــــــي عينيـــــك
حينمـــــا فـــــي الربيــــع رحنــــا أصـــــيلا
ومـــــشينا فـــــي الغــــاب شـــــوطاً طـــــويلا
ونــــــصبنا أرجوحـــــــة وطفقنـــــــا

---

* الشّنْف: القِرط تتحلى به المرأة. ج: شنوف. – المحرر.

نتبـــــــــارى تعاليـــــــــا ونــــــــــزولا

إذ تلــــــــوذين مــــــــا ارتفعنــــــــا بعنقـــــــي

وتطيــــــــرين فــــــي الهــــــواء ذيــــــولا

تـــــــصرخين الأمـــــــان يكفــــــي صــــــعوداً

وتهــــــــــزين ســــــــاعدي المفتـــــــــولا

قـــــــد لهونــــــا كمـــــــا نـــــشاء إلـــــى أن

أســـــــدلت ربـــــــة الظـــــــلام ســــــدولا

فجلـــــــسنا بقــــــــرب دوحـــــــة دلـــــــب

وركنــــــــا إلــــــــى الـــــــسكون قلـــــــيلا

وأصـــــــخنا بـــــــسرنا لـــــــدعاء الكـــــون

يعلـــــــــو لربـــــــــه محمـــــــــولا

يتـــــــسامى مــــــن قـــــــدس أســــــرار ذرات

وجـــــــود تجـــــــل ربـــــــاً جلـــــــيلا

قـــــــد ســـــــرت نفحـــــــة الطبيعـــــــة فينــــــا

فوجـــــــدنا إلـــــــى الـــــــسماء ســـــبيلا

فامتطينــــــا الأثيـــــــر نــــــسبح فــــــي الملـــــك

ســـــــــراعاً كـــــــالمجتبي جبـــــــريلا

فاكتـــــــشفنا أســـــــرار كــــــون عجيــــــب

وفقهنـــــــا الأنـــــــام جـــــــيلاً فجـــــــيلا

حـــــين كنـــــا فــــي اللانهايــــــة أيـــــضاً

لا نرجـــــــيّ مـــــــن الغـــــــرام بـــــــديلا

٨

إنـــــي أشــــاهد فـــي عينيــــك مـــا جمعــــت

هــــــذي الطبيعــــــة مـــــن إبـــــداع فنّـــــان

ففيهمــــــا أقـــــــرأ الآيــــــات مكتـــــشفاً

ســــر الـــــورى فهمـــــا وحيـــــي وقرآنــــــي

ومنهمـــــا مـــــصدر الإلهـــــام يرفعنـــــي

علــــى جناحيــــه فــــوق العـــالم الفـــاني

أطيــــر فــــي عــــالم الأحـــلام مبتهجـــاً

مجــــرداً عــــن تبـــــاريحي وأحزانـــــي

فنـــاظري وثنــــيّ فـــي تعبـــده

يرنــــو إليـــــك بتقــــديس وإيمـــــان

٩

حـــــسناء كالآمـــــال مومـوقـــــة

فتانـــــة كالمـــال فـــي العـــالمينْ

لـــــولا ضـــــياها مـــت فـــي ظلمتـــي

ومـــا أرى الأفـــراح قلبـــي الحـــزينْ

باغتهـــا فـــي الـــروض صـــرعى الكـــرى

والـــورق ترعاهـــا بطـــول الحنــــين

قـــد هـــب مخمـــوراً نـــسيم الـــصبا

علـــــى تتـــــاغي الطيـــــر فـــــوق الغـــــصون
تنهـــــــداً غنَّـــــــى بأنفاســـــــه
فحركـــــت تهتـــــان طـــــل العيـــــون*
ورددت أبـــــواقُ زهـــــر الربـــــى
صـــــدى زفيـــــرِ العاشـــــق المـــــستكين
فأرقـــــصت نـــــوراً زكـــــيٌّ الـــــشذا
ففـــــاح يـــــورى النـــــار فـــــي العاشـــــقين
وطيـــــرت عـــــن جيـــــدها ســـــترها
فـــــلاح للأنظـــــار نهـــــد الفتـــــون
ودغـــــدغت أمواجهـــــا خـــــصرها
فـــــافتر ثغـــــر الحـــــب للـــــوالهين
وقفـــــت مبهوتـــــاً ومـــــن دهـــــشتي
ســـــجدت للحـــــسن مـــــع الـــــساجدين

١٠

اختلـــــسنا مـــــن الـــــشتاء مـــــساءً
مـــــدَّ فـــــوق الـــــشهباء كالليـــــل بـــــردا
فانـــــسللنا إلـــــى (الـــــسبيل) ولـــــذنا

* تهتان: من هَتَنَ الدمع، أي قَطَرَ فهو هاتن.
التهتان: مطر يفتر ثم يعود.
الطلّ: المطر الخفيف. – المحرر

بحمـــــى الـــــدوح نطـــرد الخـــوف طـــــردا

والتففنـــــــا بعـــــضاً بـــــبعض هيامـــــــاً

ومزجنــــــــا الأرواح والـــــــدمع وجـــــــدا

وقطفنـــــــا ثمـــــــار حـــــــواء قـــــسراً

نتبـــــــــارى بالنهــــــــب أخـــــــــذاً وردا

فـــــــأبو النـــــــاس آدم لـــــــــو رآنـــــــــا

مـــــــا بكــــــى جنـــــــة ولا رام خلـــــــدا

وافترقنـــــــــــا بقبلــــــــــة أعلمتنـــــــــــا

أن ذا الحـــــب لـــــيس يعـــــرف حـــــدا

قبلـــــــة تـــــضرم الجـــــوى ضَـــــرِبَتْها

شـــــفة الـــــشوق للملاقـــــاة وعـــــدا

١١

مـــــا لعينـــــيَّ ترقبـــــان الطريقـــــــا

والفـــــؤاد الـــــشقي طـــــار خفوقـــــا

داعمـــــاً جبهتـــــي بكفـــــي مـــــلالاً

شـــــائماً مـــــن ســـــاء حبـــــي بروقـــــا

شاخـــــصاً نحوهـــــا أعـــــد الثـــــواني

أفمـــــا كنـــــت بانتظـــــار خليقـــــا

ضـــــللتني الحـــــواس ألفـــــاً فألفـــــاً

فكـــــأني لا أعـــــرف التـــــصديقا

وإذا أقلـــــــــــق الطريـــــــــق نــــــــــسيم
تزهـــــق الـــــــنفس مــــــن شـــــجاها زهوقـــــــا

راكعـــــــاً باســـــــطاً إليهــــــا ذراعـــــــــي
بعـــــد مــــا كنـــــت فــــي الإبـــــاء صـــــدوقا

لا تلمنــــــــــي حــــــــذار ثــــــــم حـــــــــذار
فلقــــــد كنـــــت فـــــي الغـــــرام عريقـــــــا

ويـــــل نفـــــسي فلــــــم تراعــــــي ذمــــــامي
مَرَقَـــــــتْ مــــــن عقيــــــدة الوفــــــاء مروقـــــــا

كـــــل أنثـــــى تمـــــين فـــــي شــــرع حـــــوا*
أيهـــــــا الوالهـــــــان عنــــــدي أفيقــــــا

أمــــــسكا عــــــن تَدَلُّـــــــهِ بجمـــــــــال
قــــد كفـــــى قـــــد كفـــــى فلـــــست مطيقـــــا

نهنهتنــــــــي الهمـــــــوم والحـــــب قـــــاسٍ
ليـــــت شــــعري ألا يـــــصير رقيقــــــا

ليـــــت شـــــعري علـــــى م تـــــسحق قلبـــــي
أفمــــا كـــــان فـــــي هواهــــا ســـــحيقا

١٢

فليتـــــــك قبــــــل أن تنـــــسي عهـــــودي
مــــن الأصـــــداء تؤنـــــسك الزهـــــور

---

* تَمِينُ: تكذب، من مان يَمينُ، والمَيْنُ: الكذب.   – المحرر–

فتبكيـــــــك العيــــــون بفــــــرط دمــــــعٍ
يفــــــيض مــــــن الفــــــؤاد ولا يغــــــور
وروحــــــي فــــــي الفــــــضاء تهــــيم شــــوقاً
إليــــــك كَنَيِّــــــرٍ دومــــــاً تــــــدور
ولكنــــــي انتزعتــــــك مــــــن فــــــؤادي
ومــــــن أمــــــسي علــــــى وتــــــر يثــــــور
ثقــــــي ســــــلوى! إذا مــــــا الحــــــب ولّــــــى
فكــــــل العــــــيش بهتــــــان وزور

١٣

أنا وحــدي وغرفتــي فــي ظــلام　　　أنــا وحــدي ومؤنــسي الآلامــي

أنا وحدي وأدمعي بانسجام

نال منــي الأســى وصــبري ولــى　　　هل تعاني الــشقاء مثلــي؟.. كــلا

وإذا مــت فــي هواهــا فحــسبي　　　أن يقولــوا الــشقي مــات فــداها

* * *

قادني الــشوق نحوهــا ليــل أمــسِ　　　فتقــدمت مخفيــاً كــل جــرس

ولتعسي يا هول نحسي وتعسي

قد وجــدت الحــراس فــي البــستان　　　وخباهــــا يعــــجُّ بالفتيــــان

وصــدى القهقهــات شَــرَّدَ روحــي　　　فتراجعــت واطئــاً آمــالي

* * *

كم وكم طفت في الظـــلام بقــصرِكْ　　　ناشقاً ما استطعت فـــائح عطـــرِكْ

اسأل النيرات خافِيَ أمرِكْ

وكثيراً ما ارتعــت مــن هــذياني　　　فتماســكتُ معلنـــاً عــصياني

غير أني علمــت عجــزي وذلـــي　　　فتخبطــت فـــي ظـــلام اليـــأس

* * *

ســائلي الجــسر كــم وقفــت عليــه　　　ثــم أفــضيت بالحــديث إليـــه

واسألي القاطنين في جانبيه

عـــن جمـــودي كـــأنني تمثـــال　　　ليـــت شـــعري أتقلـــب الأحـــوال

فـــأرى منـــك مـــا يـــسر إذا لـــم　　　يخـــتلج نحـــوي الفـــؤاد بحـــب

* * *

أتعس النـــاس مـــن يحـــب ويخفـــي　　　بغـــرف الحـــزن والكآبـــة غرفـــا

ساقِيَيَّ اسقياني اليوم صرفا

وأنـــشداني مراثـــي الأمـــوات　　　حَبَّبـــا لـــي الممـــات قبـــل فـــواتي

ففواتي في نـضرة العمـــر صـــعب　　　وحياتي فـــي اليـــأس هـــم وكـــرب

* * *

لـــست أنـــسى نـــصيحةً لفتـــاة　　　صـــحبتي فـــي ســـالف الأوقـــات

ووقتـــي مـــن مهلكـــات حيـــاتي　　　رَأَمَتْـــي إذْ كنـــت أحتـــاج رأمـــا

هي كانت أباً لحزني وأماً

هـــي كانـــت تزيـــل مـــن آلامـــي　　　هـــي كـــالنور فِـــي دجـــى أيـــامي

* * *

فاجـــأتني ولعـــين تـــدمع غمـــاً دعمـــاً جبهتـــي بكفـــي دعمـــا

من ذهولي ما كنت أشعر مما

قد عراهـــا مـــن التأســـي علَـــي وانبـــساط اليـــدين منهـــا إلـــي

تـــسأل الله أن يـــرق لـــدمعي ويواسي مـــن البليـــة صـــدعي

* * *

أيهـــا البـــائس الـــشقي علـــى مَ تسكب الدمع يا حـــزين علـــى مَ

وربيع الحياة فيك تسامى

فتبتـــسم لكـــل مـــا يعتريـــك وتجنـــب فالحـــب ذا يـــضنيك

وانتهز فرصـــة الـــشباب وغـــنّ وتقلـــب فـــي كـــل فـــن وفـــن

* * *

صدقت فالحيـــاة محـــض جـــدال ليس يجـــدي إذا علقـــت خيـــالي

وإذا كان للتراب مآلي

فـــسُواء لـــدي وصـــل وهجـــرُ حلم يا غوي في الكـــون عمـــرُ

غيـــر أنـــي أود علـــم مـــصيري لجنـــان الهنـــاء أم لـــسعير

* * *

ذقت مر الشقاء مذ كنـــت طفـــلاً وبلوت الحيـــاة شـــكلاً فـــشكلا

فوجدت الهناء عني تخلى

ووجـــدت الأكـــوان لا تتنـــاهى من قديم تـــسير فـــي مجراهـــا

ليس تـــصغي لـــصاعد الأنـــات لا ولا تفقـــه انتحـــاب اليتـــامى

١٤

سلوى إذا زال يوماً — فصل الربيع وولّى
وأصبح الروض جدبا — وزهره سيم ذلا
وعاشق الورد أضحى — يلقي نشيداً مملا
وصاخب الريح أهوت — بيابس الغصن تلاًّ
تهزه بانتقام — كأن للريح زحلا
منها ترامت تباعاً — أوراقه الصفر قتلى
هل تذكرين غراماً — قد مات مذ كان طفلا
قتلته في فؤادي — وخنت عهداً وإلاًّ*
سلوى العواصفُ تهدا — إذا شتا العمر حل
الثلج أكفان ميت — مضى وخلف ثكلا
تبكي عليه الغوادي — فيهطل الدمع هطلا
الحزن مهما تمادى — يأتيه يوم فيسلى
كذا الحياة سيلوى! — تمر فصلاً ففصلا

١٥

ظننت بكاءك حين النوى
ووعدك لي بالوفا صادقا — أهنتِ غرامي
فرحتِ وخلفتِ صباً هوى

---

* إلالُ: العهد. – المحرر.

كـــــــسيراً يُجـــــرَّع مُـــــرً الـــــشقا   نفــضتِ ذمـــامي
تَخِــــذْتك – والحــــب يعمــــي الفتـــــى –
إلهـــــــــة روحــــــــي بآمالهـــــــــا   فكنـــتِ مرامـــــي
وأخلــــــصت للحـــــب نفـــساً قـــضى
عليهــــــــا الغــــــــرام بإذلالهـــــــا   بفـــرط هيـــامي
دمــوعي تــسيل   وقلبــي عليــل ومــالي ســبيل   إلــى غــايتي
أَفَــرْطُ العويـــل وآه طويـــل يكــون الــدليل إلــى غــادتي
وددت لــــو أنـــــي بجـــنح الـــدجى
خيــــال يجــــوس خــــلال الــــديار   علــى مَ الفــضول
ومــــــاذا يفيـــــدك غيـــــر الأســـــى
ســـــؤالك عمــــن تَجَنَّـــــى وجـــــار   وصـــد الرســـول
إذا مـــــا التجـــأت إلــــى غرفتــــي
وأســــلمت حـــالي لطـــول الفكـــــر   فرشـــدي يـــزول
فـــأدمي بنـــانيَ مـــن غيرتـــــي
وبـــــالغيظ أوشــــك أن أنتحـــــر   وهيجــي يطــول
لمــن تبــسمين   ومــن تلثمــين   ألا تنــدمين   علــى مــا مــضى
ولا تـــرحمين   ولا تــذكرين   ولا تنـــدبين   مُحِبــاً قــضى

١٦

إذا ما الليل أضوى كل حيّ
لمرقده وغالبه السبات
تمر خواطر الماضي أمامي
وتزجي الذكريات الذكريات
أقول سلوت من خانت عهودي
وأنّى لي على السلوى ثبات
"فذوا القلب الحزين وإن تعزى"
له ما عاش للماضي التفات
تمر الفاجعات أمام عيني
وآخرها أيا سلوى الممات
إذا ما مت فانعيني وقومي
على قبري فتلك لي الصلاة

١٧

كفرت بأقدس ما في الحياة
ولو أن فيها وفا الوالده
وقد تبت عن هذه الفلسفات
لأني أراهِا بلا فائده
فلي في فؤادي عذاب مقيم

أساريرُ وجهي به شاهده
إذا الحس جاوز حد الصواب
وهيج مني قوىً هامده
وراحت لحاظي تطير الشرار
ونار انتقامي لها واقده
وأظفار غيظي تسيل الدماء
على راحتيَّ سطت حاقده
أود لو الأرض آضت لهيباً
وللجذب في سيرها فاقده
وفي اللانهاية كر الدهور
تمور بنيرانها شاردة

١٨

أترع الكأس واسقنيها زعافاً
يسكن القلب بعد طول اضطراب
علَّ روحي في ظلمة القبر تسلو
ما تقاسي من مهلك الأوصاب
قد خبرت الغرام والحسن حسبي
منهما لوعة وطول عذاب

وسـئمت الربيـع والزهـر والطـل

وبـيض الطـلا وخمـر الرضـاب*

وغنـاء الأطيـار فـي وضـح الـصبح

ورقـص النـسيم بـين الهـضاب

وكرهـت الألحـان والخمـر واللهـو

ولقيـا الأحبـاب والأصـحاب

* * *

مـا لهـذي المحاسـن اليـوم آضـت**

هازئـات بنـضرتي وشـبابي

ضـاحكات ممـا يخـالج نفـسي

مـن همـوم وحرقـة واكتئـاب

ولهـذي الأضـواء تزهـو سـروراً

بظلامـي وضـلتي وارتيـابي

رب نـور ورب زهـر جميـل

لـشقائي اتخـذت مـن أربـاب

---

* - الطَّلُّ: المطر الخفيف.

- الطَّلا: ولد الظبية.

- الرُّضاب: الريق المرشوف، ورغوة العَسَل، وما تقطع من الندى على الشجر، والماء العذب. - المحرر -

** - آضَتْ من الفعل آضَ يئيض: سار وعاد، آض إلى أهله: رجع إليهم. - المحرر -

ليـــــت عـــــن عينــــــي الحقيقـــــة تبقـــــى

فـــــي خفـــــــاء ونورهـــــــا باحتجـــــــاب

كـــــان ليـــــل الـــــضلال يـــــستر عنـــــي

مـــــا أنـــــا فيـــــه مـــــن عنـــــاً ومـــــصاب

فـــــإذا الـــــصبح بعـــــد جهـــــد جهيـــــد

يكـــــشف الـــــستر عـــــن حيـــــاة خـــــراب

وإذا بـــــي فـــــي هيكـــــل الحـــــسن أبكـــــي

بـــــين تلـــــك الأصـــــنام بالانتحـــــاب

وإذا بـــــي والغـــــيظ يـــــذهب لبـــــي

أتَعَـــــزّى بحطـــــم ذي الأنـــــصاب

١٩

أبـــــدت مـــــن الحـــــسن لـــــي الأوهـــــام آلهـــــة

فرحـــــت أعبـــــدها مـــــستنفداً عمـــــري

تجـــــسَّمت فـــــي خيـــــالي فهـــــي ماثلـــــة

فـــــي كـــــل مـــــا يتـــــراءى لـــــي مـــــن الـــــصور

حتـــــى إذا ســـــبرت نفـــــسي حقيقتهـــــا

وجـــــدتها كوّنـــــت مـــــن حمـــــأة القـــــدر

يـــــا نفـــــس مـــــا المثـــــل الأعلـــــى دمـــــي خلقـــــت

تـــسبى العقـــول وأصـــنام مـــن البـــشر

٢٠

خُطّاف مــا أحلــى وأبــدع مهرجانــك فــي المــساء*
الــصيف موســمك الجميــل وفيــه أســباب الهنــاء
طر في الــسماء مرفرفــا مــا بــين طيــات الهــواء
غرد فسيقك ســيق سيقـــك لحــن إلهــام الــسماء**
غرد وطر مــا بــين ســربك فــي هبــوط واعــتلاء
خطــاف أنــت إذا المــساء أضــاق أنفاســي عزائــي
فــإذا أراك مهلّـــلاً عينـــي تكــف عــن البكـــاء
هب لي جناحك كــي أرفــرف راكبــاً مــتن الرجــاء
إنــي أرى فــي ســر نفــسي دافعــاً نحــو العــلاء
اليــأس قبــر فــي الحيـــاة وفيــه أتعبنـــي ثــوائي

٢١

قد أسرع العاشق كالمسلوب
للغاب يستفتي إله الفجر:
يـــا ناشـــر الأنـــوار يـــا مجلـــى الـــدجى

---

* الخُطّاف: السنونو. – المحرر –

** السيق: المقصود اسم صوت السنونو، أي زقزقته و(سيقك سيق سيقك) محاكاة لصوت زقزقته. – المحرر–

يـــا مـــوقظ الأزهـــار يـــا مـــوحي الرجـــا

للقلوب

روحـــي غرامـــاً لـــم تـــذق طعـــم الكـــرى

قـــد ضـــرها شـــوقها طـــول الـــسُرى

للحبيب

عينـــي ســـواه فـــي البرايـــا لا تـــرى

إن كـــان عنـــي غائبـــاً أو حاضـــرا

فهو القريب

لكنـــه خلـــف الأمـــاني قـــد جـــرى

إن طـــال عتبـــي صـــدٌ عنـــي نـــافرا

لا يؤوب

نـــاداه رب النـــور يـــا واهـــي الحجـــى

للكـــلٌ فـــي الـــدنيا أمـــانٍ ترتجـــي

في الغيوب

فعـــاد ذا العاشـــق كـــالمحروب

للبيـــت يـــستجدي جميـــل الـــصبر

٢٢

في ليلة زاهرة النجوم

مهتزة الأعطاف بالنسيم

جلـــس العاشـــق وهنـــاً فـــوق صـــخر منفـــردْ

ســـاهماً يتلـــو الأســـى فـــي وجهـــه آي الكمـــد

شـــاكياً للبحـــر وجـــداً فـــي الحـــشا منـــه اتقـــدْ

قـــائلاً: يـــا مـــدفن الأســـرار صـــبري قـــد نفـــد

لـــيس لـــي بعـــد التـــي رامـــت بعـــادي مـــن ســـند

كـــم تماســـكت غـــروراً وتكلفـــت الجلـــد

غيـــر أنـــي لـــم أزل فـــي إثرهـــا شـــوقاً أجـــد

مـــا احتيـــالي والهـــوى عنـــدي تعـــدى كـــل حـــد

فَأَتَتْـــه بغتـــة ألحـــان ربـــات الزبـــد

أيهـــا العاشـــق مهمـــا ضـــقت بالحـــب اتئـــد

واعلمنْ مـــن ذا الهـــوى لـــم يخـــل فـــي الـــدنيا أحـــد

فعـــاد ذا العاشـــق كـــالمحموم

يهـــذي كفـــوراً بالقـــضا المحتـــوم

٢٣

لما أمض الصبَّ برح الهم

لاذ اضطراراً بإله الكرم

اســـكب اللهـــم فـــي روحـــي الـــسرور بخمـــورك

وتعطـــف وامـــلأ القلـــب الكـــسير مـــن حبـــورك

يـــا مـــلاذ البؤســـاء يـــا هنـــاء الـــسعداء

يـــا طهـــــور الأتقيـــــاء اســـتجب منـــي دعـــائي

* * *

إن فـــي قلبـــي غرامـــاً يـــستطير بالـــــــــشرار

أضـــرم اليـــابس منـــي والنـــضير هـــيجُ نـــاري

لـــم يفـــد فـــرط بكـــائي لا ولا طـــول عنـــائي

أنـــت يـــا كـــل رجـــائي اســـتجب منـــي دعـــائي

* * *

حـــول أجفـــاني ظـــلام مـــستدير مـــن حـــدادي

هالـــة تنبيـــك مكنـــون الـــضمير بالـــــــــسواد

هـــي عنـــوان شـــقائي هـــي رمـــز لبلائـــي

فأنرهـــــــا بالـــــــضياء اســـتجب ربـــي دعـــائي

ناداه رب الكرم ياذا الوهم

اشرب ولا تحفل بفرط السقم

٢٤

روح الربيـــع تمـــشي فـــي كـــل ذرات جـــسمي

فـــأزهرت فـــي فـــؤادي آمـــال حـــب قـــديمِ

مـــع الـــشتاء تـــولى عظـــيم حزنـــي وغمـــي

وقـــد جـــلا الـــضيق عنـــي مـــع انجـــلاء الغيـــوم

* * *

شــذا الزهــور ســلاماً فأنــت مــن ريــح ســلوى
امـــلأ فـــؤادِيَ بِـــشْراً وطـــفْ بروحـــي طـــويلا
وارجـــع بعهـــد التـــصابي فالحـــب قـــد كـــان حلـــوا
وابعث لنــا مــن جديـد مــا صــار رســماً محــيلا

* * *

الآن أهـــوى الـــضياء وأشـــتهي ألوانـــه
فـــالنور يـــبهج نفـــسي ويـــستثير هيـــامي
أنـــا كـــسرو[1] تـــراه مجـــدداً أغـــصانه
لكننـــي رمـــز قبـــرٍ دفنـــتُ فيـــه غرامـــي

١٩ نيسان ١٩٢٨

(١) جرت العادة في الأستانة أن تغرس سروة عند كل قبر.

أوبرا فصل واحد

الشاعر وإلهة الحب

إلهة الحب جالسة على عرشها وحولها الشعب (قوروس)* رجالاً ونساء ركوعاً ينشدون:

قُـــدِّست ، قُـــدِّست   يـــا ربـــة الجـــلال
قُدِّســـــت، قُدِّســـــت   إلهـــــة الجمــــــال

الشاعر بشعر طويل مسترسل يلبس السواد؛ ينشد أبياته بخضوع ويستعطف إلهة الحب بقوله:

أشكو انفرادي الذي مـــا زال يقلقنـــي   طوال عمري وبالأحزان يبكينـــي
أهوى ولكن من أهواه لـــيس يفـــي   بمـــا تطلبـــه روحـــي فيـــسليني
أصبحت أنشد حبـــاً لا ســـبيل لـــه   يا ربة الحب منهاج الهوى اهـــديني
يا ربة الحب نفسي اليوم ضـــارعة   إليك من قلق فـــي الـــسر مكنـــون
قـــدمتها هبـــة للحـــب خالـــصة   تقبليهـــا بمـــا فيهـــا مـــن الهـــون
يا ربة الحب إنـــي بـــائس دنـــف   أبكي على عمري الماضي فآســـيني

إلهة الحب: (تخاطب الشاعر بأنفة وكبرياء)

يـــا أيهـــا المغـــرور   يـــا مـــدعي الـــسقم
مفتـــــاح هيكلـــــــي   الهيـــــام والألـــــم

---

* - (قوروس) أي جوقة chorus. - المحرر -

قوروس:

قُدِّســـــت، قُدِّســـــت　　يـــا ربـــة الجـــلال
قُدِّســـــت، قُدِّســـت　　إلـــهــــة الجــــمال

* * *

الشاعر:

فكـــــم ســــهرت الليـــالي　　وكـــــم ســــكبت دمـــوعي
وبحـــــت للــــنجم وهنـــــاً　　بمــــا تكــــن ضـــلوعي
لا الــــصبح يــــبهج نفـــسي　　ولا هـــــديل القمـــــاري
ولا النـــــسيم ســــحيراً　　يطفـــــي شــــديد أواري
مـــــالي والزهـــــر يزهـــــو　　بـــــساحر الألـــــوان
رواؤه وذبـــــــــولي　　يمزقـــــان جنـــــاني
أنـــــا الوحيـــــد الغريــــب　　مـــا بــين أهلــي وصـــحبي
هـــــذا الفـــضاء الرحيــــب　　يـــضيق بـــي وبكربـــي
وعنـــــد وقـــــت المـــساء　　يثـــور بركـــان غمـــي
كـــأنني فــــي الغــــروب　　أرى جنـــــازة أمـــــي
ألـــــيس يكفـــي عـــذابي　　ألـــيس يكفـــي شــــقائي
يــــا ربــــة الحـــب رفقـــاً　　فأنـــــتِ كــــل رجـــائي

* * *

إلهة الحب:

بخـــــور هيكلـــــي　　النفـــــوس تحــــرق

وخمـــــر مــــــذبحي   الــــدموع تهـــرق

"كوبيـــد" ذو الـــسهام   رســــول أمتــــي

تــــسخــر الأنـــام   عظـــيم قـــدرتي

* * *

قوروس:

النـــوح والأنـــين   ترتيلـــة الـــصلاة

والمـــوت بـــالغرام   أمنيـــة الحيـــاة

* * *

الشاعر:

"نيـــرون" يحـــرق رومـــا   "فرعـــون" يظلـــم شـــعبه

لكـــنّ مـــن كـــان ربـــاً   لا يمنـــع النـــاس حبـــه

الـــرب يمـــسح دمعـــاً   يـــسقي ثـــرى قدميـــه

حاشـــاه يـــسحق قلبـــاً   يطيـــر شـــوقاً إليـــه

رب يهـــــدد عبـــــداً   بالنـــار لـــيس بربـــي

إن ســـاء فعلـــي وقـــولي   فالـــذنب لـــيس بـــذنبي

إلهـــة الحـــب إنـــي   أحتـــاج عطفـــاً ولينـــا

أحتـــاج للقلـــب ســـلوى   ولاضـــطرابي ســـكونا

أحتـــاج للـــنفس نـــوراً   فقـــد تمـــادى دجاهـــا

عـــسى الـــصباح الجميـــل   يـــشعُ فـــي أرجاهـــا

* * *

إلهة الحب:

الخـــضوع الخـــضوع   الركـــوع الركـــوع

قوروس:

يهـــدأ الجنـــان بالإيمـــان   اعتقـــد أيهـــا الإنـــسان

* * *

الشاعر:

ممـــــا لقيـــــت بحبـــــي   أواه ســـــاء اعتقـــــادي

أنـــــا أقـــــدس ربـــــاً   يـــشفي جـــروح فـــؤادي

لا هازئـــــاً بـــــدموعي   وضـــاحكاً مـــن حـــدادي

* * *

إلهة الحب:

قـــودوا العـــصى إلـــى إلـــه المـــوت

* * *

قوروس: يجرون الشاعر إلى إله الموت الجالس على عرش وحوله الجماجم وبيده منجل ويهزجون بقولهم:

المـــوت للعـــصاة   المـــوت للعـــصاة

* * *

إله الموت:

مرحبـــاً بـــالـــشقي   مرحبـــاً بالغريـــب

فـــي دجـــى تربتـــي   تـــستريـــح القلـــوب

* * *

الشاعر: يركع عند قدمي إله الموت ويناجيه:

آمنــــت آمنـــت بـــك   رب الخـــــلود

المجـــد والـــشأن لـــك   فـــي الوجـــود

يا رب قد لذت بك

* * *

قوروس:

عيـــــشنا أوهـــــام

ينزل الستار

الظمأ

مقطوعات شعرية

١٩٢٨ - ١٩٣١

المحتويات:

المقدمة

بقلم الأستاذ الباحث الفيلسوف
أمين الريحاني

هذا ديوان طبيب شاعر، بل طبيب عاشق لا يطيق الحجب والستور. يخلع عذاره كما فعل الفارض صوفياً، وكما فعل أبو النواس خمرياً، ويلبس اعتذاره الخلاعة. الطبيعة أمه، والعقل أخوه، والحس دليله. طبيب شاعر، عاشق، مشرح، محلل ــ ولك في التحليل الوجهان ــ يعشق، إذا ما تبل القلب، نقش عشقه، ويهيم بعد المعشوق بالشك والتسائل.

علي الناصر مدني صحراوي الدم والأديم. بلغ من المدنية، بطريق حلب فالآستانة فباريس منزلة استقرت بها النفس منه، وما أمن لها العقل ولا استكان.

وهو عربي بما تقدم حلب من نزوح، وبما في العروبة من شمم زهرتها تميم، ومن حرية مهدها البادية وإخوانها البدو. غريزة بدوية، في عقلية علمية، في روح مدنية – هو ذا علي الناصر الشاعر الطبيب.

وإن أفق شعره ليحيط بنزعات متعددة، متباينة وبأساليب هي عنوان الفتوة متنوعة البذور، منها زاهر، ومنها ما لا يزال في البراعم والأكمام.

إن الديوان مجموعة نموذجات لا تغرب أسبابها، ولا تخفى حلقات اتصالها، إذا ما ذكرنا المدنية والبادية، وذكرنا كذلك أن نسمة مسيحية تغلغلت في فؤاد الناصر من سلف لأمه.

فمن البادية إلى الآستانة إلى باريس، ومن دار العبادة إلى الدير إلى الكنيسة تخشن الصناعة وتدق، وتغلظ الألفاظ وتلين، ويظل هناك ما يحتاج إلى شيء من الصقل أو الإبداع.

ولكن الناصر صادق اللهجة في كل حال. وهو في صدقه قاسٍ لا يرثي حتى لحاله.

"لا اســـــتقر علـــــى شـــــيء تلامـــــسه

يـــــدي، وتجـــــذبني كذابـــــة الـــــشفق"

وهو فوق ذلك قويم الجادة، حاد المزاج، سريع المفاجأة، مدني الإشارة آناً وآناً بدويها، يهمس ويصيخ، ويجابه ويشيح، ويحنو للحقيقة ويحن إليها قبل كل شيء، روحه تارة:

"مخفوضـــــة الـــــرأس إيمانـــــاً بـــــسؤددها"

وطوراً:

"رقـــــشاء قـــــد زانهـــــا جلـــــد يزركـــــشه

زاهـــــي الـــــضياء وذوب التبـــــر والـــــصدف"

هي ذي الحقيقة من قلمه له وعليه. وهاك الأدلة:

فإن له نهمات قطيعة[1] ونفحات شذاؤها من البنفسج والياسمين[2] ومن العجيب أن الذئب والغزال يرعيان في قلبه ولا يتعدى الواحد غابه أو حماه.

ومن نموذجات هذا الديوان ما هو قديم قديم كقصيدتي "الربيع" و"الغيرة". فقد تقدم الناصر فيهما ألف شاعر وشاعر، وما علا على المألوف المبتذل، وبرز صناعة وفكراً وشعوراً، غير أفراد منهم في الشرق وفي الغرب ولا أظن الناصر

(١) "الاحتراص" و "إذا مت".

(٢) "بنفسجتي" و "أمي الطبيعة" و"عواصف قلب".

يعيد أو يكثر النسيج على هذا المنوال. أما قيمة الديوان الحقيقية فهي تنحصر، على ما أرى، في ما يصح أن يدعى شعر الاقتضاب. لا أريد بذلك ما هو متعارف كالارتجال أو كالهجوم على المديح بعد الغزل بل هو الهجوم على الموضوع بسهم ينفذ إلى قلبه، وبما لا يخلو من شبه الارتجال.

هو الشعر الجديد نظماً وتقطيعاً ولهجة. فيتناسق وروح هذا العصر السريع التنفس والسير، القليل الصبر على المسافات الفنية والتمهيدات الشعرية. قل قولك بكلمة وجيزة، بليغة وامش مسرعاً إلى غرضك، هي روح هذا الشعر الجديد. وهو قلما يطرب وقلما في الجيد منه، يصرد سهمه. ومن قصائد الديوان البارزة في هذا الفن أخص بالذكر "النتيجة" وميسلون" و"الموت أهون عندي" و"هنتوني" فإنك بعد قراءتها، وإن لم تطرب لها، تعجب بتأثيرها البليغ في النفس وترى أنه من الحشو أو الفضول أن يزاد إليها كلمة واحدة. أما القوالب، ومن ضمنها الألفاظ والصيغ والتقطيع فإن فيها مجالاً للتحسين وللزيادة في الإبداع وسيتوفق على الناصر إلى ذلك في مستقبل فنه إن شاء الله.

الفريكة ــ لبنان   في ١٥ أيلول سنة ١٩٣١

أمين الريحاني

. أنا .

مرت الأيام وأنا أنظم من الأحلام والابتسامات والأخيلة والزهور والأضواء، تيجاناً مغرية لأقدمها إلى أنانيتي.

هذا دأبي وهذا ما حبب لي الحياة.

مرت الأيام وأنا أجمع من الشره والطموح والبغض والانتقام والغيرة والشهوة أشواكاً تصمي قلبي.

هذا دأبي وهذا ما حبب لي الحياة.

مد وجزر في خضم العمر.

أما الآن فأنا كأرملة غجرية تجر بجانبيها مسخين، شعثاء تعصف الريح العاتية بأطمارها البالية وتهزها كبقايا علم بعد معركة دامية، ولكن عينيها الملتهبتين في وكري جنبيها العالي، معلقتان بالأفق البعيد، تنظر إلى الأمام وإلى الأمام.

حلب في ١٠ تشرين الثاني ١٩٣١ ع.ن

زهــور الربيع

بنفسجتي

في روضة المثل الأعلى بنفسجة
دمي ودمعي استبيحا في تعهدها
رمز التواضع والحب الخفي فلا
يخشى المحب هواناً من تمردها
رقيقة، حلوة تسبي نضارتها
مخفوضة الرأس إيماناً بسؤددها
ذوت فيا ليت أن الحسن مخلدها
وخلفتني كأم بعد واحدها

الياسمين

أنتَ يا ياسمينُ تحيي الليالي
في المناجاة ساهر النوار
تَبْثُثِ البدرَ ما تُكِنُّ من الوجـــ
ـــد بأنفاس قلبك المعطار
يا رفيقَ التكوين والعرف حقاً

أنت في الروض شاعرَ الأزهارِ

إن روحي عليك تشفق حتى

من دعاب النسيم في الأسحار..

ومن الطل أن يطوق عطفيـ

ك بعقد من دمعه المدرار

ومن الآنسات ينظمن من زهـ

رك للحب قلائد الأذكار

أضاميم الزهر

أضاميم زهر على مكتبي

عذارى تجلت بشتى الصور:

عذارى الشمال، بنات الثلو

ج تجمد فيها ضياء القمر

عذارى الجنوب، بنات الشمو

س، بنات الغروب، بنات السحر

تراءت لعيني بآلاف شكلٍ

بآلاف لون يسر النظر

تفوح بشتى عطور الحيا

ة وكل أريج غريب الأثر

فمنها مذيب ومنها مهيج
ومنها يثير نيام الفكر
ومنها يداعب باكي الهوى
ومنها يهدهد قلبي البطر

* * *

فليت الطبيعة بثت بها
فنون العذارى بنات البشر

الخيال

ما وراء الغيوم، ما وراء النجوم، ما وراء الخيال،

سحت بالحسن

طرت بالجوى، سائقي الهوى، غايتي الجمال،

تابعاً هجسي

ما وراء الغيوم لهفة المحروم
ما وراء النجوم ظلمة تدوم
ما وراء الخيال غاية النفسِ

هزة روح

أطل يا وجد في ليلي ذهولي
ويا روحي امتطي متن الخيال

إلي عرائس الأحراج طيري
وحولي رتلي آي الجمال
واخلعي العذار واهجري الوقار
وارقصي بالعرا
وابرزي النهود واهززي القدود
واهزئي بالوفا
وتحت أشعة القمر السنيّ
وبين الدوح في سفح الجبال
خذي نايات ربات البحار
وناغيني بألحان الدلال
واملئي الفضاء بساحر الغناء
وامرحي بالهنا
أشعلي الغرام وابثثي الهيام
في فؤاد الدجى
وإن فوجئت بالصبح الجميل
ومد ضياءه شفق الجلال
تعالي واهجعي بالقرب مني
وبالشمس المنيرة لا تبالي.

الربيع

نشاط تمشى بقلب الوجو
د فأحيى الهوام وأحيى الشجر

وأجرى النسيم الخفي الغرا ــ
م ليلثم شوقاً عيون الزهر
نشاط تمشى بروح الطيو ــ
ر فقامت تغني هيام السحر
وساق الفراش إلى حبها
وأوحى إلى النحل أن تنتشر
وأمشى الحياة وأمشى الجميــ
ــع إلى حيث يبغي القضا والقدر
نشاط عجيب بأفعاله
يعيد الرميم ويحي المدر
نشاط بنفسي أعاد الهوى
وهل أنا إلا تراب قذر
وهل أنا إلا شقيق النبا ــ
ت، وليد القضاء، سليل الغير.

الشروق

أشرق الفجر! فغنت حبها الأطيار
ونسيم الصبح لهواً داعب الأشجار
كل ما في الكون حب وحياة وضياء
كل ما في الكون شعر وجمال وبهاء

أيقظ الطل عيون الزهرِ
وزقا الديك رسول السحر
يا فتاة! استيقظي
أخليقٌ بكِ يا بنت الروا والغرامِ
حينما الصبح ينادي للهوى أن تنامي؟

* * *

استغرق الشاعر في إلهامهِ
وعشيق الورد في أنغامه
وفراش الحب في تهيامه
مجدي الأصباح باللحن الشجي
وأنشدي الأحلام بالشعر الطلي
واطلبي الآمال بالعزم القوي
يا فتاتي!

نشيد الحب

إلا من ثغرك الوردي سقيت الخلـ
ـد من قد ذاق لا يفنى
وقد شاهدت في عينيك نور اللـ
ـه يجلو ظلمة الدنيا
شروق الفجر من وجهك

وعرف الزهر من نشرك
ضعي رأسي على صدرك
وغني ربة الإلهام
نشيد الحب بالأنغام

* * *

فروحي منذ بدء الخلق في الأفلا
ك في تهيامها تسعى
فلما الوجد صفاها من الأرجا
س شاء لشأنها رفعا
فألجاها إلى لطفك
فضميها إلى عطفك
فقد فاءت إلى ظلك
وغني ربة الإلهام
نشيد الحب بالأنغام

* * *

بدمعي حبذا لو أغسل الأقدا
م ما شئت إذلالي
وبالأنفاس أدفيها فداء الحب
أحلامي وآمالي
فلا تجني على عبدك

فيا لله من صدك

ضعي رأسي على نهدك

وغني الحب بالأنغام

فقلبي بالهنا قد نام.

الطبيعة أمي

فهل علي جناح

إذا خلعت عذاري

وقمت في الروض أشدو

كالطير في الأسحار

وأرشف الطل صبحاً

من مبسم الأزهار

وفوق جزع نضيرٍ

من باسق الأشجار

أقيم للهو عشاً

وفيه أقضي نهاري

يهدهد الريح جسمي

ويستبيح دثاري

حتى إذا الليل وافى

بأنجم كالدراري
أنام ملء جفوني
بقرب ماءٍ جاري
هذي الطبيعة أمي
وفي ثراها قراري.

سيميا

دع "عويناتك" دعها
وانظرن الكائنات:
دمعة، قسمات وجه
خددتها الحادثات،
قلصة الثغر، ويأس العيـ
ـن، كبح الحسرات،
حركات، رعشات،
وثبات، سكنات
في الدنى الألواح تترى
مبطئات، عجلات.

* * *

ضع "عويناتك" ضعها
فهي سيميا الكائنات

بسمة، حظ، حبور
وعذارى مرحات
إن موسيقائها
لحن كثير القهقهات
ها هو العمر مليء
بالهنا والحسنات
حب واستمتع وغرد
وامرحن حتى الممات
ضعها لا تحفل بما
تنبيك هذي الفلسفات.

السعادة

فتشوا عنك في مجالي الطبيعة
فتشوا عنك في الفتاة الجميلة
فتشوا عنك في ربوع الحضارة
فتشوا عنك في النضار الثمين
فتشوا عنك في الهوى والطموح
فتشوا عنك في صفاء الضمير
فتشوا عنك في حمى الأديان
قد سعوا جهدهم وما وجدوك

إنهم من خيالهم خلقوك.

إلى السيدة «ل. . .»

تعالي نسكب الدمع
كلانا وآله حائر
فلا نعمى إذا كنا
نعيش بقلبنا الثائر
أتيت إلي تستشفيــ
ــن من غم ومن سأم
طبيبك موجع يرجو
شفا ما فيه من ألم
فإن ما كنتِ في قلق
فإني ظاهر القلق
وإن ما كنت في أرق
فإني صاحب الأرق
وإن ما كنت في ضيق
فضيقي لا يفارقني
إذا ما جنني ليلي
يكاد الضيق يخنقني
فشعري ملؤه شجن

يحاكي نثرك الشاكي
ومن للموجع المحزو-
ن غير الموجع الباكي
تعالي نمزج الدمع
كلانا وآله، حائر
فلا نعمى إذا كنا
نعيش بقلبنا الثائر.

أحـــلام

علام هذا الجدال؟
لقد أضعنا ثميناً
من وقتنا بالمقال
وقد أثرنا شجوناً
نعم عشقت قديما
وأنت هلّا شغفت
من قبل مثلي؟ وهلّا
بذات كأسي شربت؟
يعكر الحب حتماً
تذكار ما قد تقضى
دعي القبور البوالي

تطيل في السلم غمضا
لسنا سوى رعشات
تشع حيناً وتخبو
في قلب كون عظيم
عن المقاييس ينبو
مهلاً دعيني أطفي
أوار روحي بثغرك
وعانقيني وشدي
بالرأس وجهة نحرك
هذي الحياة وهذي
آمالنا لو عقلنا
الموت سهل إذا ما
على الغرام عكفنا
هذا الربيع يحيي الـــ
حياة بالبسمات
ويستجد سحوراً
من الشتاء الموات
هذي الطيور تناغي
في الصبح والإمساء
على الغصون تغني

بمطربات الغناء
هذا الفراش الجميل
بالحب يحيى ويقضي
هذي زهور الرياض
تفوح حيناً وتمضي
هذا عشيق الورود
يبث قدماً هواه
هيهات يحفل أما
داعي الفناء دعاه
قد أقبل الليل هبي
إلى ضفاف الغدير
نلهو ونلهو ونلهو
إلى الهزيع الأخير
وفي حما الصفصاف
نلقي عصا التسيار
نصغي لهمس النسيم
في مائس الأشجار
نصغي ورأسك ملقى
على فؤادي الكلوف
بكل حسن بديع

وكل حب طريف
بالوجد نخلق جواً
هواؤه الألهام
نحيى به لا نبالي
ما تصنع الأيامُ
نسمو على جانحيه
إلى مغاني الخلود
حيث البصيرة تجلو
أسرار هذا الوجود
هبي نشاهد مغنى
عرائس الأحراج
العاريات الزواهي
بمنظر وهاج
الناشرات شعوراً
بلون تبر مذاب
أو كالأشعة عند الـــ
مغيب فوق الروابي
المالئات سكون الـــ
فضاء بالألحان
الخاطرات كَمَرِّ الإلـــ

ـــهامِ في الأذهان

الباعثات بقلب الـــ

ـــحياة روح السرور

الجاهلات، السواهي

عن مرمضات الشرور

هذي الطبيعة نعمى

زخارة المبهجات

تدعو بنيها إليها

بأروع المغريات

سماؤها وثراها

نور ونور وسيم

في صحوها النفس تصبو

لها وحين تغيم

نسيمها فيه تزكو

تحية الأسحار

وفي اهتياج البحار،

وثائر الأعصار

سيما الجلال المهيب

وفي التماع البروق

وفي رمال الصحاري

وفي المسا والشروق
وفي سكون الليالي
وفي الغيوث البواكي
وفي خرير المياه
وفي الثلوج الحواكي
قلب الفضيلة، معنى
يصبي غواة الفنون
فينشدون الخلود
في غشية من فتون

* * *

حبيبتي أنا أدري
بما يجول بفكرك
تبغين عقداً ثميناً
من النجوم لنحرك
وحلة تتلألأ
"لا كليوبترا" رأتها
ولا محاظي "لويس"
أو "الرشيد" اكتستها
هيهات منية روحي
فقد عدتني المشيئة

فلست أملك إلا
هذي الزهور البريئة
وحلة من رقيق الـــ
أضواء تهدي إليك
من الطبيعة أمي
التي تغار عليك

الاستعراض

روح الجمال استعرضت جندها:
فمرت الأزهار بسامة
يسبي النهى سحار ألوانها
عاطرة الذيل وأنداؤها
كأدمع حارت بأجفانها،
ومرت الأشجار في موكب
شامخة الرأس بأفنانها،
ومرت الأجبال في كبرها،
والأنهر الخضر بغيطانها
ومرت الأبحار مهتاجة
تمثل البطش بطغيانها،
ومرت البيد بأبعادها

وريحها الجاري بكثبانها

ومرت الأجواء في غيمها

والرعد موكول بتهتانها،

وأقبل الفجر ومن بعده

شمس الضحى تسمو بنيرانها،

ومرت الظلما بأقمارها

مليكة زينت بتيجانها،

ومرت الطير بأسرابها

مسرعة تشدو بألحانها،

وقد أتت تسعى وحوش الفلا

بفتكها تزهو وغيلانها،

روح الجمال استعرضت جندها:

فمر ذاك الآدمي الذي

يحمل سر الكون في رأسه،

ومرت المرأة من بعده

في رأسه تمشي وفي حسه.

الوصال

حاز فؤادي منك ما يشتهي

وذاقت النفس شهي الجني

وأنت جوزيت بتنويلة
ما يرتجيه المرء أن أحسن.
هل أنت إلا الخمر ملحاحة
يحتاجها الإنسان ما أدمن،
هل أنت إلا معبد للنهى
ترتاح فيه النفس بعد العنا
بل أنت إلا هاتف ملهم
لحاؤه النعمي وزاهي المني.
لك الحياة استكملت فيها
أحيلاك وما أحسن.

هنئوني

هنئوني صححت فكري وسيري
واتخذت الحياة نهجاً جليا
مذ رميت الأوهام عني بعيداً
في أمور قد كنت فيها شقيا،
صرت أهوى البقاء والنعماء
صرت أهوى الزهور والأضواء
صرت أهوى السموم والأنداء

صرت أهوى الرعود والأنواء

صرت أهوى الشروق والإمساء

صرت أهوى السكون والأهواء

صرت أهوى الطبيعة الحسناء

صرت أهوى...

* * *

صرت أهوى فتاتي الخرقاء.

إلى الآنسة (م.ع.أ)

فهمت بعينيك سر الهوى،

وأني جهول به مّدعٍ

فأصبحت أحقر عمري الذي

عليه صباحك لم يطلع.

جمالك كالحلم لا ترتجي

له الكف مسكاً، دقيق، خفي

جمالك يوحي وإيحاؤه

كبرءٍ تبسم في مدنف

ثلاثة أيام يا حسنها

ثلاثة أيام فيها أنا

حبيت، وإن كنت من بعدها

سأستنزف اليأس حتى الفنا
فكم من دقائق في قصرها
تساوي الحياة بآمالها.

إلى الآنسة (ش)

في الصدر مصباحان قد حجبتهما
بهلاهلٍ نسجته ربات الشفق
نشأ الهوى كالحلم في حقيهما
قلقاً وما أحلاه ذياك القلق
والقد والشعر المتوج رأسها
والثغر والعينان أبدع ما خلق.
سمعت بأني شاعر، دين الهوى
ديني، وربي الغادة الحسناء،
فبدت تقول بمشتهى أوضاعها
انظر إلي فها أنا حسناء.

إلى (أم كلثوم)

أمامك في قاعة الانتظار
جلست لأعزوكِ. يالانكساري.
علامَ الخداع؟

وليس بخاف عليك الخداع.

رأيتك سمراء، ممشوقة، وذوقك في اللبس ذوق سليم،

لبست السواد وما من حداد.

يداك بما فيهما من نشاط، ظريف الإشارة في رقةٍ كقمريتين

وفي شفق الثغر معنى خفي

يكاد يصرخ بالشهوة.

وفي مقلتيك ظلال البكاء

وأي البكاء؟

البكا الباسم.

ووجهك، شعرك، صدرك...

* * *

وأما شعوري:

فأفق جديد تجلى علي،

غريب أثار بروحي الخيال

تخيلت فيه:

جلال الصحارى إذا الليل مد عليها الجناح

فيه أريج كلفح الجحيم وروح النسيم،

فيه شروق وفيه شفق،

فيه حنان وفيه عتو،

وفيه اهتياج وفيه وفيه... وفيه الحياة

* * *

رجعت إلى البيت في ثورة تهز كياني

دعمت جبيني بكلتي يدي وأنصت أسمع همس جناني:

علامَ التمادي بهذي الفكر

غداً يا معذب أو بعد غد

وبالرغم عنك، زمان السفر.

عواصف قلب

المــرأة

كنا على مرتفع شاهقٍ
نشاهد الكون قبيل المغيب
وكانت الشمس بأنوارها
تهوي إلى البحر الرزين، المهيب
هذا وروحانا بسر الهوى
سابحة في مضمرات الغيوب.
قامت على الفور وأهوت على
عنقي وهزتني بعنفٍ عجيب
مُلحَّةً كالطفل هيا إئتني
بالشمس أولا فانتقامي رهيب.
ظننتها تلهو ولكنني
شاهدت في العينين قدح اللهيب
هيا إئتني بالشمس ها إئتني
أواه أنى لي بها من نصيب؟
شمرت ذيلي وأدرعت الهوى

ورحت أرجو قبضها باليمين
ركضت في البر وأحراجه
وخضت في البحر بعزم متين
وجبت أجواء السماء طائراً
كالمارد الجبار لا أستكين
ومرت الأيام لا أشتكي
أكافح الأهوال حتى تلين،
حتى إذا عدت بمطلوبها
مكللاً بالغار حر الجبين
استنكرتني... قلت [ذاك الفتى]
قالت: محا ذكراه كَرُّ السنين.

غاية روحي

الآن بعد اضطرابٍ
يمشي عليه اضطرابُ
الآن بعد ليالٍ
قد طال فيها العذاب
الآن بعد طموحٍ
في النفس منه ذئابُ
جياع، أما توانت
يحثها استكلاب

الآن بعد اهتياج

يضل عنه الصواب

وجدت ملهاة روحي:

في هالة من شكوكٍ

شفافة الظلماتِ

دوماً تثير بنفسي

عجائب الشهواتِ

وتفعم القلب قسراً

بأوجع اللذات

أدنو فتبعد عني

بأرشق الوثبات

وإن تباعدت تدنو

بالغنج والمغريات

في هالة من شكوك

شفافة الظلمات

وجدت غاية روحي.

النتيجة

أف هيهات إن روحي حزينة

ليس يعطي اضطرابها ما ترجي

أف أواه في ظلام السكينة
يقرأ القلب بؤسه بالتهجي
يعشق الحسن
يعشق الشعر
يعشق اللحن
يعشق العدل
يعشق النبل
يعشق الطل
يعشق الزهر
يعشق الزُهر
يعشق النور
يعشق الليل
يعشق الوهم
يعشق العشق
يعشق الكل
يعشق الله
أف أواه في ظلام النتيجة
يقرؤ القلب يأسه بالتهجي.

قمرية أم جنية؟

قمرية في هالة من شفقْ
باتت طوال الليل في غرفتي

توحي المنى والحب في شدوها

وتبعث الآمال في مهجتي

لما أردت الغد تصويرها

تخاذل الألهام عن غايتي

* * *

جنية، ذات قروح جئت

فوق فؤادي في الظلام البهيم

حتى شروق الفجر، من ثغرها

باتت تسقيني صديد الهموم

لما أردت الغد تصويرها

تخاذل الألهام عن غايتي

* * *

قمريتي هل أنت جنيتي...؟

الغيـرة

كنا نسير:

وقفت والوهم يبدي

للعين حالاً عجيباً

كأن سلوى أمامي

يحسنها عريانه

وبي إليها انجذاب

لم أستطع كتمانه

هممت والقلب شوقاً

قد أستطير وجيبا

فهل عراني الجنون...؟

رجعت عنها وغيظي

يفور في الصدر فوراً

وغيرتي كحريق

تشب طي الضمير

وكدت أبطش جهلاً

بذا الملاك الغرير

أتلك ربة حسنٍ

تُسِرُّ ميناً وغدراً

أم ضللتني الظنون...؟

سلوى لهول اضطرابي

ومن لهيب عيوني

أهوت علي برأس

قد صيغ ظرفاً ولطفاً

وبين طيات صدري

وارته تطلب عطفاً

فروحها طمأنتني

فصحت وسط السكون

هيهات سلوى تخون.

* * *

ثملت بالحب حتى

هزئت بالأكدار

فكل ما يتراءى

في الكون يبهج نفسي

ويستثير حبوري

بما يهدهد حسي

أنا فراش وسلوى

معطر الأزهار

ديني الهوى والفتون.

في ليلة ساد فيها الـــ

سكون كنت وسلوى

في قارب راح يجري

بها وبي كيف شاء،

جلست بين يديها
والنفس ملأى رجاء
وقمت أروي إليها
هواي مراً وحلواً
حديث صب حنون
قامت تداعب رأسي
وقهقهت لغرامي
فحين رجع صداها
بدى يرن بروحي
شعرت بالشك يسري
خلال قلبي الجريح
ومن قرارة نفسي
همس فصيح الكلام
يقول سلوى تمين*.
مرت ليالي وروحي
شريدة في الفضاء
لا غاية لا شعور
بما القضاء دهاها

* - تمين: لا تقول الصدق. من مانَ يمين ميناً = كذب. - المحرر.

تسري إلى حيث تلقى
هلاكها في سراها
كمركب أسلموه
لثائر الأنواء
فأين منه السكون
لم أنتبه من ذهولي
إلا بدمع سخينٍ
يجري على الوجه سحاً
وصوت سلوى الرقيق
يقول حسبك حزناً
وحسب قلبي السحيق
أمررت كفي قسراً
على خطوط جبيني
فطاح ستر الجفون
نظرت حولي بعينٍ
مشدوهة بالشقاء
ماذا تراءى لعيني...؟
أنقاض روحي تجري
في دمع سلوى، وأني

أحل مجهول سرى
أنا عليك، زمين
هيهات يرجى شفائي
من داء نفسي الدفين.

الربان

لِمْ لازمتْ روحي
عواصف الأهواء...؟
يا أيها الربان!
هيا اترك الدفة
واتركني في الأنواء
استهدف الصدفة
يا أيها الإنسان!
هَّلا نظرت الأفق
يحكي ظلام القبر
يحكي حداد الحق
هَّلا نظرت البرق
هلا سمعت الرعد
هلا رأيت الموج

في أخذه والرد...؟

يا أيها الربان!

هيا اترك الدفة

واتركني في الأمواج

استهدف الصدفة،

منذ استوى ساقي

الأهل خلوني

أعمى ولا هادي

في البؤس زجوني

أستروح النعمى

من مهلك الأرواح

حتى غدا قلبي

يستكره الأفراح

لكنني ليثٌ

أشبالي الآمال

أستعذب البلوى

والصبر والأهوال

* * *

كم زعزعت روحي

عواصف الأهواء...

إذا مت

إذا مت فارموا جانب الحقل جيفتي
قرى للضواري والطيور الكواسر
وللدود ما يبقي من الجسم مأكلاً
وللنبت ما تحوي حشاشة شاعر
فلست أرجي في حمى القبر راحةً
وما أنا مفراح لزورة زائر،
كفاني فقد كفنت في ميعة الصبا
غرامي وآمالي وغر خواطري.

الموت أهون عندي

الناس يبغون مني:
أن أترك الخمر عمري
والشعر والهوى
وأن أصم شعوري
عن أنة الأسى
وأن أطيل ابتسامي
أمام من بكى

وأن أشيح بوجهي
عن مدنف شكا
وأن أعفر رأسي
بترب من طغى
وأن أغطس نفسي
في حمأة الخنا
وأن أبيع بلادي
لغاصب أتى،
الموت أهون عندي.

ليلة الزفاف

ألبسوها البياض كيما تحاكي الـــ
زنبق الغض عفةً ونقاء
وبزهر الليمون قد كللوها
وأزانوا جبينها الوضاء
وبعرف الزهور قد عطروها
واجتلوها حتى تلالت صفاء
فغدت مثل فِلة غب طلٍ
تملأ العين بهجة ورواء
وبدوا يطربونها بغناء

وأهازيج تملأ الأرجاء.

* * *

أكثروا من هتافهم

حين جاءوا بعرسها

مثل ملك متوج

يتهادى لخدرها

أدخلوه وجمعهم

يتغنى بطهرها.

* * *

ليته ظل عمره

جاهلاً سر أمرها...

سر العيون

منية النفس في زمرد عينيـــ

ــــك سماء ضحيانة بالجمال

كم تنورت فجرها في ظلامي

وتمنيت فهمها بخيالي

وإليها رنوت والطرف باكِ

أشتكي في الهوى تبلبل بالي

غير أن السماء سر خفي

منذ كانت لم تنتبه لسؤال.

القنبلة

فكما لا يحد فرط ولوعي
وهيامي، فغيرتي لا تُحَدْ
فإذا ما قضيت ليلي افتكاراً
واستشاط الفؤاد غيظاً وفار
والشياطين في سماء خيالي
كالثعابين قد بدت تتجارى
تملأ النفس بالعزيف وتشـــ
ـــجيها وتنفي عن الفؤاد القرار
إن ذي القنبلة
بالردى مثقلة
تختم المهزلة
وإذا العين قد أطارت شرارا
ودماً أترعت وحقداً ونار
وحوالي داميات أماني
تتداعي ومنك تطلب ثارا
إن ذي القنبلة
بالردى مثقلة
تختم المهُزلة

ليس لي عنك ما حييت مَرَدْ

فالحذار الحذار إن جَّد جَدْ.

فـؤادي

فؤادي هوة، فيها

تساقط غرُّ أحلامي

تتابع في تساقطها

تتابع سود أيامي

إذا ما الليل أسلمني

لأكداري وآلامي،

أُسلي نفسي الحرّى

بمنظر طيفها الدامي.

إلى امرأة ضالة

أنتِ وما عندك من جمالْ

أنت التي يهواكِ كل الرجال

أنت وفي عينيك سِحْرٌ حلال

كيف اتخذت اليوم "صافو" مثال..؟

* * *

فوجئتِ في خلواتك المظلمة
بين ذراعي لبوة مغرمة
تهصر أعضاءك الناعمة
هصر احتراص ما به مرحمة
ما بين نهديك لها صولة
فمصة تعقبها عضة
والنهد في أشداقها لقمة
ورهزة في أثرها رعشة،
الثغر دامي والذراع التهب
والعين بالشهوة نار تشب
والآخ والأوخ معاً يصطخب
والطل من حَرِّ الجوى ينسكب
وراء أذنيك عبير يشم
وفي ثنايا الإبط عرف أتم
وفي مطاويك الهنا والنعم
والسرة السرة كأس شبم
تهوي على التفاحة المترعة
بالخمر والحب وفي المزرعة
تمرغ مرغ النعجة الجائعة
وأنت أسيرتها الطائعة...؟

وآهاً لآمالك الضائعة...

المغريات

الفتاة الحسناء والخمر والـــ
شعر سبيل إلى سماء خيالي
الفتاة الحسناء والخمر والـــ
شعر لشوقي ما طمأنوا آمالي
إن في النفس، في السويداء منها
مغريات ما عشت تقلق بالي

العجـز

قد سقتني الأحلام خمراً إذا ما
ذاقها المرء لا يرجى ارتواء
فتلذذت في مغاني وهمي
وبها رمت أن أطيل الثواء

* * *

بعد لأي مددت ساقي عجزاً
وبجزع الفنا دعمت ظهيري
وتجاهلت حينما الحب نادى

يا عبادي! فقلت: يقصد غيري

إيه قد طال في الضلالة سيري

ثعبان روحي

رقشاء قد زانها جلد يزركشه

زاهي الضياء وذوب التبر والصدف

ملساء، يزلق عنها الكف باردة

كعنق غانية بضٍ من الترف،

تبيت فوق فؤادي وهي ناصبة

تجاه وجهي رأساً مال بالصلف

طوراً بعين كلون الموت فاقعةٍ،

صفراء، مدهشة، معدومة الطرف

ترنو إلي، وطوراً تستبيح فمي

بذي غرارين مصقولين، مرتجف

ألفتها وبحبيها الهلاك ومن

أنيابها أرتجي دون الورى تلفى.

الحولة « متامورفوز »

الفجر يحكي وجه سلوى إذا

ما سفرت عن وجهها الساحر

وشعرها المائج يسبي النهى

بنشره المستعذب العاطر

هذي السما الزرقاء أرجاؤها

بعيدة الغور على الناظر

كعينها، لكن عين التي أعني

هناء البائس الحائر

هذي التي شعري بها قد شدا

وسحرها استولى على خاطري

نظرتها يوماً ويا دهشتي

لما رأيت الوهم في وجهها

يبدي لعيني وجه فتاكةٍ

يستعوذ الإنسان من شرها.

الاحتراص

أقضت تلكم الفتاة؟ وحقاً

كُسِيَ الوجهُ صفرة الأمواتِ

وغشى عينها الظلام وأمسى

ثغرها لا يمين بالبسمات

واستحال الصدر الخفوق جماداً

وغدا القلب خامد الوثبات...؟

قد قَضَيتْ تلكم الفتاة وهذا

خبر الموت واضح الآيات.

* * *

سرت بالنعش مثلهم وفؤادي

ليس يهدا لشدة الخفقان

وأمامي عصابة من ذويها

ضاربين الصدور بالأذقان

لابسين السواد يبكون حزناً

بدموع غزيرة الهملان

قد قضت تلكم الفتاة وإني

قد تحققت موتها بالعيان

* * *

كدت لولا بقية من ثباتي

أرتمي فوق نعشها حين راحوا

يدفنون التابوت، والأهل* عجوا

بالبكا المر، واستَحَّر النواح

نظري كان يستبيح الخفايا

نظري لا تصده الألواح

---

* – في الأصل (وأهل)، ولعلها خطأ مطبعي – المحرر.

دفنت تلكم الفتاة وحانت،

ساعة يستطاب فيها الكفاحَ.

* * *

أقبل الليل باتئادٍ ممض

واشتياقي لها قليل الأناةِ

ظلمة الليل! اسرعي وتمطي

واستريني بأقتم الظلماتِ

ظلمة الليل! أنت نوري المفدى

ودليلي إلى حمى اللذاتِ،

يا حبوري ويا مسرة روحي

جلل الليل عالم الأمواتِ

* * *

ما أجملك أيتها القبور!

ما أبهاك أيتها الصلبان!

ما ألذك أيتها الأشباح!

ما أحلاك أيتها الأكفان!

أي عطر يفوح منك أيتها المدافن؟

ما هذا العبير الذي يسكرني؟

اسكت أيها البوم اسكت

لا تعكر علي أحلامي.

* * *

طق، طق   طق، طق

طقر، طقر، طقر، طراق ق ق.

* * *

أيها الموت أنت تحيي البرايا
باختطاف الأرواحِ منْ أجسامِ
أيها الموت أنت رب جليل
تنقذ الناس من قذى الآثام.
لا تراعي، عذراء روحي! تعالى
واظمئيني من ثغرك المكتام
إنك الآنُ طوع فرط احتراصي
إنك الآن طوع كل مرامي
افترست الفتاة كالنمر أضرى
وبهصرى غدت تأن العظام
وبنابي مَزّقت ثغرا تولّى
عنه في حفرة الردى الإبهام
ونهشت النهدين نهشاً مريعاً
يتوانى عن وصفه الإلهام
برهة كنت في حماها سعيداً

أنصفتني من شؤمها الأيام

أوخ خ... فيها طمأنت بعض احتراصي

أحسن الخمر

لا تلحنى، كُفَّ، إن عاقرت أثقله

فإن أحسن هذا الخمر أقتله

تحتاج نفسي إلى التغيير تحتاج.

* * *

يا ليت أني إله لا يرد له

أمر، فيحكم في الدنيا كما شاء

فكنت أجعل من ساعاتها صوراً

شتى ترى النفس أشياء وأشياء

لكنني أنا عبد في حقارته

تحتاج نفسي إلى التغيير تحتاج

* * *

تحتاج نفسي لشيءٍ ليس تدركه

لكن وهمي يحلّيه ويخلقه

ما أتعس المرء في ظلما جهالته

يسره في الدنى، ما قام يقلقه

لا تلحنى، كف، إن عاقرت أثقله

فإن أحسن هذا الخمر أقتله.

إلى التي أجهلها

سمعت، إن فلولا رحت أنظمها
من مغريات فؤادي، الثائر القلق
وجامحات أمانٍ لا يروضها الـ
ـتواء غايتها في حلبة السبق
ومبهجات جمال قمت أنشده
في كل متسق يحلو ومفترق
ولا عجاب صبابات أقدسها
أفنت شبابي بطول الحزن والأرق،
لاقت هوىً منك، واستهوتك نغمتها
إذاً فأنت منار لاح في الأفق
أفق الحياة الذي أسعى لغايته
جهدي ولكنه محلولك الغسق
لوحي، لروحي على بعد يحببه
إلي علمي بأني قلبهُ* الخلق
لا استقر على شيءٍ تلامسه

* – في الأصل (قلب)، ولعله خطأ مطبعي. – المحرر.

يدي وتجذبني كذابة الشفق

مجهول! مجهول! روحي ربة القلق.

البدوي الضال

بدوي في شاسعات الفيافي

ضلّ، فانصاع يستخير السبيلا

يمنة، يسرة يروح ويغدو

يفحص الرمل جاهداً، مخذولا

خددت وجهه السموم وأضحى

بصلى الشمس ذاوياً، مملولا،

حائماً، لاغباً، يلوك حصاة

مستدراً أفواقها كي تسيل

قطرة الماء! أين أنت وأنى

دم عوذٍ به يطفى الغليلا

في ظلال الكثبان، كثبان رملٍ

محرق راح يستطيب المقيلا

* * *

نشر الليل جنحه والدرارى

رصعته منظومة وفلولا

وتمطى على الصحارى سكون

يترك الليث خائفاً مذهولا

تتراءى الأشباح فيه وتخفى

وبه الوهم يستبين الغولا،

وسط هذا السكون تمثال يأسٍ

علق الطرف في السماء طويلا

نجمة القطب! أرشديني فإني

منك أرجو طريقي المأمولا

في مسيل الغدير في الشرق منه

منزل الحي فاكشفي المجهولا،

ثم خلفت منيتي وفراخي

ثم أودعت قلبي المتبولا

إنني قد نذرت في كل شهرٍ

لك شاةً وفي الحجيج فصيلا

* * *

نجمة القطب ضللته، فأحنى

رأسه وارتجى من الغيب سولا.

على باب الفردوس

أو قصة الراهبة بولين

الطفل عيسى

الطفل عيسى يتيم
غالت أباه المنونْ
بعطفها كلأته
أم، حصان، حنونْ
جاءت إلى الدير ــ كرهاً ــ
به، وعند الرئيسة
راحت بشكل حزينْ
تشكو حياةً بئيسة
رحماك طفلي، وحيدي
رحماك لا ترفضيه.

عيسى

عينان في طرفيهما رقة
تصبى ولألاء خفي الملال
ينساب في نجوى النهى مثلما

ينساب ضوء الفجر بين الظلال
والثغر وضاح كوردٍ ندي
سواه للإغراء ربّ الجمال
والشعر جعدٌ، لَيِّنٌ لَمْسُه
يتوج الرأس بتاج الجلال.
من ذا الصغير، النافر، الملتجي
إلى جناحي أمه الثاكل...؟
أصورة الإلهام فتانةً
قد جسمت. أم أعين واهمة
راحت ترى في وهمها ما ترى
من حسنه. أم أنفس حالمة،
أم الحياة الغضة الساذجة
قد مثلت في خلقة ناعمة
أم ناشئ الحب بآلائه
قد صورته ريشة ملهمة...؟
من ذا الصغير، النافر، الملتجي
إلى جناحي أمه الثاكل...؟
الرئيسة: ما اسمه
الأم: عيسى
الرئيسة: أجل خلقه

يحكي يسوع الرب وقت الصغر

كم قد تجلى في صميم الحشا

من حسنه المعبود جم الصور

قَبلَتهُ

الأم مستبشرة

راحت تُزَجّى عبرة شاكرة

الدير

هناك حيث الليل في غمه

أشد إيحاشاً وأقوى دجى

هناك حيث الوهم في مده

يجتاز أعماق مخابي النهى

هناك حيث الحلم في طيفه

مصدق يبدو شديد الروا

هناك حيث الوجد يزكو كما

تزكو بمجري الريح نار الغضا

هناك حيث الحب في ناره

لا ينقع الغل فدوماً لظى

هناك حيث التربة الصالحة

عقيمة تحكي جديب الصفا

* * *

ليلاً، دوي من خصاص الحجر

يعلو مهيباً كابتهال الشجر،

ما هزها الريح بوقت السحر:

إن هذه الأرحام أمست قبورْ

إن غاض رغم الحب دَرٌ الصدور

أهذه الدنيا متاع الغرور...؟

ثَمّ ابتهالٌ، بل تشكٍ خفي

يعلو بآمين لرب السما.

عطف الرئيسة والراهبات على عيسى

عزيز الجميع فعطف الجميع بعيسى انحصر

يخفن عليه النسيم العليل إذا ما خطر

ويرقبن فيه نمو الحياة بفرط الحذر

ويحجبن عنه بما يستطعن دواعي الكدر

فسر الأمومة في سربهن عياناً ظهر

وسر المحبة في قلبهن طغى وانتشر

* * *

برغُم الحياة وادعاً نشا في رياض الحب
شمسه الحنان نسغه استقى من دموع القلب
كل ذا للرب، كله للرب.

***

(كأبلّون)، ذي المحاسن، عيسى
شب، نعمى الحياة ملء إهابه
ساحر الصوت إن ترنم يحيي،
ويعيد الشباب في إطرابه
إن يوم القداس في الدير يوم
يطرد الغم والأسى بإيابه
بتراتيله النفوس تسامى
ويسر الصليب في محرابه

* * *

بين سرب الراهبات
غادة تدعى (بولين)
بسم الطهر كفجرٍ
في محياها الحزين
هزها ميلٌ لعيسى
عارم لا يستكين
كلما رامت خلاصاً

منه العزم يخون.

بولين

أرأيت في وضح الصباح بحيرة، حتى الأفق
تمتد، ساجية الأديم كأنها لما تفق؟
وكأنها ذيل السماء امتد ما فوق السهول
بين الغياض الدكن، ما بين الخمائل والحقول،
أنفاسها عقدت على أجوائها ستراً رقيق
ذراته مظروفة بنثار أضواء دقيق،
وقرأت في أعماقها معنى الوداعة والسلام،
وفهمت ذا الصمت الذي يغنيك عن لغة الكلام...؟
هي عينها إما رنت، والوجه وضاء الجبين
فيه الحياة نضيرة توحي الغواية والفتون
من ساحرات خطوطه استوحى "رفائيل" الجمال
ورأى "دفنجي" في نعومة خلقه أي الجلال،
في ثغرها المحزون حمرة ساذج الحب الخفي
والعنق تنظر في رواه السوسن الغض، النقي
برأت أناملها من النور المجمد ذي الحياة
أظفارها شفق المغيب على الروابي الباسمات
لم يخف ذاك الثوب من أوصالها نعم الصبى

فالحسن معبود البرية قد حباها ما حبا.

في قداس عيد قلب يسوع
الأقدس الترتيلة

طوبى لمن للرب، لا لسواه أمسى
ولمجده الأسمى انتمى روحاً وحساً
يا أيها الإيمان!
كن في دجى الشبهات نبراسنا العلوي
إن لم تقِ المخلوق
من خادع الشهوات في نارها يهوى
الشعب: المجد لك يا رب اغفر خطايانا.
في خاشع الأشباح يدوي صدى الأرغن
"كيريه لايسون، كيريه لايسون"

* * *

ضباب البخور، نعاسَ السُرُجْ
وعبق الشموع، الملول الأرج
وعرف الزهور، زفير المهج
بصوت الدعاء الحزين امتزج
وعيسى بصوت عميق الصدى،

كثير النشيج، بعيد المدى،
يذيب الجماد إذا ما شدا
يرتل آي إله الهدى
و"بولين"، "بولين" في سرها
تناجي السموات في وجدها
وبين التنهد، بين البكا
تردد ألفاظ قلب صبا:
(يسوع الحبيب) حبيبي أنا
(يسوع الحبيب) فأنت المنى.
وقد فقدت مقلتاها البكا
وشعت محاجرها باللظى
وعسعس في حدقتيها الدجى
وفي الفم الريق أضحى شجا
بألحان عيسى سرى فكرها
كمن سار في النوم، ساهي الحجى
جنان السموات قد فتحت
وسرب الملائك قد رفرفت
بأجنحة كانتثار الضيا
وخفت إليها بإكليلها
وقد وضعته على رأسها

وعيسى قبالتها يبسم

وظلت بأحلامها تنعم

وقد ملأ الكون فجر بهي

يحاكي الزنابق، غض، شهي،

يفيض بأنواع نعمى الحياة

ويغري القلوب بحب الحياة...

فما هي إلا رؤى كاذبة

و"بولين"، حتى الردى راهبة.

عيسى زير نساء

روح "كوبيدون" حلت

في صبى زير النساء

فيه أرواح الربيع الـــ

ـــغض، زخار البهاء

فيه قيثارة "فينوس"*

بألحان السماء

شأنه اللهو بقلب الفتيات

مهج يرشفها بالقبلات

---

* في الأصل: (فيبوس). ولعله خطأ مطبعي. – المحرر.

من ثغور أزهرت بالبسمات

ليس يدري ما تُبينُ الحسرات.

هيام بولين

قد دجى الليل والضباب الكثيف

رنَّقت فيه حلكة الظلماءِ

ورشيح من الرطوبة قاسٍ،

لاسع لسع حية رقطاءِ

في صميم الدجى تغلغل، حتى

ظن أن لا حرور في الأرجاء

فكأن الحياة ردت لوقت

فقدت فيه نيرات السماء،

طي هذا الظلام "بولين" راحت

ترتجي طهر روحها بالدعاء

ركعت في كنيسة الدير ولهى

تحت أقدام غاسل الآثام

أي يسوع الإله! أنت عليم،

وخبير بجائر الآلام

هاك هذا النجيع يخضب كفيــ

ـك ويجري من شاحب الأقدام

وعلى رأسك الفتي مخاليب من الشوـ

ك تضاهى براثن الضرغام

هاك هذي الحراب تفتح في الكشـ

ـح شقوقاً عسيرة الألتيام

إن صوت المسمار يقرع في كفـ

ـفك يدوي على مدى الأيام

ألم النفس أي يسوع إلهي!

يتعدى تألم الأجسام

فكأني في صمت ثغرك أقرأ

صوراً من قطيعة الأرحام

إن في طرفك المعلق بالرب

عتاباً يجتاز حد الكلام

أنت ضحيت بالحياة لإنقاـ

ذ شعوب كثيرة الإجرام

أنقذ الله من هواها فتاةً

حبها اليوم مستحر الضرام

هي تمشي منقادة لهواها

في ذهول كسائر في المنام.

* * *

أصبح الصبح لا السلو أتاها
والصليب الحزين كالصماء

مرض عيسى

ربة الدير للرجا والدعاء
تجمع الراهبات كل مساء:
أخواتي! عيسى بحالة سوء
فادعون فاطر السما لشفائه
أنهكته الحمى فأصبح نضواً
ليس يقوى على تحمل دائه.

* * *

من قلوب مكلومة بالشقاء
كان يعلو الدعاء نحو السماء
وعيون مقروحة بالبكاء
يصعد الحزن سابحاً في الفضاء

* * *

استجاب الإله، رب الرجاء
بارئ الكل من ظلام الفناء.

مجيء عيسى لأداء الشكر إلى الرئيسة والراهبات

بأي لسان أم بأية صورة
أجازي بشكري ما أتيتن من عطف؟

فأجبنه الأمر سهل

غننا

وعلى البيانو أعزف

فمشى وحين على أريكته جلس

شخصت عيون الجميع واحتبس النفس

من ذلك الزنجي وحشي البكا والقهقهات

بدأت ترن بسمعهن مفاجآت، ساخرات:

يا أيها القلب الشقي! علامَ أنكرت الحياة

وقبعت في ظلم العبادة تستعد إلى الممات

اِخفق إلى شرق الصباح إلى الربيع إلى الرجاء

اِخفق إلى هذي الطبيعة ذات أنواع البهاء

اِخفق إلى صور الجمال ولا تبالي بالشقاء،

العمر معدود الثواني والحياة إلى فناء

اِخفق وثب، غرد وطر في العيش في مغنى الصفاء.

* * *

هبت ترسم فوق أوجههن أخيلة من الماضي السحيق.

صورٌ بذعر تنفض الأكفان من لحدٍ عميق.

لما الرئيسة ثابت لرشدها وتجلى

لذهنها ما يرجى هذا الغلام الخليع

وصورت ما سيجني هذا النشيد الفظيع

على قلوب العذارى...
الحب حال انتقاماً
والغيظ بالعطف أودى
عند الرئيسة حتّى
كادت تميز حقدا
وغيرة كاهتياج البر ــ
كان توقد وقدا
في روحها قد أثيرت
فليس تملك رشدا:
تقلصت شفتاها
وأبرقت مقلتاها
للانتقام الرهيب
قد أشرعت يمناها
ليثاً قبيل الوثوب
يخالها من يراها
"بولين" جَرَّت ببطءٍ
أنقاض مضنى هواها
والراهبات بذعرٍ
قد اقتفين خطاها
الرئيسة: شيطان اخرج سريعاً
اخرج ذميماً، رجيماً
شيطان، شيطان...

أحــلام الصباح

الغـــد

كل صباح، حينما أنثر الزهور المبللة بأدمع السحر على صدرك، وأوقظك بقبلة أطبعها على ثغرك، أشعر برعدة غم تسري في فؤادي الفرح ولا أقدر على انتزاع هذا السؤال من فكري:

أ أنا سعيد أم شقي...؟

لأنني أخشى الغد يا حبيبتي.

وكلما جلست بقربي ويدك في يدي، أرسل روحي لتسبر غور عينيك الزرقاوين وأنتظر مؤملاً كصياد يلقي شبكته في لجة البحر جاهلاً ما تعود به إليه عندها أشعر بسحابة غم تظلل فؤادي الفرح ولا أقدر على انتزاع هذا السؤال من فكري:

أ أنا سعيد أم شقي...؟

لأن الغد مجهول يا حبيبتي.

وكلما ضممتك إلى صدري، ساتراً وجهي بشعرك، مغمضاً جفني، ثملاً بنشوة الحب، سابحاً في حلم لذيذ أشعر برعشة خوف تتمشى في فؤادي الفرح ولا أقدر على انتزاع هذا السؤال من فكري:

أ أنا سعيد أم شقي...؟

لأن الغد جائر يا حبيبتي.

وكلما هدهدتني بذراعيك وغنيتني في المساء وأنا ألثم عنقك العطر، تدمع عيناي ويرتجف فؤادي الفرح ولا أقدر على انتزاع هذا السؤال من فكري:

أ أنا سعيد أم شقي...؟

لأن الغد لله يا حبيبتي.

قد أتى الليل

قد أتى الليل!

هلمي يا حبيبتي نُحلِّق في سماء الأحلام. قد ولى النهار بضحاياه وهدأت ضجة المادة القاسية، هلمي فإن الشعراء والعشاق كالطيور الليلية لا ترفرف إلا في الظلام. هلمي نسامر الكواكب الساهرة في كبد السماء، ألا تسمعين أذان النسيم من أعالي الأغصان ينادي العباد الصالحين إلى الغاب؟

هيا نطهر أذراننا في العين المتفجرة من سفح الجبل، ونسرع للصلاة فقد هدأت ضجة المادة القاسية.

أنا أعلم أنك تحبين اللباس الفتان والجواهر المتلألئة فدعي القمر ينسج لك من خيوطه الرقيقة ما تشائين من غلالات سحرية ودعيني أصوغ لك من أزهار الرياض البريئة ما يروقك من قلائد وتيجان فهي أرفق بك من لآلئ المادة القاسية.

وإذا ما لسعك البرد أسرعي إلي فإني أُبوِّئك من صدري مكاناً وثيراً وأدفئك بأنفاس حبي الحارة، وإذا ما أتي اليوم المحتوم فلنا أسوة بالفراش والطيور والأزهار التي تنكس رأسها وتغمض عيونها غير آسفة على ما فات.

وكـان فجـر

وجثوت بقرب الزنبقة البيضاء، لأقتطف من زهرها ما كاشف النجوم بسره كي أصبّح بها فتاتي.

مددت يدي المتكاسلة إشفاقاً وما أن رأيت الطل المنتظمة دموعه عليها كعقد لؤلؤ حتى أمسكت يدي.

وقفت وبعد سكون طويل أدنيت فمي واختلست هذه الدموع ورحت أعدو كسارق. اعتذرت لفتاتي وقلت خجلاً:

إن الزنبقة البيضاء لم تبح بسرها للنجوم هذه الليلة.

ما هي الحياة

سألتني ونفسها كئيبة ما هي الحياة؟

أطرقت... هل الزهرة الجميلة العطرة عروس الصبح ومائتة المساء، تدري ما الحياة؟

هل الفراشة الخلابة الألوان، رمز تضحية الحب، هل البلبل الغرد، رسول الربيع، هل ابتسامة الحب عند اللقاء، هل دمعة الأسى، هل... هل الحياة نفسها تفقه سر الحياة...؟

نظرت إلي نظرة حنو واستخفاف... فسكت.

وكـــان مساء

ومشينا صامتين حتى الصخرة التي اتخذناها هيكلاً للحب والتي اندفعت بصدرها البارز إلى البحر.

جلسنا وكل دعم ذقنه بكلتي يديه وأطلق روحه لتسرح في الأفق البعيد.

لم ندرِ كم مَرَّ من الزمن.

قمنا وما تلاقت أنظارنا حتى تحدرت منها دمعة.

فاجأتها

فاجأتها وهي تغسل يدي وقدمي شحاذة صغيرة التقطتها من الطريق.

فأعنتها بسكب الماء.

رأيت أن وثبة صغيرة ترفع المرأة إلى مصاف الآلهة.

اضحكي

يا حبيبتي!

اضحكي كالطبيعة في الربيع، والزهور في الصباح والبروق في الغيوم، والنجوم في الليالي، والنسيم بين الأغصان.

اضحكي كأن قلبك الغض لا يفقه معنى الألم.

اضحكي ولا تنسي أن تذرفي في الأحايين دمعة فالضحك ألحان الحياة والدموع إلهاماتها.

* * *

حبي يا حبيبتي

حبي حتى يصهرك الحب ويطهر قلبك من أرجاس المادة.

حبي وآمني، فالحب والإيمان جناحاك اللذان ترفرفين بهما في ملكوت الخلود.

مالي أرى

مالي أرى في عينيك المحمرتين، وفي وجهك الشاحب، وفي شفتيك الذابلتين فتوراً وملالاً، حتى إني أكاد ألمس فيها بقايا الخيالات والرؤى المزعجة التي أقضت مضجعك حتى الصباح.

ثقي أن سُنَّةَ التحول لا بد من مفعولها في روحك الفتية، فاسلكي منهاج الطبيعة الحكيمة، فما أنت إلا زهرة من زهورها.

لم طلب المستحيل؟.

إن فصل الربيع لا بد أن تتخلله عواصف هوجاء. كوني كالبنفسجة المتواضعة التي تهزؤ بالعواصف والأنواء.

* * *

لا تحاولي معرفة ضميري بأسئلتك الكثيرة.

ألا تعلمين أن البسيط الواضح يتعقد بالتفسير...؟

متفرقـــات

عبد المحسن السعدون

الأم في سبيل الولد، الجندي في سبيل الوطن، العالم في سبيل العلم، الفيلسوف في سبيل الإنسانية، وأنت في سبيل المبدأ، حبذا التضحية.

أنت عظيم! لم ترتعد فرائصك أمام شبح الموت المخيف،

أنت أبيّ! فضلت الموت على العبودية

أنت مخلص! قد قدمت البرهان.

إيه عبد المحسن! هل يلقي الربان نفسه إلى البحر إذا اكفهر الأفق وعصفت الرياح وجن جنون الموج...!

هل ينحر القائد نفسه إذا اشتعلت السماء والأرض بالقنابل وتطايرت الأشلاء وطغى إله الموت....؟

الأمل، الأمل، الأمل.

ها أنا أشيعك بدمعة صادقة وكم أود لو أنثر الزهور على قبرك وأجثو صارخاً:

الأمل، السعي، الإيمان

يا أيها الشرق المنكوب!

ميسلون*

ميسلون... ميسلون:
أمل ضاع، وجيش ظافر
فتيةٌ من فرنسا، تركوا الأهل
عليهم فتياتٌ قد لبسن الأسودا
قطعوا البحر وفي أعماقهم لوعة
والبعض عاف الولدا
في سبيل المجد... لا
في سبيل الحق... لا
رأسماليين يزجون البلا لبنى أوطانهم
ميسلون... ميسلون:
بضعة من قبور سيجت
فخر فرنسا.
تقية للشام قبر ماثل مفردا
في سبيل الشرف المعبود،
في سبيل الوطن المغصوب،
قام في وجه العدى.

---

* آثرنا أن نترك النص كما جاء في الأصل من دون تحرير. – المحرر.

ضجر الإله

دب الضجر في قلب الإله العظيم، فتلهى بخلق الملائكة أجساماً نورانية، لا تأكل ولا تشرب ولا تتكاثر.

واستوى على العرش فسجدت الملائكة مسبحة بحمده مقدسة عظيم شأنه.

مرت الدهور وأعقبتها دهور فمل الإله العظيم هذه الملخوقات الشبيهة بأشخاص الخيالاتي (قره كوز) الضاربة في حياتها المديدة على وتيرة واحدة، وصارت تزعجه أجنحتها المكونة من نثار أضواء قزحية، وكره تسبيحاتها الفاترة، المعينة فتلهى بخلق الأجرام السماوية وأنار شموسها وأشار لها بيده العظيمة دوري فدارت لا تعد ولا تحصى بضجيج واصطخاب وما كان ضجيجها واصطخابها إلا تراتيل الشكر والامتنان لباريء الأكوان.

استوى الإله على العرش وحوله الملائكة صفاً، صفاً وبدأ يتأمل خلقه الجديد معجباً بحسن نظامه واتساع أرجائه.

مرت الدهور وأعقبتها دهور... فسئم هذه الأجرام المشتعلة وضجر من حركتها المستمرة المنظمة فتلهى بخلق النبات، فالحيوان واصطفى منها آدم وحواء ووضعهما في الجنة ذات النعيم المقيم، فلم يدم سروره طويلاً لأنهما كانا كالملائكة ببلادتهما وفتورهما فأمر الحية فأغرت حواء وكان ما كان.

تكاثر النسل وشيد لمجده في كل مكان معبداً، إلا أن هذه العبادات لم تكن إلا رهبة ورغبة.

فأشاح بوجهه عنها زمناً، ثم عاد فجمع الشهوة الملتهبة والإحساس الدقيق الوثاب والطموح والإباء وحب كل ما هو جميل ونفخها في رحم أنثى من بني آدم فكان حملها

عجيباً ونتاجها شاذاً غريباً ركض هذا المخلوق وهو صغير وراء الفراش في الحقول بين الأزهار والنبات الغض وأصغى لترنمات الطير وفهم لغتها وهو غلام وسعى عمره سعياً حثيثاً وراء الجمال وبيده قيثارته الخالدة يمجد الإله العظيم في كل مخلوقات كونه العظيم.

استوى الإله على العرش والملائكة من حوله ونظر إلى هذا المخلوق العجيب نظرة حب وإعجاب ولأول مرة أبرق ثغره الرهيب القاتم بابتسامة طويلة.

أتدرون من هو هذا المخلوق العجيب...؟ هو الشاعر.

الركب

ركب: طليعته الشهوة، وقلبه الإيمان وجناحاه الخيال ومؤخره العقل سار
في الظلام البهيم يخترق
كثبان الرمل في صحراء العمر القاحلة.
سار لا يلوي على شيء، عقبات وسهول ووديان وقمم يجتازها
وهو يغني أنشودة الحب
الخالد الظمأ، ري والجوع، شبع والحر، رطوبة سار ولما يزل
يترك من خيرته ضحايا
تقضي في منعطفات السبل الوعرة، تقضي وعلى ثغرها ابتسامة
الأمل.
هنود قانتون يحرقون في سبيل الخلود
ركب: سار من أعماق النفس يحدوه الحب، سار ليرتع في جنات حسنك اللانهائي.
قتلى وأشلاء على طول الطريق البعيد،
لا تذمر ولا عصيان، لأن عينيك "الهدف الأسمى"

تلوحان له كما تلوح نجمة القطب للخابط في ظلام الليل.
ركب سار، لا تذمر ولا عصيان ولما يزل يترك من خيرته ضحايا
في منعطفات الطرق
الوعرة والهواة البعيدة القرار.

صلاتي

لا رغبة ولا رهبة،
في وضح الفجر، في الضحى، في الأصيل، في الإمساء، في
ظلام الليل،
أصلي بقلبي الفتي، الساذج، بروحي الغضة الطاهرة.
أصلي بخشوع وقناعة ورضا.
بالإلهام أركع وبالإلهام أنتصب.
أحرق الشعر بخوراً والحياة قرباناً
تقبل اللهم آمين.

الحساب

موسى، عيسى، محمد
لا أعرف الآخرين
في طفولتي، في يفوعي قيدوا ضحكي وألجموا مرحي.
موسى، عيسى، محمد
لا أعرف الآخرين

في صباي وشبابي أقضوا مضجعي

موسى، عيسى، محمد

تقلصوا قسراً من ذهني.

حبذا الحرية

أنبياء وأرباب لا تحصى

دأبي حرق البخور وتقديم القرابين

حبذا الحياة

جدال مستمر

جدال مستمر وعند المساء الحساب

في سجل الكون

العمر = صفر

الإيمان = صفر

الأمل = صفر

المجموع صفر

* * *

اللذة بقدر ما تستطيع

النتيجة = النسيان

من مذكرات تلميذ

لن أفعل، لن أفعل.

ها هو الليل المخيف قد أتى وبدأت ترقص في رأسي تلك الأخيلة الشيطانية المغرية.

ما لسلسلة فقاري قد صارت كقوس مشدود، ولهذا التنميل والوخز والقرص الذي يؤلم أوصالي...؟

نظري آهِ نظري يخترق حجب الظلام ليمتزج في تلك الأرداف والعجائز المرتجفة والنهود البارزة المدلهة.

عني أيتها الطيوف الجهنمية!

عني فإنني سأمزق غداً وجه الحياء.

لا... لا... إلي، إلي....

اغمريني بقبلاتك، حطمي ظهري المشدود، اسحقيه بجذبك،

اذهبي بروحي، امزجيني بك امزجيني... أوه...

دمعة محرقة في موقي،

خذلان منهك في نفسي

لن أفعل آهِ لن أفعل

لأنني سأمزق غداً وجه الحياء

ولكن هيهات...

استيقاظ «ضهور الشوير»

حينما ينزلق الفجر من أعالي صنين، متحدراً إلى الربى المجللة بالصنوبر تستيقظ "ضهور الشوير"، وعلى ثغرها ابتسامة متثائبة فيها بقايا الرؤى والأحلام كفتاة حسناء لما يتسرب لقلبها الحب، ما أجمل جبال الضباب المغطاة قممها بثلوج النور!

والزاحفة كجيوش جرارة، متراصة من البحر والمرسلة طلائعها ذات الأذرع الجبارة، المتسلقة بانتظام ووقار ذي الآكام، إلا أنها ليست جيوش شرٍّ وتدمير، بل هي إسفنجة عظيمة ذات أهداب واستطالات تحمل في جوانحها ماء البحر، المتبخر، العذب لتمسح وجه لبنان المستيقظ من رقاده وتزيل عنه غبار النوم الدقيق المنتثر على هضابه ووديانه، وما هي إلا هنيهة وإذا به يشرق مبتسماً، نشيطاً، نظيفاً يشعر الناظر إليه أن النظافة تتسرب إلى أعماقه محسوسة ملموسة ويشتم منه أريجاً كعرف الحب الناشئ المنتشر من أديم غادة حسناء، مستحمة، عطرة.

أي مخلوق أنت أيها الصنوبر!

ما أقوى أملك وأثبت عقيدتك!

إن في اخضرارك الأبدي رمزاً هازئاً بالخريف والشتاء. من جمل جذوعك بتلك القشور الصلبة، الدائرية الملتصقة بأحد جوانبها كما تجمل أبدان التماثيل؟

هل الجان والأرواح غرستك مظَلَّات تتفيء أفياءها كما ينصب المستحمون مظلاتهم في السواحل الآهلة؟

إن الجالس تحت ظلالك ليلاً والناظر إلى شعل الزينات الموقدة على الهضاب لأعراسك الليلية يشعر بحفيف تلك الأرواح المسالمة، الأليفة ويسمع همسها الخفي ويكاد يفهم لغة نجوى غرامها.

إن ترابك وحصاك المخضب بالحناء. جميل كأيدي الحسان المخضبة، النظيفة، المغرية بالتقبيل والشم.

أي لبنان!

إن الناظر من بعيد إلى بيوتك ذات القرميد الوردي المنثورة على التلال يخالها علب كبريت أو بيوت ألاعيب الأطفال ويعتقد أنه بإمكانه جمعها ووضعها في علبة اللعب كما يفعل الصغار بعد الانتهاء من هندستهم المسلية.

أجل أنت في هدوك وسكينتك، في بعدك عن ضوضاء العالم وضجيج المعامل، في استسلامك للأقدار، في خضوعك وخنوعك، في سذاجتك وصفائك لست من عالمنا الأرضي، وما أنا فيك الآن إلا طفل صغير، مرح، طروب، مجرد عن شدائد الحياة، منزه عن الطموح والحقد والبغضاء، بلا ثقل ولا جسم مادي، أستطيع الوثب من قمة إلى قمة ومن ربوة إلى أخرى ولكن هيهات...

إن هي إلا رؤى وأحلام

فإلى العمل، إلى الجدال، إلى حلب.

إلى السيدة (ق.أ)

يكفي لإشعال وجدي
منك ابتسامة عطف
ما السر حين تمريـ
ـن بي أحس بضعفي؟
طرفي يعلق قسراً
عني بجاذب وجهك
يجول بين التراقي
وبين فاحم شعرك

هلا يلامس طرفي

أوتار حسك هلا...؟

* * *

لم أمس منية روحي!

حولت لحظك نحوي؟

حولت لحظاً عليماً

بما يجول بسري

أرفقته بغناج

لمست فيه رجائي

فقمت أبني عليه

سعادتي وهنائي

لا تعجبي ليقيني

بخلَّب الظاهرات

أنا كطفل طروب

يغر باللامعات

ماذا علي إذا ما

نعمت في تُرَّهاتي...؟

« يافاوي » يا برتقال!

وكان مساء، ولكنك في ظلمة دامسة.

وكان المطر يتجارى قطرة تحت سوط الريح الشرقية القارصة ويصطدم بالأبنية والشرفات والأرض ووجوه المارة باصطخاب شديد ويتدافع ويتدفق على الإسفلت كشلال.

وكان إذّاك بائع التجأ إلى شرفة من بيوت الخندق، أمامه "فرش" مَلآْن من البرتقال المبلل الملوث.

بائع تكمش وتقلص بقدر ما يستطيع، يداه في جيبي معطفه البالي ورأسه في منتصف صدره المنخفض وظهره كقوس مشدود، هيولى ذات حدبتين،

يمرر يده الفينة بعد الفينة على أنفه المحمر، المزرق كلما نادى

ـــ يافاوي يا برتقال ـــ

ويسرع بإخفائها.

مررت به، وراح خيالي إلى كوخ في محلة من محلات حلب النائية.

كوخ أكل المطر طينه وكشر لبنه المشوه، المجزوم كتمثال عظمي نخر.

سقف يكف ووعاءان يجمعان قطرات الوكف الموسيقية بلحنها المزدوج.

أطفال جياع، عراة بين العاشرة والسرير

ضوضاء، عراك، بكاء، دعاوي وشكايات.

الحاكم:

أم هزيلة، شاحبة في ربيع العمر،

انخرق ثوبها عن ثدي متدلٍ إلى السرة كقربة،

تتهر وتسكت وتلاطف وترضع،

صابرة بل قل إنك تلمح في حاجبيها المزويين ابتسامة القناعة والرضا والهناء.

مررت، وهو يعقبني بنظراته ويصيح بملء شدقيه ــ يافاوي يا برتقال ــ .

البلدة المسحورة

تحليل الكتاب

التطور من مظاهر الحياة المتدفقة ويظهر أن روحية الدكتور علي الناصر في تطور. فقد قرأت له "الظمأ" واستقرأته "الأغوار" (وهو قيد الطبع) والآن تصفحت بلدته المسحورة فألفيته يعلو تدريجياً من العاطفة "الصرف" إلى الفكرة الفلسفية: ففي "الظمأ" و"الأغوار" عواطف رقيقة، معان منسجمة، أوزان طلية ملابقة للعواطف والمعاني، ومن حين إلى آخر فقط تحليق في سماء الحكمة. أما هنا فمع العواطف أجد فكرة قد اتسعت وتناولت جميع جهات الحياة وعلت مع الخيال فوق الكون بأسره فحللته وأعملت فيه النقد ـ نقداً لطيفاً خفياً ـ ونصبت فوقه مثلاً عليا (ولا عجب فطبع علي علي... لا يرويه علو).

أعدت قراءة "البلدة المسحورة" فرأيت أنها حلم شاعر وحلم مفكر "انتهت بعد نصف الليل" (انظر آخر الكتاب صفحة ٥٦): فللشاعر ذلك الخيال المبدع المقتحم الذي لا يحد طموحه إلا مجموع عواطف بقيت على رقتها وروحانيتها، منها تلك "القبلة الطويلة العلوية" (صفحة ٣٥)، وهذا الإقرار الذي يقرأ في الصفحة ١٩: "إن نظرك حينما يرف علي وصوتك حينما يقع في أذني، أفقد ذاتي في غشية من فتون أنى للألفاظ أن تعبر عنها.

إن روحي قد سمت إلى الملكوت الأعلى بعد تعرفها إليك وفي هذه الفترة القصيرة قد تنزهت عن الشهوات الحيوانية والأهواء الوضيعة فأي سر أو طلسم تحملينه حتى صفيتني من الأرجاس بلمحة عين" فالدكتور يمد من لطف روحه على كل شيء شبكة لطف. وللمفكر ذلك البرنامج الوسيع الأرجاء الموجود في الصفحة

العاشرة حيث يستوعب المؤلف الميدان العقلي والميدان الأربي والميدان الفني فيجعل الآراء السامية تتسابق فيه إلى ما شاءت همته العليا الفسيحة ــ وهم المفكر الإصلاح المعجل الشامل ــ.

وللشاعر، من حيث الأسلوب، ذلك التأنيس الذي ينفخه الدكتور في الجماد فيجعله يختلج بنزعاتنا وعواطفنا البشرية، ولولا مخافة الإملال لذكرت شيئاً كثيراً من ذلك. وللمفكر، من حيث الأسلوب أيضاً، ذلك التكامل الفكري الذي ينفرد به من همهم إفهام البشر وإفادتهم فالدكتور يبدي رأياً ثم يتعمق فيه رويداً رويداً حتى ينهيه إلى عقل المخاطب وقلبه.

ولكن يلوح لي، كما قلت، إن حظ الفكرة في البلدة المسحورة أوفر من حظ الشعرية فيها ولا أخفي على القارئ أن هذا من طبيعة التقدم في السن وفي إعمال الفكر، فكثيرون هم الشعراء في الشرق والغرب الذين تحولوا مع العمر إلى مفكرين بعد أن كانوا محض شعراء أمثال ذلك أبو العتاهية العربي وغوته الألماني وهوغو الفرنسي وليسامحني الدكتور لهذا القول، فما معنى كلامي إنه هرج في مصاف العجز (سلامة شبابه) بل إنه فكرته قد استفحلت قوتها بعد أن كانت القوة في عاطفته قبلاً. وأقر أني شخصياً أستحب له هذا التطور الفكري فهمه همنا ومرماه مرمانا في رفع الإنسانية إلى مستوى أعلى. فالدكتور قد أعمل نقده في أجل الأمور ــ لا لمحض النقد بل لتوسيع عقلية قارئيه وفتح آفاق جديدة أمامهم ــ : نقد الأطباع البشرية فتهكم على معانيها ورفع بمحاسنها، ونقد حالة المجتمع الإنساني الهمجي الثورات فأظهر أمله بتقارب القلوب عندما تزداد المواصلات المادية والمعنوية تقارباً ــ والإنسان عدو ما جهل ــ ، ولمن بعض المعتقدات السخيفة التي لا ترتكز إلى شيء من الواقع، وعند مروره بالقمر رماه بالبلاهة (لا شك لأنه يذكر ببعض الناس)، ودمر صرح الفن الملفق المستعار المتماثل المنبوش من قبور الغير، واستعرض حالة أمتنا العربي ــ وكم من ألم مكنون في هذا الاستعراض ــ من الوجهات الثلاث: السياسية والأدبية والفنية، فبين مواضع الضعف

والنقص فيها، بغية أن يعمل على تلافي ذلك الضعف. و... و... أترك للقارئ لذة استكشاف الباقي.

وقد غيب الدكتور كل ذلك في تلابيب عواطفه وخيالاته الهائلة اللطيفة فأبهج الفؤاد والحواس والعقل معاً. وأضحكنا من حين إلى آخر مثلاً عندما خاطب الجنية بهذا الكلام القريب إلى القلب لأنه مأخوذ عن حياتنا اليومية: "لي الشرف أن أقدم لفنوسيتك وسام الاستحقاق. لا أقول الاستحقاق السوري" وعندما قال لنا عن نفسه: "ورفعت عقيرتي بصوتي الذي يشهي الصمم".

وإذا كنت آخذ في شيء على الدكتور فهو أنه لم يطل الكتاب على قدر مشتهانا.

حلب غرة أيلول سنة ١٩٣٥

حميد الأنطاكي

د. ف.

البلدة المسحورة

جلست على ضفة العاصي موهناً بقرب ناعورة من النواعير وكان رذاذها يتساقط على وجهي كحبات نور ندية وصوتها بتواقيعه المختلفة اللحن يشق سكون الليل الذي غمر المدينة وأرقدها في حجره الدافئ، ويملأ نفسي خشوعاً صوفياً ممزوجاً بشجى لذيذ.

امتزجت بالليل وانسرحت من قيود المادة فانطلقت انطلاق الأرواح في الفضاء.

استغرقت طويلاً وما نبهني إلا اقتراب شخص مني وسيم الطلعة بادي الخجل حياني فرددت التحية.

– المعذرة لقطعي عليك تأملاتك إنني أراقبك من مدة وقد استهواني حالك وعجبت لانفرادك في مثل هذا الوقت فنشأت في نفسي حاجة ملحاحة للتقرب منك، والتعرف إليك. إنني أستحي من فضولي هذا؛ وشفع كلامه بابتسامة لطيفة.

– مرحباً بك، فلو لم تربطك بي قرابة روحية لما غشيت هذا المكان الذي يغمره السكون والشعر. إن ذا الشعور يرى نفسه بحاجة للتأمل والتفكير منفرداً عن عبادة المادة المنغمسين في حمأة الشهوات والدنايا الباطلة فبالتأمل المنزه عن هذه السفاسف يسمو المرء إلى ما هو أعلى وأرفع، ويقترب من السر الأعظم.

– إنني أغشى هذا المكان كثيرا؛ وللمرة الأولى أرى فيه أحداً غيري فيظهر أنك غريب الديار.

– نعم ولا. نعم، لأني غريب عن هذه البلدة بكل شيء. ولا، لأنها مسقط رأسي وقد أتيت للاستلهام.

- إذاً أنت شاعر؟

- هكذا يقال.

- وأنا مثلك وإنني أشكر الصدف التي جمعتنا على غير ميعاد، ومد يده مصافحاً ثم جلس بقربي واستطرد الحديث بقوله: إن جمال هذه البلدة يتجلى كله في أوقاتها المتأخرة من الليل، فكأن يد الفجر تطمسه وتعفيه فلا يبقى منه في النهار إلا تلك البيوت المتهدمة التي ترف أمامنا الآن كرؤى متجسمة. وهذا الخلق المعبس الذي أنهكه الفقر والظلم.

- إنني شاهدت تغييراً محسوساً في هذه المرة، فقد لاح لي أن بين تلك الحواجب المزواة بريق نور ضئيل ولكنه صافي النور حره.

- أجل إن الحوادث الأخيرة تلمح إلى ما تقول؛ ولكني بخلافك لا أهتم كثيراً بالظواهر.

- لم أرد مماحكته.

- إن هذه البلدة بنهرها مسحورة وقد سحرها الجن.

فلم أستطع كتمان ابتسامة استخفاف.

- يظهر لي أنك من المنكرين.

- يا أخي إن هي إلاّ خرافات وأوهام، وهل تريد مني وأنا ابن القرن العشرين أن أعتقد بمثل هذه الأباطيل؟

- ابن القرن العشرين. ابن النور والحضارة والمعرفة؛ وقهقه ضاحكاً ابن العدل والمساواة والرحمة!!؟

- مهما يكن الحال فالحياة صائرة إلى الأحسن فالأحسن.

- يظهر أنك من المتفائلين.

- ليس بالإمكان أبدع مما كان.

سكت غير مقتنع.

– أنت تنكر الجن وإذا أظهرتهم لك ألا تخاف؟

– أنا؟ إنك تجهل حقيقة أمري فكم توسلت إليهم أن يظهروا لي وكم سعيت أن أراهم ولو بالوهم.

– لماذا كنت تريد أن تراهم؟

– لأن نفسي تواقة لكل جديد وغريب ولأنها تمل كل ما تعرفه فيا ليت جنيا كان معنا الآن نسمر معه.

– وإذا ظهر هذا الجني هل تكتم أمره عن الناس؟

– لا لزوم للكتمان فإن الناس لا تصدق.

شاع بصري في الأضواء المنعكسة على صفحة النهر وفي ظلال الأشجار المرتعشة في أعماقه ولما حولت بصري إلى محدثي رأيت عنقه يستطيل رويداً رويداً حتى بلغ قمة الناعورة ورأيته ينهل من مائها الفضي.

شعرت برعدة خوف.

– عسى أن لا أكون أرعبتك؟

– أجبت وأنا أكتم ذعري؛ إنني جد ممتن الآن، وهل لك أن تحدثني عنكم؟

– يا أخي إن الديكة قد بدأت ترتل آي الإصباح وحان لي الاختفاء وأنت بحاجة إلى الراحة أيضاً ولكنني أعدك بأنني سأريك أموراً طالما حلمت بها، وقد وافاك حظ فإن لنا عيداً ثلاثة أيام أوله ليلة الغد، وإنني بعد أن قرأت في سريرتك سأستصحبك في هذه الليالي الثلاث، ثم اختفى.

لم أنتبه من ذهولي إلا على صوت ضفدعة أخرجت رأسها من الماء تحت قدمي وصاحت واق. واق. أدركت أنها تقول ليلتك سعيدة.

الموعد هنا.

* * *

كانت أنفاس نهر العاصي منعقدة على صفحته كرداء مهلهل شفاف، وأشجار الصفصاف على ضفتيه. مخمورة، مهمومة والهواء سجحاً، ناعساً.

اقتعدت حجراً وبدأت أراقب صديقي بقلق وتشوق وكانت ناعورة المأمورية قبالتي على الضفة الثانية، والجسرية على يميني، وكلتاهما تتجاوبان بأصداء وأنات مرتجة، ممزقة وقد اشتد سواد الطحلب عليهما كأنهما طليتا بالقار. لم أشعر إلا ويد على كتفي التفت وإذ به خلفي.

- مرحباً . مرحباً.
- وبك أيها الصديق هيا بنا فالعيد سيباشر في البشريات وأريد أن لا يفوتك منه شيء. وكأنه شعر بما جال في تلك اللحظة بفكري فقال وها أنا سأحملك على جناحي وبلمحة بصر تكون هناك. ثم انتفض طيراً جسيما، اعتليت متنه الوثير وتشبثت بريش عنقه الناعم وقلت في سري أين هذه الطيارة الجنية التي لا تحتاج إلى مطار ولا محرك، من طياراتنا ذات المحرك الصاخب الذي يصم الآذان والتي مهما بلغ كمالها لا يأتمن ممتطيها الأخطار؟

وما هي إلا ارتفاعة وهبطة وإذا بنا بجانب مرقد الشيخ بشر ذلك الولي الذي صرف عمره بالنسك والعبادة وقد كان مقامه في أجمل بقعة من البلد حيث يدخل النهر من الشرق كفاتح.

قال لي صديقي: هذا مقام بشر الحافي.

- هل تعلم سبب هذه التسمية؟
- أجل إن هذا الآدمي كان كسائر المتعبدين والنساك ذا آمال جسام صعبة المنال في حياتكم الدنيا، ولتطمين ما يحلم به من اللذات التي كانت تملك عليه جميع مشاعره وحواسه اختار الطريق الأهون أي طريق الحياة الأخرى تلك الحياة الأبدية بما توعده للمؤمنين المخلصين من لذات

لاتحصى ولكن الشيطان [وضع يده اليمنى على صدره وأحنى رأسه علامة التقديس والاحترام] أبى إلا أن يتمادى بانتقامه من نسل عدوه آدم فأرسل له جنية حسناء تتجلى عليه بصورة فتانة متحلية بصنوف الإغراء ينبثق من كل ذرة من ذرات جسمها شهوات ملحاحة تذيب الإرادات كما تذيب النار الحديد. وكانت تتراءى له في صلاته وابتهالاته وتضرعه ونومه ويقظته وكلما ابتهل إلى الله أن ينقذه منها وحاول الانفلات من ربقة أسرها تزيد فلاً من عزمه إلى أن كان يوم ربيع وفيه ما فيه من نشاط الحياة أتته الجنية بهيأة أغرى وأدهى بأضعاف الأضعاف من ذي قبل فلما رآها أضاع رشده وهزته رعدة جنونية. هجم عليها يريد تمزيقها فتراكضت أمامه وكانت تتظاهر كأنها بمتناول يده وإذا بالشيخ يركض حافياً وعيناه الملتهبتان معلقتان بنقطة واحدة، هاربة وذراعاه ممدودتان إلى الأمام ويداه متشنجتان يتمتم بألفاظ مبهمة.

صارت تتكرر عنده هذه النوبات العصبية وكانت تراه الناس حافيا حاسر الرأس مشدوهاً وكانوا يتباركون به ويغبطونه على ما أولاه الله من نعمة الولاية حتى قضى نحبه بحالة يرثى لها ومن ثم صار يلقب بالحافي.

- إنكم أعداء بني آدم وليس بالغريب عنكم الافتراء على أولياء الله الصالحين. فبدلاً من هذه الأباطيل ألا يجدر بك أن تريني عيدكم الموعود؟

- قد بوشر بالعيد من زمن ولكنك غير شاعر به فدونك هذا المنظار ضعه على عينيك وهذه الآلة على أذنيك فما وضعتهما إلا وشعرت كأنني نقلت إلى عالم آخر.

- إنني أحب قبل أن تشترك بالعيد أن أدلي لك بمعلومات لا بد منها: هذه الليلة مختصة بتقديس الطبيعة واعلم أن الإيمان لا بد منه فالخليقة كلها كانت في البداية تؤمن بإيمان واحد إلى أن اصطفى منها آدمكم وليته ما اصطفى.

- قاطعته بحدة قائلاً: فلو لم يخلق الله آدم ويعلمه الأسماء كلها ماذا كانت طبيعتك هذه تغني وتفيد؟
- تغني وتفيد...؟ أنه ما كان ليحدث ما حدث.
- إنك تتهجم على معتقداتي وما ورثته وكان الأجدر بك أن تجاملني إذا كنت لا ترى رأيي لا سيما وأنا بضيافتك.
- إذاً هيا بنا ولا تحرد. قلت لك أننا نقدس الطبيعة في هذه الليلة، وسترى جميع ما هب ودب ما عدا أبناء آدم كيف تسرح وتمرح في إخاء تام وصفاء لا يعكره طمع أو جشع أليست جميعها خلقت من رحم أم واحدة؟
- من رحم أم واحدة؟ ألا ترى أن الأخوة تقتتل وهم من رحم واحد وهل لسنة الله في خلقه تبديل....؟
- هذا موروث عندكم من قابيل أما نحن فقد ترفعنا عن هذه الدنايا أن حضن الطبيعة أمنا يتسع لكل من أبنائها.

تقدمنا وإذا بصنوف الفراش بألوانها الزاهية والطير بمختلف أشكالها وأصنافها والوحوش البرية والبحرية بأنواعها والهوام... الخ جميعها في فرح ومرح ومما أدهشني أن جميع هذه الأضداد والأعداء تتمازج وتتداعب فيما بينها حتى إنني رأيت أسداً ضخماً تدل هيأته على شراسة وبطش يلعب مع أراوي لعبة "القفزة" ورأيتها تقفز من فوقه واحدة واحدة وهي صاخبة وهو واقف لها مطيعاً مغتبطاً وقد ظهرت أنيابه الحادة عن افترار ثغره إلى أن أتى دوره فبدأ يقفز مثلها. ورأيت صقراً جباراً قد تعلق بعنقه ومخالبه وركب متنه جميع البلابل الغريدة تصفق بأجنحتها وتغني لاهية، هانئة ثم رأيت جمعاً من الدجاج تداعب ثعلباً وتمازحه وهو يقص عليها من نكاته المستظرفة.

- قلت لصديقي أنت وعدتني أن تريني الجن فهل فهمت مني أنني أريد رؤية [جنينة الحيوان].

- ابتسم وقال ما تراه هو من حيوان الجن ثم قلب منظاري فتغير المنظر وإذا بعماليق وأقزام على هيآت عجيبة وأشكال غريبة وصور لا تخطر على فكر كلها من أنوار سيالة بألوان لا تتفق وألواننا المعروفة ثم شاهدت أشجار الصفصاف والحور تنتفض حوريات ببشرات مختلفة اللون بشعور عجيبة منها على هيأة العناقيد وبعضها كعثاكيل النخل وبعضها كشعل ضيائية أو حزم نورانية وكانت هذه الحواري تأتي بصنوف من الرقص العجيب والألعاب التي لم ترَ عين إنسان مثلها.

وقد مُدَّت أسلاك مطاطة بين الأربع نواعير وبدأت تتمرجح بها وتقفز إلى النهر ومن النهر إليها ثم أتت جوقة الطيور الشادية وغيرها من ذوات الأصوات الرخيمة وبدأت ترتل أناشيد لو سمعها "بتهوفن" لزال وقره. ثم جيء بأنواع الفواكه من مختلف أقطار الأرض ومدت بصحان من أوراقها الغضة النضيرة، ولما لم أرَ أثراً للأطعمة الحيوانية همست بأذن صديقي: ليت أبا العلاء معنا لأنه كان يسر أكثر مني بوليمتكم هذه، فإن نفسي لا تطيب إلى أكل الأثمار والحشائش، وما بي من علة ولم يحمني الطبيب. فنظر إلي نظرة استخفاف وقال: ويلكم معاشر الإنس ما أوحشكم وما أشد جشعكم! أما كان آدمكم يعيش بالفاكهة والنبات في جنة الخلد، فما أسرع ما تناسيتم سيرتكم الأولى؟!

- قلت صحيح ولكنني تذكرت أبا العلاء، وكم نفسي تواقة لرؤيته ولكن أنّى لي هذا وهو في عالم الغيب منذ العصور؟

- كلنا باشتياق لهذا العظيم، ومجيؤه هنا من الأمور السهلة ثم أشار إلى عملاق عظيم وأسر له شيئاً، وبعد برهة وجيزة وإذا بشيخ وقور راكب على متن العملاق وإذا به يترجل ويهش لصديقي كأن بينهما سابق معرفة؛ ولشد عجبي لما رأيته بأربع عيون بغاية الجمال. قدمني إلى الشيخ، فهممت بتقبيل يده فامتنع.

- بعد برهة أردت أن أجلب-دقة الشيخ إلي فقلت له:
- مولاي! إنني أنا تلميذك وقد قرأت لزومياتك كثيراً كثيراً وكم كانت تعزيتي في أوقات عمري العصيبة، ولا غرو فهي صورة تامة لما يعج به التاريخ الإنساني من حياة مثقلة بالشرور والأوهام والفساد فكنت إذا ما خانني الصديق أرجع إليها فأرى فيها أن الصديق يخون؛ وإذا ما زلت قدمي وتدهورت في مهاوي الأهواء، أو وهن طموحي وتساقطت أحلامي الواحد تلو الآخر واصطدم كبريائي بما يحيطني من أنصاب الذل والهوان الشامخة بأنفها بالرغم عن تمرغها في حمأة الدنايا، أو حز في أعصابي سيف الجور والظلم كنت أرجع إليها فأرى كل هذا مسجلاً.

وقرأت رسالة الغفران فعلمتني أن أبتسم بسخر من كل ما هو كائن وقد ساقتني الصدف لأن أكون طبيباً وأنا شاكر لها صنيعها لأنني تعلمت به أن أكون مفيداً وأن أخلع عن عاتقي الضعيف كثيراً من أعباء الوهم الباطل، وتخلل بصيرتي نور ضئيل من شمس المعرفة التي لا تتناهى؛ ومع علمي بأنني ذرة تافهة في هيولى الكون (وهذا ما يؤلمني)، أراني راضياً عن نفسي وآيتي أنني لا آتي الشر بعلمي واختياري، وأسعى قدر استطاعتي للخير.

ولا أكتمك يا مولاي أنني لا آسف لصيرورتي شاعراً وإن كنت لم آت بشيء يذكر مع تعرضي لكثير من العنت والأذى لأنني به تعلمت حب الجمال أياً كان، حتى في الموت؛ ولولاه لكانت دائرتي التي أدور فيها في حياتي أشد ضيقاً وأقوى حلكة وكدورة. وها أنت ترى أنني مدين لك.

- يا ابن أخي، أنت غير مدين لأحد سوى غرائزك؛ فمهما حاول الإنسان الانفلات منها لا يلبث أن يرتد إليها صاغراً وأنت بإيهامك وإيحائك الذاتي قد سبحت في وهم أشد أسراً من الوهم الذي أردت الانفلات منه. جميل ذلك الوهم، والأجمل منه هذا الإيمان الذي بسببه تستطيع قطع المسافة التي بين مهدك ولحدك، ولكن الكون لا يعبأ بك ولا بوهمك.

- ماذا يهمني أعبئ الكون أم لم يعبأ؟ خلقت وها أنا حي وها أنا أسعى بما تتطلبه الحياة.
- يا ابن أخي، أنت لا تعلم ما أعلم. فسكت، وسار بنا الصديق إلى المائدة وكاد الخجل يصرعني لاندفاعي كالأحداث بهذه النظرة التافهة، لو لم تتداركني ابتسامة الفيلسوف اللطيفة. ونحن كذلك وإذا بديك عظيم يزدان بعرف وريش فاخرين يعلو متن شجرة ويزقو "أوئئو .. أئئو" فما سمعه الجميع إلا وخف إلى المائدة بهتاف وجلبة تشق عنان السماء.
- جلست حذاء رفيقي وأنا أقول بسري: إنني لست من آكلي الحشائش وإنني أبيع ألف وليمة كهذه بقدح خمر وفخذ دجاجة.
- قرأ رفيقي ما يجول في فكري فقال: قم وانهل نهلة من النهر. فأجبته: إنني بغنى عن ماء تختلط به القاذورات والأوخام.
- إنك عنيد يا صاحبي، امتثل الأمر.

قمت مكرهاً ورددت بين شفتي الماء متظاهراً بالشرب، وما أن ابتل به حلقي حتى فهمت خطأي؛ عندها نغبت نغبة كبيرة وأعقبتها بأخرى، ولما رجعت إلى مكاني صرت؛ أشعر كأني أسبح في عالم من أحلام، نظرت أمامي وإذا بجنية حسناء تجلس قبالتي وكلما كانت تنظر إلي كنت أشعر بجدة تسري في جسمي وانجذب لنظراتها بجاذب لا يقاوم.

- من هذه الجنية؟ إنها ليست بالغريبة عني. إني أكاد أعرفها. هذه الصورة. هاتان العينان. هذا الثغر. هذا الشعر. أجل إنني أعرفها أو كنت أتخيلها، ولكن ما الواسطة للتعرف بها، فكرت فوجدت أن أحسن طريقة هي الشعر فما عليّ إلى أن أنظم لها قصيدة تشبيب.

أخرجت من جيبي قلماً وقرطاساً وأطلقت لذاكرتي العنان، عفواً لخيالي العنان. وبدأت أستعرض شعراءنا الأقدمين. فمر بي امرؤ القيس وزملاؤه

أصحاب المعلقات؛ فقلت: وما زالوا قدوتنا حتى اليوم، فلأحذُ* حذوهم ولآخذْ بتشابيههم وما وصفوا به جمال المرأة ولأصفها بحسب تفاعيل الخليل: "إذا سهام عينيك عن قوس..."

قلت: يالله! وكيف أشبه بشيء لم أره إلا في الصور وفي دور العاديات؟

"جيدك جيد الغزال..."

إنني لا أحب هذا الحيوان وإنني أكره خنسه وعينيه السوداوين الجاحظتين، إذاً ما العمل؟ فلأستمد من تشابيه العصر الذهبي.

"من نرجس العين من ورد الخدود ومن....."

إن هذه التشابيه لا تروقها فلأعكس الآية ولأشبه الورد بخدها والغيم بأناملها.

ثم انتبهت، ويا خجلي حينما رأيت أناملها غير مخضبة.

أسقط في يدي.

وبعد تفكير طويل اهتديت إلى طريقة حل لطيفة ولمت نفسي لعدم انتباهي لها لأول وهلة وهي طريقة "بول واليري"؛ فما أن اتخذت جنيتي كمعضلة رياضية، هندسية، فلكية، حتى طاوعني الإلهام ونظمت قصيدة عصماء لا يفهمها إلا أنا والراسخون في العلم.

وبعد تصحيحها وتشذيبها وتنميقها مراراً تقدمت إلى الفتاة وقلت لها إنني نظمت فيك شعراً، وبدأت أنشدها؛ وبعد كل بيت كنت أتمعن في ملامحها كي أتبين مبلغ التأثير؛ حتى انتهيت منها ولم أنتبه لضحك الصديق وأبي العلاء مني.

الجنية – إنكم معشر الإنس سخيفون حتى في شعركم. أتظنون أنكم بهذه الألفاظ الغليظة الوقع الثقيلة على السمع تستطيعون الإفصاح عما تكنه الضمائر وما يوحيه الخيال؟

– المثل العامي يقول: "ارو عذرك ولا ترو بخلك"؛ وما زلت هكذا فأنا لا شك قرأت في أعماق نفسي ما أنا فيه من صبابة ووجد.

---

* – في الأصل: (فلأحذو). ولعل ذلك خطأ مطبعياً.

- لا شك. ولذا أصارحك بأنني لا أكره مصاحبتك. *شكرتها على هذه الصراحة غير المألوفة وجلست فرحاً مسروراً وأردت أن أشرك صديقي والفيلسوف بسروري فالتفت إليهما وإذا بهما غارقين* في بحث لم أفهم منه شيئاً، وبعد أن انتهى حديثهما التفت إلى الشيخ وقلت: هل لمولاي الأستاذ أن يخبرني خبر ما بعد الموت؟
- لا موت يا بني ولا حياة إن هو إلا انتقال وتحول.
- ولكنني جد مشتاق لمعرفة المصير.
- الأمور مرهونة بمواقيتها.
- هل مولاي الشيخ ظل متشائماً كما كان؟
- أنا. أنا في كل وقت ومكان.
- هل يفيد التشاؤم؟
- لا. فالتشاؤم واليأس هما دعامتا الموت الحقيقي.
- هل تساعد لي بنشر كلمتك هذه بين أبناء قومي؟
- أنت مختار. ثم ركب متن العملاق وسلم عليّ بإشارة من يده، وغاب عن بصري.

* * *

بقيت وحدي بين جموع الجن الصاخبة ولم تزل كلمة المعري ترن في أذني، ثم إنني لما عدت من تفكيري صرت أفتش بين الجمع على صديقي وفتاتي، ولما اهتديت إليهما رأيتهما يتجادلان بحدة بلسان لم أفقه منه كلمة واحدة، إلا أنني فهمت من أشارات طرفيهما أثناء الجدال أنني أنا المقصود.

- ثم رأيته يتلطفها محاولاً إقناعها وهي مصرة على عنادها ثم إنه تركها على ما هي عليه وتقدم نحوي قائلاً وهو يخفي ثورة نفسه: أ ذهب الأستاذ؟

---

* آثرنا ألا نعلّق على النص إلاّ فيما نظن أنه تحريف مطبعي. – المحرر.

- نعم. وبعد أن سكنت ثورة غضبه قلت له: لي عندك رجاء خاص وإنني ما عدت أثقل عليك بالتماساتي الباردة.
- ما هو؟
- أريد أن أرى الشيطان.
- هذا مطلب عسير ولكنني سأسعى جهدي لإنالتك مبتغاك. تركني وانصرف وبعد فترة قصيرة عاد إلي وهو ممتقع اللون.
- عسى خيراً.
- خير ولولا الدالة التي لي على حاجب مولانا لكنت بسببك من المغضوب عليهم.
- وهل مولاكم كموالينا، لا يجوز المثول أمامهم إلا بالواسطة والرشوة والالتماس؟
- لا؛ ولكنني لا أستطيع التصريح. هيا بنا، وإياك والإسراف بالقول في حضرته.
- هل يجب علي أن أستصحب الملكين المكلفين بعد حسناتي وسيئاتي، وهل مولاكم نزق ضيق الرحمة؛ وهل أمامي سراط أحد من السيف وارفع من الشعرة؟
- يالله! لكثرة تساؤلك وشدة عنادك، واجتذبني بعنف فما شعرت إلا وأنا في ظلمة دامسة ولم أتبين مما حولي سوى عين أشبه بفوهة بركان تبص أمامي. أردت التشبث بذيل رفيقي من الرعب فلم أقبض إلا على ظلام. صرت أرتعد فرقاً.
- لا بأس عليك أيها الفتى.
- وكم كان ندمي في تلك اللحظة كبيراً على هذا التفريط ولولا أن يمر خيال جنيتي في خلدي لكنت صعقت من الخشية.

تماسكت وقلت: إننا معشر الإنس نفرق لمجرد ذكر اسمك، فقد صوروك لنا بصور تقشعر من هولها الأبدان فأرجوك المعذرة.

- لا بأس قل ماذا تريد؟
- أريد أن أعلم: هل أبونا آدم طرد بسببك من الجنة وهل جميع ما يلقاه نسله من صنوف العذاب صادر كله عن انتقامك الذي لا يهدأ، وإذا كان كما قلت هل من العدل أن يحمل نسله تبعة الاختلاف والمشادة الذي حصل بينك وبين الله...؟

- إن الله ذلك المفن العظيم حينما صنع آدم وحواء من الطين والصلصال وأكمل خلقهما على أتم إبداع، دعانا معاشر الملائكة وكنت إذ ذاك رئيسهم والمقرب إليه بينهم، ليرينا ما ابتدعه من فن عظيم وساعد لنا ببيان رأينا بكل صراحة فانبرى زملائي للإطراء والتقدير تواً وبلا روية وما كنت أسمع إذ ذاك إلا كلمات الإعجاب حتى، أن جبريل ألقى خطبة ارتجالية بليغة عدد فيها محاسن هذا الابتكار العجيب وسحر الملائكة بفصاحته وعذوبة بيانه، وحين إلقائها كنت أشعر كأنه قد استعد لها من قبل؛ ولما انتهى من خطابه دوت السماء وارتجت بالتصفيق والهتاف.
- ظهرت علائم السرور والابتهاج على وجه الرب الاسمي إلا أنني أردت تدقيق هذا الخلق عن كثب فعاينتهما معاينة دقيقة تبينت منها أنهما يحملان أعضاء مضرة تسبب لهما كل شر وبلاء في الحياة ولما عرضت للرب انتقاداتي بهذا الصدد عد فعلتي هذه منافية "للدسبلين" السماوي؛ وللنيل مني، أمرني بالسجود إليهما؛ فأبيت واستكبرت، فاشتعلت بذلك بيننا تلك الحرب المشئومة التي كان من نتائجها ما أنتم وما نحن عليه.
- وكيف كان انكساركم؟
- هوجمت ومن تبعني بجيوش الملائكة الجرارة على حين غرة، وصب الله عليّ رؤوسنا صواعقه وشهبه وأحطنا من كل جانب وصوب.

قاتلنا قتال المستميت وكان الجبار منا يقبض على رهط من الملائكة ويضرب به رهطاً آخر فيتركهما كالهشيم وما زلنا نروح بهم فتكاً وضرباً وتمزيقاً وننقض عليهم انقضاض العواصف الهوجاء ونثور عليهم ثوران البراكين ونشق صفوفهم المتراصة كالزلازل الطاغية حتى دككناهم دكاً ورددناهم على أعقابهم، وكانت الشهب تترامى على جباهنا وتنزلق عنها مرتدة إلى الملائكة فتحصدهم حصدا وكاد النصر يتوج جباهنا الدامية لولا أن سلط الله علينا ظلماته الأبدية. فصرنا

نفتك بعضنا ببعض على غير ما هدى وما كنا ندري أننا نهبط إلى الدرك، إلى الحضيض، إلى قعر مقر.

- ثم شعت عينه العظيمة بلهيب الغيظ وأبرقت بالحقد فسترت عيني بكفي وصرخت مستغيثاً. ثم زفر زفرة تحرق وانتقام أعلم أنها اقتلعتني من مكاني.
- لما ثبت إلى رشدي وجدتني في حجر صديقي ورأيت جنيتي تمسح وجهي وتنشقني منعشاً؛ وسمعت صديقي يقول لها: إن الفضول سيقتل هذا الفتى.
- ابتسمت لجنيتي فرنت إلي بنظرة أنستني هول موقفي مع الشيطان وردت إلي الحياة.
- استصحبيه لبيته وقد تركت أمر العناية به إليك، وستأتين به ليلة الغد إلى القلعة.

* * *

- ما لنا وللنوم. إنني أريد أن نقضي هذه الليلة تحت هذه الصفصافة الباكية على ضفاف النهر.
- إنني أشفق عليك فلا شك أن هذه الصدمة قد أبقت عندك تضعضعاً.
- ما زلت بقربي فإنني أهزأ بالموت.
- لك ذلك. وبعد صمت طويل قلت:
- أي صديقتي أعترف لك بأنني جريت وراء الجمال جهدي، إلا أن ما كنت أشاهده وما كانت نفسي تصبو إليه كان بعد اختباره لا يملأ فراغ روحي السحيق؛ فحينما كان ذراعاي يطوقانه كنت أشعر أنهما بحاجة لضم شيء آخر وراءه وأن روحي باقية على ما هي عليه من الظمأ. وكم كنت بائساً معذباً، مضطرباً في حياتي.

أما الآن، أشعر وأنت قبالتي أن روحي بلغت ما تتمنى وأن طموحي الذي لايحد قد بلغ غايته.

الليلة الثانية

أتتني جنيتي بروح ذات صدوع؛ ومما أرعبني مشاهدتي في عينيها الذابلتين فتوراً وملالاً عميقين يشعان من خلال سحابة حزن قاتل.

سرنا إلى القلعة وإذا بالصديق يستقبلنا ببشر وترحيب قائلاً: عساك لم تصب بسوء؟

- لا، وإنني لآسف على ما ظهر من الضعف والخور.
- حسن. إن هذه الليلة تحيا لتقديس الفن ويستعرض المفنون نتاج قرائحهم على الجمهور؛ وسترى الشعراء والموسيقارين والنحاتين والرسامين وآلهات الجمال كيف يتبارون في هذه الليلة.
- ومن الحكم؟
- الجمهور كله.
- هذا عجيب. وكيف تستطيع السوقة أن تحكم في مثل هذه المباراة الرفيعة؟
- ضحك صديقي وقال: لا سوقة ولا خواص عندنا؛ فكل له ثقافة كافية تؤهله لبيان رأيه.
- استيضاح آخر: هل من مزية لما سيعرض ما دامت الحولة لكم، فباستطاعة أي كان أن يأتي بإبداع ما يتصور.
- إن الحولة لها حدود ولهذا لا يكسب المباراة إلا المبدع.
- إذاً فمباراتكم هذه ستكون جد شاقة، فإن الشعراء عندنا أكثر حظاً من شعرائكم، لأنه يكفي أحدهم أن يأخذ مثلاً قصيدة قديمة ويجاريها أو أن يأخذ

معنى من المعاني ويصوغه ببيت على وزن من الأوزان. ثم يرقعه من تحت ومن فوق حتى تستقيم له قصيدة عصماء، والموسيقارون يتمشون على هذا النحو؛ أما الرسامون والنحاتون فلا أثر لهم عندنا.

- وقد اعتادوا في الغرب أن يقيموا مباراة للجمال بين الحسان في كل عام، والفائزة تعطى عنوان ملكة الجمال، وإني شخصياً أعجب لاكتفائهم في هذه المباراة بتناسق الأعضاء وتناسبها وضربهم صفحاً عن الروحيات التي هي الجمال الحقيقي. ولا أنكر أن الحسان عندنا جميلات وهي أبدع ما خلق عندنا؛ إلا أنهن متشابهات، ولولا الجاذب الجنسي المتجدد لأصبحت الأرض قفراء من نسل آدم.
- إنني يا عزيزي أضحي بكل ما لنا من الحولة وما لدينا من نسوة، في سبيل حظوة عند إنسية.

هاجت رفيقتي وماجت وتطاير الشرر من حدقتيها واندفعت قائلة:
تضحينا كلنا في سبيل إنسية؟ وأشرعت ذراعها نحوه فخشيت أن يقع ما لا تحمد عقباه، فحجزتها وسكنت من غضبها بقولي: إن صديقي يمزح وقد أراد مداعبتك؛ ألا ترين وأنا أنسي، أضحي بكل الإنسيات في سبيل ابتسامة منك؟

- هدأ غيظها قليلاً ولكنها ظلت حاقدة على رفيقي؛ فغمزته بطرف عيني فانكب على أقدامها طالباً المعذرة ومؤكداً أنه كان يمزح.

فكرت في سري وقلت: يالله أن الحياة هي هي عند الجميع.

* * *

كانت القلعة تبسم بشتى الزينات، وقد فرشت أرضها بأنواع الزهور ذات الخمل الحريري وكلها غضة عطرة منورة بذاتها، وكلما وطأتها الأقدام تعود إلى ما كانت عليه، وكم كنت أشعر بلذة شهوانية حينما كانت تلامسها قدماي. أما الشرفتان والجزيرة وباب النهر، ومرقد أبي الفداء، والنواعير

الكبيرة والصغيرة كلها كانت بأبهى حللها والنهر ينساب بينها كسائل سحري، وجميع الأشجار تشع بنور ندي، يداعب العين ويسكرها بلذاذات خفية.

أما النجوم فكانت قريبة وقريبة جداً كأنها بمتناول اليد ولم أفهم سر اقترابها وكانت كحقل من نسرين مضيء، نقي مخضل بالأنداء، وكان النسيم يدغدغ الطبيعة بأنامله السحرية ويعطرها بأنفاسه المنعشة الزكية.

قلت لجنيتي وكان رأسها فوق كتفي ونحن وقوف على الحافة الشمالية من القلعة:

ألا تشعرين أن الحياة جميلة؛ أن هذا الحلم نحن فيه الذي الآن بهذا الاستغراق في الوجد، ليته مثل بنا على هيأة تمثال ذي روح، وانتصب هنا رمزاً عبقرياً يضيء للناس سبل الحياة الخالدة العلوية.

راعني صمت جنيتي؛ ولما حولت نظري إليها شاهدت دمعة تنحدر من مقلّتها.

- البكاء وفي مثل هذا الموقف؟

ضممتها لصدري وهددتها كما تفعل الأم الرؤوم. تملصت مني قائلة:

دعني. دعني أوه دعني! إن شقائي وسعادتي ولدا البارحة وترعرعا ونميا إلى أبعد مدى في ليلة واحدة.

- الشقاء والسعادة إن هما إلا وهم باطل، وما الدموع إلا ابتسامات الروح المبالغة.

- إنك لا تعلم سبب بكائي وحزني وما كنت لأريد أن تفهم السبب. إن قوانيننا الاجتماعية تحكم بالهلاك على كل جنية تصبو لأنسي؛ وإن إعدامي سيكون خاتمة العيد. ومع هذا فإني غير آسفة لأنني سأهلك هانئة، سعيدة لأن الحياة ولو لحظة في الحب السامي هي الخلود بذاته؛ ولكنني أبكيك. أبكي بؤسك بعدي وشقاءك. أبكي وحدتك وفراغ روحك بعدي.

أردت أن أجيبها وإذا بهتاف يشق عنان السماء، وإذا بصديقي يركض ومن خلفه جمع صاخب هاتف؛ وإذا بهم يحملوننا على الأكتاف ويجلسوننا على عرش مرتفع وإذا بصديقي يهمس بأذني: إن المفنين قد نجحوا في هذه المباراة بسببكما، والتي حازت لقب مليكة الجمال هي فتاتك.

- لم أفهم ما تقول.
- اسكت الآن وسأوضح لك فيما بعد. ولم أتمكن من الاستفسار أكثر من ذلك لأنهم أتونا بخمسة أكاليل مصنوعة من الزنابق والياسمين والبنفسج والشقيق، ووضعوها على المنصة أمامنا، وإذا بصوت يرتفع كعصف الرعد قائلاً:

هرواش بن هردوش الفائز بمباراة الشعر.

وإذا بجني ضئيل الجسم جبار الجناحين يتقدم منا؛ ففهمت بالبداهة أن أحد هذه الأكاليل له. وضعناه على رأسه وقبلناه أنا من الشمال وجنيتي من اليمين فعلا الهتاف والتصفيق.

- شن بن شو الفائز بمباراة الرسم.

وإذا بآخر ذي أنامل تشع منها ألوان وأضواء وسحر.

كان شأننا وشأنهم معه كزميله.

سي بن فو، الفائز بمباراة الموسيقى وقد نطق اسمه بنغم خاص. وإذا بثالث ذي أذنين عجيبتين ومشية موزونة. كان نصيبه كرفيقيه.

- يا بن يو الفائز بمباراة النحت.

وإذا برابع على صورة أنثى من أمام وذكر من خلف.

ثم أحاطوا بجنيتي وهم يهزجون: فمن طائر فوقها، ومن راكض حولها، ومن راقص فوق المنصة أمامها؛ وكنت بينهم كمن أصابه مس من جنون أجيل ألحاظي بدهشة واستغراب إلى أن ارتفع صوت الصديق قائلاً:

أيها الجن، إنني أصنع هذا الإكليل على رأس هذه الجنية التي فازت بمباراة الجمال، وأثني عليه بأكليل آخر أضعه على رأسها لأنها هي ورفيقتها

قد أوحيا للمفنين موضوعا جديداً كان الباعث على فوزهم. علا الهاتف وحملونا على أكتافهم كفاتحين.

* * *

انفردت بصديقي وقلت له أن مسألة فتاتي لا شك معلومة لديك؛ فإذا كان ولا بد من ذلك، فإنني أصر بكل ما عندي من قوى، أن تختموا عيدكم هذا بضحيتين لا واحدة.

- إن خلاصها منوط بك وحدك.
- أفصح.
- لا يمكنني الإفصاح.
- كفى.

ولما اطمأنت نفسي وزال خوفها أرادت الاستعلام عن هذه المباراة العجيبة فقلت له:

- إنني كنت بينكم على حد قول المثل العامي [كالأطرش بالزفة]؛ فأين المباراة ومتى صارت وما الباعث لحرماني من سماع شعرائكم ومشاهدة ما يبدعه مفنوكم؟
- إن الأمر بسيط: كنت أنت وفتاتك باعثاً لشحذ قرائح المفنين.

إذ كنتما في وقفتكما على طرف القلعة تلك الوقفة العلوية بما فيها من إلهام وسحر الموضوع الجديد المبتكر والمفنون الذين استطاعوا تحليل ما كنتما عليه بصورة مستظرفة قد نالوا الجوائز.

- وعندكم أيضاً قصة آدم وحواء التي لا تبلى؟

فلم يحر جواباً.

طرت إلى جنيتي لأزف لها البشارة فلم تهش لها بل شاهدت أن كمدها قد ازداد. ثم إنها قالت: وكيف يحق لصديقك أن يعلمك أن خلاصي من الهلاك منوط بك؟

- وما المانع من ذلك وإنها لخدمة يستحق عليها الشكر.
- إن كمدي هو بسبب ذلك.
- جررتها إلى المائدة وأجلستها على يمين صديقي وتجاذبنا أطراف الحديث. ثم إن صديقي قال: إن الملك أبا الفداء قد تأخر عن الحضور.
- هل له عادة أن يحضر ولائمكم؟
- لا شك لأنه مليك البلدة المحبوب. ولم ينته من كلامه إلا ورأيت شيخاً جميل الصورة يطير إلينا على متن ثعبان برأسين قال صديقي؛ هذا هو أبو الفداء.
- خففنا إلى استقباله وأنزلناه عن متن الثعبان؛ ولما وطأت قدماه الأرض انتفض الثعبان وانشطر إلى شطرين: الأول صار إلى صولجان، والثاني إلى إكليل تبص فيه عينا الثعبان كجوهرتين ليس لهما مثيل. قدمني الصديق لجلالته قائلاً: إن هذا الفتى من مواليد بلدتك.

هش لي وبش وقربني إليه؛ وبعد أن تحادث مع صديقي التفت إلي قائلاً ما عندك يا بني من أخبار عصركم؟ فإنني تواق لمعرفة ما آلت إليه حالة البلاد.

- عفواً يا مولاي! وهل باستطاعة غر مثلي أن يبحث التاريخ أمام جلالتكم؟
- وهل تريد مني أن أطلع على الحوادث وأنا في عالم الأموات.

تكلمت بتردد وخجل فاستحثني بابتسامة تشجيع.

- أنتم تعلمون ما آلت إليه حال العرب في زمنكم وقد صارت فيما بعد من سيء إلى أسوأ، وتقلبت عليهم التقلبات حتى بلغوا منتهى الضعف والانقسام والخذلان، وكان نصيبهم في سوريا أدهى وأمر، لأنهم كانوا فيها ولم يزالوا لقمة سائغة للغزاة والفاتحين؛ ولا أريد أن أسرد على جلالتكم جميع المصائب التي أجهدتهم لأن ذلك يشجيكم ويحتاج إلى وقت طويل، بل أكتفي بما جرى في العصر الحاضر:

إن الغرب بفضل اهتدائه إلى البخار والكهرباء وبفضل الاكتشافات والاختراعات واستثمارها واستخدامها في جميع مرافق الحياة. ولكثافة النفوس عنده صار ذا شوكة لا تخضد وسطوة لا تقاوم، وكان الشرق المنقسم على أمره، الغارق في بحر أوهامه وأضاليله مطمح أنظاره في كل حين، وكان كلما سنحت له الفرص يسعى لبسط سلطانه عليه؛ وله الحق ما زال الدستور القويم عنده الحق للقوة ولحسن الحظ ما كان متفقاً فيما بينه، لأن كل أمة من أممه كانت تسعى لذاتها وتريد حرمان جاراتها؛ حتى جر هذا الطمع الأشعبي إلى حرب طاحنة لم يسجل التاريخ مثلها.

- ما هذه الحرب الطاحنة التي تعنيها وكم ألف من البشر اشترك بها وكم كان عدد قتلاها وكم شهر طالت وما نوع السلاح الذي استخدم فيها؟ إنني أعلم أن آخر ما استخدم عندنا من الآلات المستحدثة هو المنجنيق.
- مولاي اشترك فيها الملايين من البشر.
- الملايين....؟ وأي ساحة وسعتهم...؟ وكيف أمنوا إعاشتهم...؟
- البحر كله والبر من القطب إلى القطب.
- أخشى أن تكون أضعت عقلك يا بني.
- كلا يا مولاي وقد استخدموا فيها المدافع التي ترمي قذائفها الجهنمية إلى بعد آلاف الكيلومترات والغازات السامة والدبابات والطيارات والمناطيد والألغام وأنواع الديناميت والمدرعات والغواصات.
- صه! ما هذه التعابير الجنونية؟
- إذا أردت يا مولاي فإنني أوضحها كلها لك.
- لا حاجة. لا حاجة أتم حديثك. ثم إنه زوى ما بين حاجبيه، واعتدل في جلسته علامة الاهتمام ثم أردف قائلاً: وكم يوم دامت؟
- أربع سنين.

- أربع سنين.
- أجل.
- أواه كم من دماء سفكت ودموع سكبت وأمصار خربت؟! ومسح دمعة سالت على خده.
- كفكف دمعك يا مولاي، فإن حروباً مقبلة ستقع على شكل أعظم وأفظع بكثير.
- ليتني لم آت هذه الوليمة، فقد كنت مستريحاً في مرقدي على ضفاف النهر وكانت تلك النواعير تهدهدني بنواحها الشجي؛ ولكنك أيها الفتى قد نغصت علي سلامي.
- هال البشر ما ارتكبت من الجنايات والفظائع، وأشجاهم هذا التناحر الوحشي، فارتفع صوت من أمريكا.
- ما هذا الاسم؟
- قارة كبيرة من الأرض اكتشفها قريستوف قولومب.

ارتفع منها صوت إنساني، صوت رجل طيب القلب وكان يدعم هذا الصوت ملايين البشر في تلك القارة. ارتفع هذا الصوت قائلاً: لا استعمار ولا فتح بعد اليوم. إن الأمم قويها وضعيفها حرة، يجب أن تحكم نفسها بنفسها. فهللت الوجوه واستبشرت لهذا النبأ الجليل.

وانتهت الحرب بمعاونة الأمة التي ارتفع منها هذا الصوت الإنساني، وكان النصر للقائلين بهذا المبدأ.

- إذن أنتم في سلام ورخاء، وإنني أهنئكم على هذا النجاح الباهر، وأتمنى لو أرجع عاملاً بسيطاً بينكم بدلاً من ملكي الذي عشت فيه في زمن مملوء بأنواع العذاب والتعب.
- لا تتعجل يا مولاي؛ ما كانت إلا أحلام كاذبة.

- وكيف ذلك؟
- كانت الهدية بعد هذه الحرب التي خلفت الملايين من الأرامل والأيتام والمعلولين وكانت المعاهدة؛ وإذا بويلسون يدحر ومبادئه معاً، واقتسم الغالب تركة الملغوب وبدلت خارجة الدنيا وأضحى الظلم أقوى من ذي قبل وأعظم؛ ولما رأت الأمم المغلوبة على أمرها والأمم المستضعفة التي لبت داعي ويلسون بغية التحرر من الاستعباد تلك النتيجة غير المنتظرة، هبت من كل صوب تكيد للأمم الغالبة في الظاهر والخفاء، ودعمتها البلشفية الحمراء، فشبت الثورات السلبية والإيجابية، وتدهورت الثروات التي هي دعامة المدينة الحاضرة، وزال الوهم الذي كان متسلطاً على عقول الضعفاء، فأصبح الكل يعلم ما له وما عليه من الحقوق ولم يعد يحفل بالقوة الغاشمة التي تهدده لأنه بفضل هذه الحرب قد علم أنه إنسان.
- ألم يظهر بينكم فلاسفة ومرشدون فيهدونكم محجة الحق؟
- أجل ولكن أصواتهم أضعف من أن ترتفع إلى آذان الطغاة الظالمين.
- لا خلاص لكم إلا بنشر السلام العام ولا راحة. إن الأرض يا بني تكفي خيراتها لإعالة من وما عليها. إن البشر لو حكموا العقل على الشهوات لسلكوا غير هذا السبيل المعوج، ولو أنهم بذلوا عشر معشار ما بذلوه في سبيل أنانيتهم الحربية والدينية لكان لهم من أرضهم جنة كجنة الخلد. التي يوعد بها المتقون.
- وهل تعتقد يا مولاي أننا موفقون في مستقبل الأيام؟
- نعم، حينما تتقارب ثقافة الشعوب وتطرح الأوهام جانباً وتتكاتف الجهود وتتجه إلى المثل العليا.
- شكراً يا مليكي المحبوب.

مشى أبو الفداء يرافقه صديقي وبقيت أنا وفتاتي، ولما التفت إليها وجدتها غارقة في بحر متلاطم من الأفكار.

- علام هذا السهوم وهذا الانقباض؟ دعينا ننعم بهذه اللحظات القصيرة التي تغمرنا بالحب والشوق والألم.
- نعم دعنا ننعم ولكنني كما قلت لك أنني أخشى عليكَ سوء العاقبة لأنني لا أريد أن يتقاضاك حبي ديناً يودي بحياتك أو يسبب لك انكساراً لا انجبار له.
- الفناء كلمة لذيذة وهل من غاية لي سوى الفناء بالحب. ألا تعلمين أن الزهرة التي تفتح أنامل الحب السحرية كمها عند الصباح تنثرها تلك الأنامل نفسها أشلاء ذابلة في الماء؟
- إن حبك قد ملأ الهوات العميقة، المظلمة، القاحلة في مجاهل نفسي بلذاذات متجددة، وأنارها بنور علوي جعل منها جنات كتبت على أبوابها:
هنا يموت الضجر، هنا التجدد الدائم.
- أبرقت عيناها بابتسامة حبور. اجتذبتني إلى صدرها وضغطت بذراعيها علي ضغطاً قوياً، شعرت أنها تمزجني بها وهمست في روحي أشياء أسمى من الحياة وأبقى من الخلود.

* * *

كانت أرهاط الجن في هذه الليلة أشد فرحاً من الليلة الأولى، وكانت أشباحها تترائى على صور وهيئات رمزية عجيبة. أما فتاتي فكانت تشرح لي رموزها وما غمض واستتر منها. ونحن كذلك وإذا بأرض القلعة تنشق رويداً رويداً وتنفتح أمامنا كهوة سحيقة ظهرت حافاتها بمختلف طبقاتها؛ وإذا بي أرى في قعرها المملوء بالبخار المتصاعد، بحراً نارياً يرغي ويزبد ويتضخم ثم ينفثئ. وإذا بقرني ثور عظيمين يرتفعان منها رويداً رويداً حتى بلغا مستوى الهوة وإذا بخوار ينطلق من أعماقها أشد من قصف الرعد.

ارتعدت فرائصي وكدت أصعق لشدة الخوف لو لم تتداركني جنيتي.

- لا تخف هذا هو الثور الذي يحمل على قرنيه الأرض.
- أبعديني عنه فإنني لا أشتهي رؤية مثل هذه الثيران.
- بل ستبقى لتسمع خطابه السنوي.
- ومتى كانت الثيران ذات فصاحة؟

دوى الخوار ثانية فارتجت الأرض كأعظم زلزال فتعلقت بعنق جنيتي ووقفت مكرهاً.

- أيها الجن: المخلوقون من النار أنتم أفضل من آدم وأبنائه المخلوقين من الطين.
- إنه يسيء لوظيفته ولربه.
- اسكت. اسكت.
- إن آدم وأحفاده على حد قول المعري:

مـــا فـــيهم بـــر ولا ناســـك	إلا إلـــى نفـــع لـــه يجـــذب
أفضل من أفضلهم صـــخرة	لا تظلم النـــاس ولا تكـــذب

- أيها الثور الكريه ما أنت إلا حيوان مشهور بحمقك وجهلك.

سدت فمي بيدها.

إنهم يدعون المعرفة ويتلبسون بلباس الشفقة ويسنون الشرائع لإحقاق الحق ويدعون الفن...

أيها الجن! إن هم إلا مراؤون، كذابون، خداعون يعبدون المال ويكفرون بالله المتعال وما آدمهم إلا غبي أحمق وما حواءهم إلا ثرثارة بلهاء. إن إلههم الحقيقي هو شهواتهم.

ضاع صوت غضبي بين هتافهم المتواصل وقعقعة التئام الأرض.

- أي جنيتي! إنني أهنت لكلمات هذا الثور الوضيع الذي لا عزة نفس تهيجه ولا ثورة روح تثيره والأنكى من ذلك هو أنه يحمل الأرض من آلاف آلاف الأجيال ولا يتأفف ولا يتذمر.

بدأت تسكن من حدتي بقولها:

- هل يؤبه لقول مسكين بائس توترت أعصابه من الحمل الثقيل الذي يرزح تحته منذ الخليقة ومع ذلك فلو لم ير من البشر ما رأى لما هجاهم بخطابه وما زال رائده الإخلاص فإنه يعذر.
- إن في البشر الصالح والطالح وهل من الإنصاف أن يشملهم جميعاً؟
- إن البلاء عام يا حبيبي والرحمة مخصصة.
- هذا صحيح ولكن المرء لا يتمالك من إظهار غضبه أمام الجور.
- إن الإنس يعبدون الجور والظلم لأنهم عبيد غرائزهم ولا يستطيعون الانعتاق منها وهل تعتقد أن حياتكم الدنيا يمكنها أن تقوم على أساس المساوات المطلقة؟
- لي الشرف أن أقدم "لفنوسيتك" وسام الاستحقاق. لا أقول الاستحقاق السوري.
- إن الأوسمة هي هي في كل قوم وجيل وما أغباكم لأنكم تضحون أحياناً في سبيلها بالشرف والأنفة والشمم وحتى بالحياة.
- ألا يستثنى منا أحد؟
- نعم إن الذي يقول:

امطري لؤلؤاً جبال سرنديب وفيضي آبار تكرور تبرا
منزلي منزل الملوك ونفسي نفس حر ترى المذلة كفرا
أنا إن عشت لست أعدم قوتاً وإذا مت لست أعدم قبرا

- ولكن شاعرك هذا قد أتاه الحظ إذ أنه عاش في زمن ما كان يموت الحر فيه من الجوع.

- ألا تعلمين أن هومير العظيم باع جميع أناشيده لمضيفه لقاء لقمة وإيواء وقد خانه مضيفه بانتحال هذه الأناشيد حتى أجبر ذلك الشاعر الأعمى أن يطارده من بلدة إلى بلدة ليظهر للناس سرقته وانتحاله وهذا ابن الرومي الذي أتت عليه أيام كان يحتاج فيها لشربة ماء ونهر الدجلة يجري أمامه يسقي حتى أحط الهوام. وهذا "بودلير" وإذا أردت فإنني أتيك بآلاف الأمثلة.

وعلى كل فلي الشرف العظيم أن أقدم لجلالتك وسام الاستحقاق الفلسفي.

- ضحكت جنيتي حتى أغرقت بالضحك ثم استدنتني منها فقبلتها قبلة طويلة علوية ولما أبعدتني عنها قالت:

- هذا هو الاستحقاق الفلسفي.

مشينا نمتع النظر بهيئات وألعاب الجان المختلفة إلى أن وصلنا إلى الحافة القبلية حيث تظهر أكثر بيوت البلدة للعيان، تلك البيوت الشبيهة بأكواخ متراصة تتخللها القباب والمآذن وظهرت في القسم الشرقي زاوية الكيلاني والنواعير وقبة قصر العظم والأشجار والبساتين.

غمرتنا روعة هذه المناظر الخلابة وملأت نفسينا برهبة لذيذة، عميقة فقلت لفتاتي إن تلك الأقبية الواطئة والقناطر التي يرشح منها الماء تمثل أمامي كأنها دهاليز النفس البشرية المشحونة بالأسرار وهذه النجوم التي تكاد تمس رؤوسنا لقربها منا كم هي جميلة وجذابة وأشكر الصدفة أن القمر لم يطمس معالمها بنوره البارد الباهت.

تعلمين يا جنيتي أن القمر أبلد وأثقل ما خلقته الطبيعة، فلا يبدو جميلاً إلا في المحاق. تصوري طبقاً من ثلج مرصوص وفيه بقع من وحل: هذا هو البدر. وكن أشعر في ضيائه بقشعريرة برد واستكراه!

- إذاً تحب النجوم؟
- لا أقول لا وإن هي تتراءى على نمط واحد في كل حين. وكم تفرست فيها وأنا مضجع على ظهري في الليالي: هذه نجمة القطب وهنالك بنات نعش وهذه بقية النجوم التي لا تعد، وهذه المجرة. أن نجمة الصبح هي أجمل النجوم عندي، وإذا أردت الحقيقة فإنني أفضل الليل الحالك، الليل المدلهم، الليل الذي يحجب نجومه وأقماره السحاب والضباب؛ لأنني أرجع فيه لنفسي فأرى في سمائها نجوماً وأقماراً وشهباً وبروقاً وصواعق لا تنضب، والتي تتغير وتتجدد في كل آونة وحين.
- إنك سعيد وشقي معاً، ولكن اسمع: أتدري لماذا تتراءى النجوم دانية منا هذه الليلة؟
- لا.
- اعلم أن هذه النجوم أرواح شاعرة تدنو وتبعد بحسب مقتضى الحال، وهي وإن كانت تنقض شهباً على الشياطين الذين يريدون استراق السمع، إلا أنها مسالمة وحبيبة لمن يفهمها ويفقه مغازيها. وبما أن ليلتنا هذه ليلة سلام ووئام فقد رجوناها أن تشترك معنا بالعيد فلبت طلبنا، وسترى كم هي أليفة مطيعة، وإننا سنلعب بها لعبة الكرة.
- وكيف ذلك؟
- سترى.
- قولي: ما وراء هذه النجوم؟
- نجوم أخرى.

- إنني لا أفهم ما تقولين.
- إذاً من العبث البحث معك.
- ذكرني جوابك هذا بقصة جحى.
- وما هي؟
- يقال أن جحى أراد أن يخطب الناس في يوم جمعة، فصعد المنبر وقال: أيها الناس أتعلمون ما سأقول؟
- قالوا: لا.
- إذاً لا حاجة للقول.
- وثاني جمعة صعد المنبر وكانوا قد اتفقوا أن يقولوا بلسان واحد نعم.
- أيها الناس أتعلمون ما سأقول؟
- نعم.
- إذاً لا حاجة للقول. وفي ثالث مرة اتفقوا على أن القسم منهم يقول نعم، والآخر، لا. فلما صعد المنبر وسأل عين السؤال كانت أجوبتهم نعم ولا.
- فعندها قال. فليعلم الذين يعلمون الذين لا يعلمون ونزل ظافراً.
- ضحكت جنيتي ضحكة عالية ثم قالت: إذا أردت أن تعلم ما وراء النجوم ارجع إلى الشيطان واستعلم منه الخبر.
- لا تميل نفسي للعودة إليه.
- إذاً تعال. واقتادتني قائلة: قد حان وقت اللعب بالنجوم لأن الليل أوشك أن ينقضي.

وكانت لعبة لطيفة تستهوي كثيراً: فكان العملاق الجبار من الجن يتقدم ويضرب برجله نجمة تصطدم بعدة نجوم، فإذا بلغت العشرة تغيب كلها ويفوز العملاق.

ولكن الفائزين كانوا قليلين، ولذلك فهمت طول الليل لا سيما عند العشاق وتذكرت قول امرئ القيس:

فيا لك من ليــل كــأن نجومـــه   بأمراس كتان إلى صــم جنــدل

وفي النهاية أتى عملاق عجيب، خفيف الحركة ظريفها، وتقدم بين الهتاف والتصفيق وكان على رأسه إكليل من نجوم وبحر مطرفاً مرصعاً بالنجوم أيضاً.

- قلت من هذا؟
- هذا بطل هذه اللعبة لا ينازعه فيها منازع.
- اسمه؟
- الفجر البلسم.

تقدم ببطئ، وكانت علائم الخيلاء تلوح عليه؛ ثم إنه بعد وقفة جميلة هز ساقه هزة ببراعة غريبة وقذف بنجمة الصبح فراحت تصطدم بباقي النجوم، حتى لم تدع منها واحدة. وإذا بالجن تختفي كلها، وإذا بجنيتي تقول: إلى الليلة القادمة.

ظللت وحيداً في القلعة، وبدأ شعور حزين يسري في نفسي سريان هذا الفجر الباسم بين ظلال الظلام. جلست ميمماً وجهي نحوه وتهت في تأملاتي كعابد من عباد النور.

الليلة الثالثة

أفقت من نومي وظللت مضجعاً في الفراش خلاف عادتي، وصارت تتقاذفني أفكار سيئة وصرت أتساءل ما سيكون أمر هذه الفتاة وأمري وكيف خلاصهما من الهلاك سيكون منوطاً بي. وبدأ يتسرب الخوف إلى نفسي ذلك الخوف الذي يتعاظم أمام المجهول. ثم طفقت ألوم نفسي على تغريري بتلك الفتاة الطيبة، ولكنني عدت فقلت: ما زلت سأبذل كل مستطاعي في سبيلها وسأسعى جهدي لإنقاذهم مهما كلف الأمر، فلأطرد هذه الأفكار السيئة ولأسرع لغايتي قدماً بدون أن ألوي على شيء، وما زال الإيمان يجنح عزمي فكل العقبات والصعاب ستتلاشى أمام إرادتي، وسيكون شعاري في مغامرتي هذه: "الموت أو الفوز". ولما قر قراري على هذا النحو نهضت طروباً وصرت أشعر بقوى غير مألوفة تضطرم في جسمي وتملأه نشاطاً وحركة. وأنا كذلك وإذا بقرع خفيف على الباب:

- تفضل. وإذا ببدوي ملثم يدخل. استأت لمفاجأته إياي على هذه الحال وزويت ما بين حاجبي.
- السلام.
- وعليك السلام.
- لم أرد التفرس بوجهه. جلس وصرت أتشاغل باللبس ثم عدت وسألته بدون أن أنظر إليه: ماذا تريد؟
- قهقه ضاحكاً وأماط اللثام عن وجهه.
- ويا شد دهشتي حينما رأيت جنيتي هي بنفسها.

- أنت! أنت! وكيف جئت بهذه الحال؟

- جئت بالرغم من أننا لا نظهر في النهار، لأن الوقت الذي تبقى قصير فلم أعد أبالي بشيء وعسى أن لا أكون أزعجتك فقد يكون لك موعد ما.

- وأي موعد تعنين؟ ورنوت إليها بحنون زائد ثم تعانقنا.

- قد أصبت كل الإصابة بتخفيك هذا الذي يمكننا من التجول في النهار بدون أن نستثير الشبهات.

خرجنا من البيت وركبنا سيارة راحت تقعقع بنا على بلاط الأزقة الأسود وتصطدم عجلاتها بالحجارة الناتئة حتى كادت تمزق أحشاءنا، ولم ننج من الصغار الذين بدأوا يتراكضون خلفنا ويتعلقون بمؤخرها صائحين "وراك يا حوذي وراك"، وكان صراخهم يمتزج بفرقعة سوط الحوذي، الذي كان ينهال على مؤخر العربية. وما زلنا نرتفع وننخفض ونميل يمنة ويسرة حتى بلغنا باب النهر؛ فتنفسنا الصعداء.

أتممنا الطريق مشياً على الأقدام إلى أن بلغنا الشرفة الغربية المطلة على القسم الشمالي والشرقي من المدينة. مد البدوي عباءته واضطجعنا عليها وسرحنا الطرف في المناظر الممتدة أمامنا.

- إن هذه أول مرة لا تصبو نفسي فيها إلى الخمرة أمام مناظر خلابة كهذه، وما كانت الفتيات اللواتي كنت أستصحبهن في نزهاتي ليحلن بيني وبينها؛ فكنت معهن أحتاج دوماً لمنبه يزيد في حبوري وتحقيقي. إنني ما كنت يوماً من مؤلهي الخمر ولكن الضجر والقلق اللذان لا يفارقانني في كل لحظة كانا يفعلان بي فعل الدود في الشجر والسوس في الخشب فكنت أسعى أن أنبه منتهى شعوري وأشده كما يشد وتر الرباب لا بعد مدى ليعبر بارتجافه عن أقصى الألم.

أواه كم كانت حياتي محدودة ضيقة؟

إنني لا أطيق الجري في دائرة محدودة كما يجري بغل الغراف وهو معصوب العين ليوهم أنه يجتاز المسافات. إن حبك قد أطلقني من هذه القيود الثقيلة.

- أي حبيبي المعذب المسكين! أنت مخدوع معي أيضاً: إن كل ما أستلهمته بحبي لهو وهم في وهم. ولو أن عالماً غير عالمنا تراءى إليك لعدوت نحوه كطائر فك من قفص، غير ملتفت إلى ما خَلَّفْتَ بعدك.

أي حبيبي المعذب المسكين! لسنا آلهة، بل وما تفعل الآلهة. كل ما هو كائن هو محدود بسيط. إن اللانهاية هي لا شيء.

- صه. صه أيتها الجنية! إنني لا أستطيع سماع هذا الكلام وقد عصفت في رأسي عاصفة جنون.

"وتقلصت قبضتا يدي وأردت أن أفتك بها ولكنهما هبطتا بيأس قاتل".

* * *

- تعال، تعال يا حبيبي المسكين لأريك مِساكن الجن للترويح عنك ثم اقتادتني مكرهاً.

صرنا ننتقل من مغارة إلى أخرى، وكانت جنيتي تسرد علي الماضي المملوء بالعبر والسخف إلى أن وصلنا إلى سرداب مظلم طويل تبينت بصعوبة في جانب منه جمجمة إنسان. أخذتها بيدي وصرت أقلبها فاحصاً مدققاً.

- هذه جمجمة إنسان عاش قبل آلاف من السنين.
- وكيف حفظت حتى الآن؟
- إننا احتفظنا بها للذكرى، لأن صاحبها كان صديقاً لنا وهي تجيب من يسألها عن الماضي البعيد.
- إذاً اسمحي لي أن أستطلع منها طلع ما يشغل ذهني.
- افعل إذا أردت.

- أيتها الجمجمة الوقورة! هل لك أن تجيبيني عن المثل الأعلى الذي كان يسير صاحبك في حياته ويملأ فراغ نفسه حتى القبر؟

فلم أشعر إلا ولسان من نار قد نتأ من فمها وبدأ يرأرىء أمامي، ثم خرج منه صوت أشبه بفحيح الأفعى، اهتز هامساً في أذني:

- الفرجان.

شعرت كأن صاعقة انقضت على رأسي.

- أواه أن العصور والأجيال لم تغير منك شيئاً أيها الحيوان الوضيع. خرجت من المغارة بنفس كئيبة وأسفت لاستجوابي تلك الجمجمة الراقدة في حجر الدهور.

* * *

بدأ الليل يصبغ المسكونة بلونه القاتم ويعيد إليها أشكالها الحقيقية المغمورة بالخيالات والرؤى، وقد أردت أن نبقى على الشرفة لنمتع نفسينا بلذاذات الإبهام والغموض؛ ولكن جنيتي مانعت قائلة: هذه آخر ليلة من العيد وهي مخصصة للاستحمام ولا شك أن الصديق قد استبطأنا.

- كيف السبيل والمسافة بعيدة؟

- تبسمت وقالت: أغمض عينيك جيداً؛ فامتثلت الأمر. ثم أنها دفعتني وهي متعلقة بي. ولما فتحت عيني رأيتني على صفة الحمام؛ فقلت: بوركت يا جنيتي فلو للإنس مثل هذه الوسائط النقلية لامتزجت الشعوب وتجانست تجانساً يتعذر بعده وقوع الحروب.

- قالت: أسرع واخلع عنك ثيابك.

- وأين المئزر؟

- وأي مئزر تعني؟

- مئزر ستر العورة، فهل تظنين أنني من مذهب العرى؟

- وهل بك من عاهة حتى تريد إخفائها؟

- لا. ولكنني أستحي.

- ولم لا تحجب وجهك؟ إذاً أنكم بتربيتكم السقيمة الشاذة عن الفطرة أصبحتم أغبى من الحيوان.

عرتني من ثيابي قسراً وقادتني كما تقود الأمّ طفلها العاصي وكنت وهي تجرني أزلق على المرمر الناعم فأزداد تعلقاً بذراعيها، إلى أن بلغت بي إلى بلاط النار. أجلستني عليه وذهبت: ذكرتني معاملتها هذه والدتي المرحومة. ثم أنني بدأت أجيل ألحاظاً حائرة فيما حولي وصرت أعجب لما آلت إليه هذه الحمام من التغيير والتبديل، فكان البلاط تحتي شفافاً لدرجة أني كنت أشاهد منه النار. وكانت مجاري الماء شفافة أيضاً وكنت أرى فيها أنواعاً من الأسماك النارية المختلفة وتتمازج. أما الجدران فكانت تبرز فيها تماثيل عجيبة الصنع تمثل جميع صور الحب، كلها ملونة بألوان طبيعية استهوتني لدرجة أنني أردت استقراءها بلمسي. والغريب أنني شاهدتها تشعر وتتحرك تحت أناملي. ابتعدت عنها مذعوراً وعندها تعالت أصوات الضحك من كل جانب وعصفت قهقهات ساخرة من سذاجتي. وإذا بهذه التماثيل تركض نحوي؛ ثم أنها بدأت تتقاذفني كالكرة فكنت أطير بينها تارة صعداً وأخرى هبوطاً، وآونة تتلقاني حسناء بصدرها الناعم. وأخرى أصطدم بجمجمة رجل صخرية، حتى خيل إلي أن الهلاك مني قاب قوسين ولكن روعي هدأ لما تبينت فتاتي وصديقي بينهم حتى أنني صرت أجاريهم بالضحك، وصرت كلما سقطت على صدر فتاة أريد إطالة المكث فيه، وأتشبث بنهوده. وأظن أن هذه الحال قد حركت من غيرة جنيتي، لأنني رأيتها تتقدم إلى الأمام وتقتلعني من بين الأيدي ثم أنها تصيح كفى، كفى. فقد سمجتم بالإطالة أليس عندكم غير هذه اللعبة الباردة؟

انفردت بي وبدأت تؤنبني بقولها: كنت قبل لحظة تستحي أن تدخل الحمام عارياً والآن أراك تخلع العذار على هذا الشكل المشين.

زممت شفتي وتظاهرت بالحرد كالطفل المدلل وقلت هل علي الذنب ولِمَ تركتني ألعوبة بين الأيدي. جرتني قائلة كفى هذياناً. ثم أنها لطفت من صوتها وقالت إنني أعددت لك مقصورة خصوصية، فلا يجوز أن تستحم مع العموم. ولما دخلتها استرعى انتباهي أنواع الفواكه والأثمار ذات الأريج المعلقة في سقفها وجدرها كلها مضيئة بأنوار تتلألأ بألوانها الطبيعية، ورأيت سرباً من الوصيفات الحسناوات واقفات وقفة الإجلال والاحترام. أشارت لإحداهن إشارة وبعد برهة أتت وبصحبتها ثعابين جميلة صارت تنزلق نحوي وتنساب. ارتعبت منها واقشعر بدني لرؤيتها، ولكن جنيتي سكنت روعي بقولها: إنها مخصصة لتمسيدك ودلكك.

بدأت هذه الثعابين الجميلة العيون اللامعة البشرات تنساب فوقي وتلتف حول أعضائي بصناعة غريبة وتمسدني وتدلكني ببشراتها الناعمة وتلحس جلدي بألسنتها المشقوقة حتى ظننت أنها بنقراتها الموزونة تحفر في نهايات أعصابي.

وكانت أعضاء سحرية تجول حولي في دوائر متشابكة متعاكسة، مجتمعة متفرقة، ولكن جميع هذه الأمور الباعثة في جسمي أقصى اللذات الممزوجة بالألم كانت تتلاشى حقيرة أمام نظري كلما وجهت طرفي نحو فاتنتي المعبودة. ولما أنهيت من هذه العملية قلت لجنيتي التي تكتم اغتباطها من نتيجة هذه التجربة: أنني أريد أن أدخن ناركيلة في الوسطاني.

تقدمت الوصيفات أمامنا إلى الوسطاني وفرشنه بنمارق ووسائد عجيبة كنت أشعر وأنا متكئ عليها بنعومة الصدور والبطون وأشتم منها أريجها المهيج. حضرت الناركيلة فرأيتها مصنوعة من جوزة هند شفافة فقلت لجنيتي: إن ناركيلتك هذه قد ذكرتني بقَيمتي العجوز؛ وقد تراءت لي الآن بشعرها المخضب بالحناء ووجهها المتجعد الشمعي؛ ثم إنني تذكرت كيف أنها كانت تغسلني بماء حار جداً، وتملأ عيني برغوة الصابون غير آبهة لصراخي وعويلي.

- ما أكثر هذرك! ثم إنها اضطجعت جنبي وصارت تداعب شعري بأناملها الرخصة. قلت: صدق المثل القائل "الحمام نعيم الدنيا" وشعرت بحاجة ملحة للغناء، فرفعت عقيرتي بصوتي الذي يشهي الصمم، ولكنها سدت فمي براحة كفها قائلة: لا تكلف نفسك العناء. إن جوقة المنشدات ستحضر حالاً. ثم أنها صفقت بيديها وإذا بحوريات عاريات محلولات الشعر يأتين سراعاً واسطففن قبالتي؛ وبعد أن انحنين احتراماً لي تقدمت الأجملهن شعراً ورمت برأسها إلى خلف ودفعت صدرها وبطنها إلى الأمام حتى أخذت شكل قوس؛ ثم إن حورية غلامية أخذت خيوط شعرها الشفقية وبدأت تعقدها وتشدها من قدمها فما فوق حتى صارت على هيأة "هارب" بغايةٍ من البداعة. ثم بدأتْ أنامل هذه الحورية الغلامية التي بلون زهر الدراق تداعب الأوتار وتخرج أنغاماً عميقة سحارة يشعر من يسمعها بأن جسمه المادي يتلاشى ذرة ذرة ويتصاعد موجة موجة سابحاً مع أنغامها في الفضاء إلى الملأ الأعلى. ثم بدأت ترافق الأنغام بأنشودة لم أفقه من كلامها شيئاً، إلا أنها كانت تسري في روحي سريان الإلهامات المتجلية من عالم غير منظور. ثم أخذت ترقص باقي الحوريات رقصاً غريباً لا يمكن لألفاظي المادية الجامدة التعبير عنه؛ وبعد ذلك انتزعت إحداهن قصبة ناركيلتي ونفخت فيها نفخاً عجيباً من الحنو الشجي ما يذيب صم الصفا.

صحت كفى. كفى، فإنني لا أستطيع السماع أكثر من ذلك. أن أذني لاتتحمل هذه الموسيقى العلوية لأنها اعتادت الجاز والطبل.

* * *

- اسمع أن الصديق سيناجي الأرواح في حمام "...." هيا بنا نشاهد هذه اللعبة اللذيذة.

- وكيف الوصول إليها؟

- المسألة بسيطة إن جميع الحماميم متصلة بدهاليز سرية.

- إنني لا أعلم قبل الآن أن حماميم البلدة متصلة بعضها ببعض.
- هذا للجان فقط.
- مشينا في سرداب مضيء بذاته وفي جدرانه نقوش وتهاويل تدهش الإنسان وتحيره.

قلت وما الفائدة من هذه الزينات التي لا ينظرها أحد؟

- إننا نتلهى بالفن ونقتل به الضجر من قلة العمل، وماذا تريد أن تصنع غير ذلك؟
- إنكم سعداء لأن البعض من الإنس يود لو يحصل على كسرة خبز وأن يفترش الثرى ليفني عمره بالفن، وأنى له ذلك والاحتياج القاسي يثقل كاهله.

خرجنا من الدهليز إلى الحمام الثانية، فرأيتها مزدانة على غير ما رأيت في حمامنا.

تلقانا الصديق قائلاً: أين أنتم؟ إننا سنناجي الأرواح وقد تأخرنا بسببكم. ثم أنه اقتادنا إلى منصة رخامية تألب الجمع حولها.

- أي روح تريدون؟
- أحدهم ـــ روح "مفستفلس".
- بعد برهة سمعنا صوتاً كحفيف الشجر ما هزها الريح.

أجابت الروح سلها ما تريد.

- كيف أنتِ أيتها الروح؟
- في عذاب مقيم.
- ما سبب هذا العذاب؟
- مرغريت المسكينة التي أغويتها! إن طيفها الحزين ماثل أمامي في كل لحظة وآن، وبين يديه الطفل المجنى عليه، طفل الجريمة الشنعاء. وكلما أردت تحويل نظري أو إغماضه عنها، تظهر أمام عيني أجلى وأوضح من قبل، وتتراءى لي بوجهها المخدد بالدمع وعينيها الملتهبتين بالألم. ولا تزال مخالب الندم المسنونة

تمزق بروحي وتقطع فيها. والذي يلهب عذابي إلى أقصى ما يتصور هوانها تضم طفلها المائت إلى صدرها وتضغط وجهه على ثديها المملوء بالدر الفينة بعد الفينة، كأنها تريد أن ترد له الحياة؛ ولما تراه باقياً على حاله جثة هامدة، وترى أن حنوها لم يرده إليها تبدأ بصراخ وعويل فظيع وتنتف شعرها حتى تسيل من جذوره الدماء.

أواه. أواه. أين الخلاص؟ آ...ه، آ...ه، آ...

قلت لصديقي: أريد روح ئه دكاربو*.

- لك ما تريد.

- كررت المناداة فلم تجب. قال: إن هذه الروح متمردة، ولكنها ستجيب شاءت أو أبت.

وإذا بصوت ذي لحنين في آن واحد.

قلت للصديق: هذا عجيب أريد أن أراه عياناً.

- تجلي أيتها الروح عياناً تجلي. ولما ظهرت رأيتها متعانقة مع شبح فتاة جميلة عناقاً قوياً، ورأيت على رأس الفتاة قبعة مزدانة بغراب محنط.

- قلت: كيف أنت أيها الشاعر الغريب؟

إنني كما ترى في نعيم مقيم، وها قد اقتصصت من الغراب الذي قتلني يأساً، وها قد قدمته هدية إلى حبيبتي لتضعه زينة في قبعتها؛ ثم أنه أشار إلي من طرف حفي، ولما دنوت منه أسر لي أن أنقذني من هذا الحمل. تغالطت وصحت: حسناً تريد رؤية بودلير.

فصاح الصديق: يا روح بودلير اظهري سريعاً، اظهري بجسمك اظهري. وإذا ببودلير يظهر رويداً رويداً حتى تكامل، وإذا بفمه غليون يفوح منه عطر شذي. سلم علينا جميعاً ثم قال: أنت هنا؟

---

* - المقصود: إدغار ألان بو. - المحرر.

- نعم. إن غايتي القصوى هي التعرف إليك وإلى بو شخصياً بعد أن تعرفت إليكما روحياً.
- قل لي هل أنت بخير؟
- إنني نلت ما أتمنى بمعونة العظيم الذي استنجدت به بعد أن ملني الأخوان والأصحاب في الحياة الدنيا، وها إنك تراني قد أنقذت من ضجري القاتل.
- اهنئا أيها العزيزان بسعادتكما، فأنتما أحق من عرفت بالسعادة، وأردت أن أتمادى بالكلام وإذا بوجه بودلير يأخذ انطباعاً غريباً وإذا بدمعة تسقط من جفنه.

أردت تحليل سبب هذه الدمعة وإذا بهما يصرخان بي بصوت واحد: أسرع إلى نجدة محبوبتك، فإنهم سيلقونها ببركان "ئتنا" إلى أبد الآبدين. طار لبي لهذا النبأ المفجع فتعلقت بتلابيب صديقي وهززته بعنف صارخاً في وجهه: إنها لخيانة عظمى! طر بي إليها....

- لا فائدة من ذهابك فإنها محكومة بالهلاك.
- طر بي إليها، طر بي.

ولما رأى قدح الألم في ضميري رثى لحالي.

حملني على كتفه وطار بي بسرعة شهاب انقض من السماء. أنزلني على حافة البركان فرأيتها وسط الجمع مكتوفة بشعرها ورأسها منكس إلى صدرها وظهرها وساقيها وكل أعضائها مهّدمة على ذاتها كأنها تمثال يأس ينوء تحت أرزاءٍ شتى.

انقضضت عليها أريد تخليصها، ولكن عملاقاً بشعاً تقدم إلي بين الجمع وأمسك بأنملين من أنامله بشعر رأسي، ثم اقتلعني من الأرض فصرت أتخبط كسمكة صغيرة اجتذبها الصياد بشصه، ثم لاحني وقذفني إلى بعد أمتار، ولو لم يتلقاني صديقي لكنت من الهالكين.

تقدم صديقي إلى الأمام وهو يحملني؛ وكنت ارتعش من الغيظ والحنق والتحرق للانتقام، ومع علمي بضعفي المذري كنت أسعى لأتملص من يديه لأنقض

على هذا العاتي محبذاً الموت ألف مرة على أن أبقى أضحوكة الذل والهوان. صاح صديقي بالقوم بصوت كقصف الرعد قائلاً:

أيها الأخوان: إن لهذا الإنسي حقاً صريحاً هو حق الدفاع عن فتاته، وإذا لم يقنعكم دفاعه فإنه يمتحن بالتجارب المعينة، فإذا انتصر على أهوالها وصعابها وتغلب على مصاعبها بقوة الإرادة ينقذ من يحب وإلا فالهلاك لكليهما.

ثم وضعني على الأرض قائلاً: دافع عنها فالإيمان يعضدك.

وقفت وكل منهم كاشر باسر. أردت بلغ ريقي فسمعت قرع لساني على جدران فمي اليابس. نظرت إلى جنيتي فرأيتها ترنو إلي بإشفاق يذهب العقل. تجالدت وأنا العليم بأنني أعيى من باقل ثم قلت:

أيها القوم... أيها الحطام العادلون! إنني سأشرح قضيتي وهذه الفتاة ولا ألتمس منكم الإنصاف:

إنني أنسي منكود الحظ، مضطرب، قلق، أعبد المثل العليا؛ وإنني أعترف أمام هيأتكم الموقرة بأن ماضيّ لا يخلو من آثام اقترفتها انتقاماً من الحياة ومن نفسي؛ لأنني كنت في حياتي بائساً لحد بعيد. وكنت في محاولاتي العديدة أرجع بانكسار قاتل حتى كاد اليأس يفل عزمي. ثم أن الصدف ساقتني إلى الجنية التي تمثل أمامكم كجانية لأنها صبت إلى أنسي.

إن هذه الخاطئة المجرمة بعرف القانون هي التي أنقذتني من يأسي القاتل، هي التي رفعتني بحبها إلى ذروة المثل الأعلى، هي التي صفتني من كل رجس، من كل دنيئة؛ أتفهمون ما أقول؟

أجل إنها خاطئة لأنها انحطت إلى مستواي ولكن قلبها الكبير الذي ينبض بالتضحية والشفقة والرحمة أبى إلا أن ينقذ بائساً مثلي.

- إنني أحبه... إنني أحبه...
- اسمعوا! اسمعوا! ألا تكفي هذه الكلمة السحرية التي تخرج من شفتي بائسة وهي على حافة الفناء لأقناعكم...؟

ضوضاء، جدال، انقسام، تحزب، مشاورات خفية كنت أرى فيها صديقي يكلم هذا ويقنع ذاك.

بقينا وحدنا فالتفتت جنيتي إلي وقالت: دعني أهلك؛ إنهم سيحملونك بتجاربهم هذه ما لا طاقة لك به. وما يهمني الهلاك بعد أن بلغت ما أتمنى من الحياة. أردت أن أجيبها فما شعرت إلا والأرض تنخسف بي، وإذا بي أهوي في هوة مظلمة أشبه ببئر، تشبثت بجدرانها وظللت مدة طويلة وأنا أحاول الخروج منها. شعرت بسائل حار يسيل من يدي على ذراعي الممطوطتين بثقل جسمي فترت فهويت فتعلقت برأسي ثم بصدري ثم بساقي، وكنت كلما حاولت الخلاص أهوي تاركاً على الجدران بقايا من جسمي المنهوك وقد أضعت بهبوطي حِسَّ الزمن والمكان إلى أن سقطت في مستنقع مرعب مهول؛ ولما اعتادت عيني الرؤية في ظلامه الشفاف، صرت أرى فيه حيوانات فظيعة بعضها بلا عيون وأخرى بعيون جاحظة حمراء جسيمة؛ ورأيتها تتخبط على غير ما هدى في هذا المستنقع وتتجارى وتقفز وتطير وتهبط، وكانت تمر بي وعيونها الحمراء المرعبة تحدجني ولكنني تحققت أنها لا تراني فكأن عيونها ما خلقت إلا للبشاعة والقبح والإرهاب ثم أنني رأيت بينها حيوانات شهوانية يسيل من أعضائها الصديد وتنتشر منها روائح منتنة كريهة؛ لا حياء عندها ولا استحياء. كانت تمثل أمامي وكنت كلما حولت وجهي عنها مشمئزاً نافراً من كراهتها، أشعر بأسواط مؤلمة غير منظورة تنهال علي وتمزق في جسمي وحسي.

أواه أي عذاب وأي استكراه يهون الموت عنده ألف مرة. وبعد جهد جهيد تبينت الساحل فاتجهت نحوه. كر الزمان ثم كر وأنا أكافح حتى بلغته؛ ولما أردت الخروج إليه ظهر أمامي ثعبان أسود عظيم بشعر كالأشواك الحادة. رجعت أدراجي خوفاً منه؛ وكلما كنت أحاول مخاتلته ومخالسته كان ينتصب أمامي مصوباً نحوي عينيه الثابتتين، نافثاً نفاثاً كلفح النار ماداً نحوي لسانه المشقوق المرتجف.

أعيتني الحيل ولم أعد أستطيع البقاء لحظة في هذا المستنقع القذر عندها استعذبت الموت: مشيت نحوه فمشى نحوي، ووقفت فانتصب أمامي حدق بي فحدقت به؛ بقينا مدة على هذه الحال. ثم انه وثب وأحاط جسمي بحلقاته الحديدية وضغط علي حتى كاد ظهري يتحطم، صبرت وأعملت في عنقه أظافري وأسناني ولم يثنني لسانه الجائل في رأسي ونفاثه المتصاعد من شدقه وكان كلما ازداد في إرهابي أزداد بعنقه ضغطاً ونهشا. عندها انتصب على ذيله وانقلب قلبة سريعة أراد بها تهشيمي على الأرض، ولكن الصدف تركتني أهوي على رأسه. قمت عن رأسه المبسوط وتركته يجلد الأرض بجسمه المتشنج وجريت مبتعداً. صرت أعدو كالمجنون لا ألوي على شيء وإذا بي أرتطم بمانعةٍ رطمة ردتني بضع خطوات إلى الوراء وألقتني على الأرض. كاد يغمى علي من شدة الصدمة، ولكنني تماسكت وقمت، ولما نظرت بعيني الداميتين تبينت جبلاً عظيماً من صوان مسنن لا يحيط به الطرف، عندها دب اليأس بي واستولى علي القنوط فارتميت أمامه كأنقاض مهشمة وأغمضت عيني مستسلماً للقضاء المحتوم؛ ولكن نداءً عميقاً أهاب بي صائحاً: لا تيأس.

انتفضت بعزم أشد وجلد أقوى وصرت أصعد في الجبل غير آبه للدماء التي كانت تسيل من يدي وقدمي وأظافري.

صعدت في الجبل ببقايا جسمي العاري، الجائع، العطش. صعدت في الجبل بأنقاض روحي المهمومة المكدرة الممزقة.

صعدت في الجبل وأنا أنشد أنشودتي الخالدة.

صعدت في الجبل ولما بلغت الذروة تلقتني جنيتي بين ذراعيها؛ عندها استسلمت لها وأغمضت عيني وتركتها تهدهدني في صدرها الدافئ الوثير إلى الأبد.

انتهت بعد منتصف الليل

٢٦-١٩٣٢/٥/٢٧

مــوانــا*

* - صدرت مع البلدة المسحورة في كتاب واحد. - المحرر.

١

أنت قبالتي على الجسر والليل قد غمر الكون وكسانا برداء من إبهام، فلم أعد أستطيع رؤية خضرة عينيك المعلقتين بي والمرسلتين أشعتهما الخفية إلى أعماقي.

علام أرسلت تلك الأشعة؟

أي محجب أردت اكتشافه؟

ألم تخبرك عن رعشات روحي؟

تلك الرعشات التي كنت أسعى للضرب عليها بحجاب من كتمان، أشد حلكة من الظلماء.

ماذا أسرت لك؟

أرى ثغرك يفتر عن ابتسامة طريقة لما يعهدها ثغرك السخي بالبسمات من قبل.

* * *

سنين* كابدت مرارتها بانتظار وأي انتظار. والآن من ذلك الأفق المجهول الذي صامت روحي أمامه طوال تلك السنين قد تجلي شبح عجيب.

أ ابتسامة أخرى؟

لا بأس فهي أشد عمقاً من الأولى.

أتعجبين؟

اسمعي! من ذلك الأفق، من أعماق تلك المجهولات انظري ذلك الشبح. انظريه جيداً.

ماذا ترين؟

روحين، روحين، ترفان في حالة من أحلام.

---

* هكذا في الأصل. – المحرر.

٢

سواء أنت بقربي، أم بعيدة عني في الحياة وفي الموت.

تلك البركة تلك الأشجار وتلك الفرجة التي ضمتنا بين شجيرات الورد وتلك السماء كلها كانت وستظل تهمس إلى الأبد:

أنت حييت ولن تموت.

تلك الغيبوبة الشاعرة، تلك الغشية المهدهدة، تلك الأحلام، تلك الأوهام، كل ما هو كائن من سر وإعلان كان وسيظل يهمس إلى الأبد:

أنت حييت ولن تموت.

سواء أنت بقربي أم بعيدة عني في الحياة وفي الموت.

٣

موانا... موانا!

ألا تشعرين بنغمة جديدة في هذا اللحن؟

موانا: لهجة غريبة، خفية، مدغدغة بوقار.

نغمة، زفرة، ذكرى صادقة تنتفض من مدفن الزمن وتنتشر طيفاً في ضباب. ذلك الطيف هو أنت، هو أنا، هو أنا بكل ما عندي، متقمصاً في شكله الغريب.

* * *

٤

إنني في أول الليل فلأرسم دائرتي ولأتممها ولنرسم دائرتها ولنتممها.

لا يهمني إذا اختلف المسرى لأنني كهذه النواعير التي يئن ولكنها تدور وتحيي الموات بدموعها الضاحكة. أنني كهذه النواعير بصبرها. أنني كهذه النواعير المسيرة، الفاقدة كل أمل والباكية يأسها الأبدي.

وها أنا مسير ولكنني فوق الأمل.

٥

دعيني أشيد لك ولي صرحاً جباراً لا يقوى عليه الزمن وهذا الصرح هو بنائي العبقري ولكن أُسّه الذي لا يتزعزع، وتطاوله الذي لا يحد، وأسراره التي لاتتناهى، وجماله الذي فوق كل جمال وكل ما فيه قد شيد بلحظة وأي لحظة لاأعلم عنها شيئاً. أتعلمين أن هذا الصرح...؟

٦

من أي ألوان أم من أي أضواء أم من أي أنداء خلقت عيناك هل بالإمكان معرفتها؟

إن فيهما سر الخليقة بكاملها. إن فيهما ألغازها التي لا تحل.

* * *

من أي أحلام أم من أي رموز، أم من أي ألوهية خلقت عيناك؟

هل بالإمكان معرفتها؟

إن فيهما الرعشة الأولى الأزلية.

إن فيهما اللمعة الأخيرة الأبدية.

أنهما تجل ألوهي ومنه يبسم السر الأعظم المكنون.

٧

جمعتنا غاية واحدة فأخذنا نقضي ليلتنا بالبحث وكل منا غرق سراً في ناحية خاصة به لم يشرك بها أصحابه.

وإذا بنا نقول فنشاهد شروق الفجر.

هل الشروق يتبدل ويتغير؟

نعم. كنا أربعة. الساعة الثالثة بعد نصف الليل.

وكان يأتينا نشيج النواعير بألحانة المختلفة.

نام أحدنا بعد أن اتخذ منا ملهاة وسخرية لروحه التعبة وشارك النواعير بشخيره.

وكان يرتسم في وجوهنا التعبة بريق مختلف اللون:

في أولنا صوفي، مستسلم، معتز بقوته.

وفي الثاني، قلق، ملتهب ثائر، جنوني.

وفي الثالث مجد بذكريات تافهة.

من أعالي الفندق ستة عيون معلقة بالسماء

مالي وللآخرين.

على يمين (الزهرة) التي كانت أشد ضياء وأكبر حجماً كان يمثل المحارب "دون كيشوت" السماء.

نجوم ونجوم. وكان حسي يقول: إن السماء غير محدودة.

هل الكون يحد بالنجوم؟

تفاهة.

وكانت بيوت المدينة والصحراء حولها والتلال التي تطوقه من الشرق وبساتينها وعاصيها ونواعيرها كلها تمثل أمامي، وقد تجللت بنقاب من ضباب مظلم.

الفجر الفجر...

الساعة الرابعة. الساعة الرابعة ونصف.

علام هذا القلق؟

الأول – كم هو جميل إذا تغير مسرى الكون وانتظرنا الفجر ولم يطلع.

الثاني – طريف وهل من حاجة إليه؟

الثالث – كان يجمع بقايا التبغ ليدخن.

كلنا كنا نجمع بقايانا لندخن.

أطفئت أنوار المدينة.

صوتان رنا معاً: أوخ.

حقيقة أوخ.

قوس امتد في الأفق، باهت، محسوس بصعوبة، اتسع وانبسط كإلهام فاتر.
في أديم الظلماء وعلى الأرض صارت تنشأ ظلال غير معنية.

أشجار يمتد ذيلها الأشد نوراً إلى الجبال، بقع شبه منورة ذات هندسة غريبة، بيوت حالمة.

في الناحية الشمالية بيت: ما كنت أستطيع رؤيته في النهار.

بيت منور؛ ساطع، منقوش محسوس في نفسي.

على سرير وثير وفي ظل "الأهبية" جسم عريان تنيره أشعة ذائبة تتخلل من مسام الكل جسم غض نقي، شعر صبغ المخدة بألوان الشفق.

عين ظللت أهدابها خداً شاحباً، نصف ثغر، شبه باسم، ذراع، روح. روح حالمة، قد تكون عاشقة.

على لوحة آلهة الرسم بدأت تظهر الألوان والأشكال وتأخذ شكلاً معيناً، أي عمل، أي جهد، أي إبداع.

على اللوحة وفي روحي بدأت تظهر الصورة.

ألوان تتتابع، متناسقة في الأفق، في منعطفات النهر، في الأشجار، في النواعير، في المدينة.

ألوان تعفي بنات السماء رويداً رويداً.

ها هي الناعورة بدائرتها السوداء وظلها.

ها هي دموعها المقهقهة، الشبه منورة.

وها هو نهر العاصي أظلال مختلفة الأصبغة.

وها هي الأشجار

وها هي المدينة

وها أنا على البازّزة

وها هي في سريرها

٨

ستة أيام مرت في هذا الفراق وقد يكون أبدياً؛ أنا هانئ.

بيننا مسافات، وديان، قلاع ماذا يهم؟

بيننا سد الموت ماذا يهم؟

أنت في روحي.

إن عيني الساردة في غوايتها، التي لا يقيدها شيء هي الآن عمياء عن كل شيء.

إن روحي التي لا يطمئنها شيء هي الآن واثقة.

إنك أفقدتني الرجاء لأنني صرت بك فوق الرجاء.

أفقدتني الحياة لأنني صرت بك فوق الحياة.

تمــت

علي النـاصر

أورخان ميسر

ســـريـال

١٩٤٧

الإهــداء

إلى

هذه "الأنا" النهمة التي لا ترى،

والتي دأبها إبداع مسوخٍ تقدمها

لهيكلها المليء بالمسوخ . .

لترقد بعد ذلك لحظة هنيئة

فيها استمتاع وفيها اطمئنان؛

تستجمع فيهما قواها ،

لتخلق مسوخاً جديدة أخرى .

أ . ميس

السريالية

بقلم أورخان ميسر

كلنا نعتقد، إلى حدٍ بعيد، أننا نفكر وأننا نعمل وأننا ننتصر في هذه الطريق أو في تلك. ثم نعود بعد ذلك إلى النتائج التي انتهى إليها تفكيرنا وعملنا وانتصارنا لنطمئن إليها ولنجمد هذا الاطمئنان في تمثالٍ جديد ينصبه الوهم في الكهف الكبير الذي تتصاعد من جوانبه الرطبة أبخرة الأجيال التي كان دأبها أيضاً أن تفكر وأن تعمل وأن تنتصر. ثم نعود أيضاً، كالقوافل التي لا تحيد عن الطريق، لنبحث عن ألوان جديدة نلبسها مادتنا الأولى استعداداً لإقامة تماثيل أخرى جديدة.

وفي مثل هذا النضال يمثل الفرد دوره البيولوجي ويمر العمر ما بين رغبة تتفتح وأملٍ يخبو تاركاً وراءه ظلالاً باعثة للذة متقلصة واطمئنان مبتور. وحياة الفرد، كما يبدو لنا في مجهر العلم، حياة بسيطة من حيث العمل الذي يؤديه، ومن حيث مظاهر النشاط الإنساني التي تلابس تطورات سيره من مرحلة نسبية إلى مرحلة نسبية أخرى. ويمكن التأكد من هذه البساطة بالرجوع إلى القضايا العلمية الحديثة في البيولوجيا والسيكلوجيا والسكسولوجيا حيث نرى بوضوح ما نعمله ككائنات حية تنتمي إلى نوع معين، ونرى أيضاً الحدود الوهمية التي أقيمت بين نوعٍ ونوع آخر. إن قيامنا بمثل هذه الرحلة العلمية المقتضبة يوضح أمامنا قضايا كبيرة أشغل حلها العقل الإنساني زمناً طويلاً. وإذا أضفنا إلى ذلك ما استطعنا معرفته على الضوء الذي ألقته الدراسات في الغدد اللاقنوية على سلوك الإنسان العقلي وعلى تصرفاته المختلفة في

حياته اليومية عرفنا مدى هذا النشاط وعرفنا البواعث المتباينة التي تدفعنا للزحف نحو هذه الغاية أو للانصراف عن ذلك الهدف. فنحن في سعينا وراء ما نسميه أو نعتقد أنها رغبات لها مقاييسها واعتباراتها النفسية والتقليدية؛ أجل نحن في سعينا وراءها كمفكرين وفنانين وسياسيين ورجال أعمال وصناعات.. وكآباء وأمهات، إنما نسعى وراء شيء واحد يجلله كثير من الوهم هو: تحقيق الذات الكبرى "Ego" على أكمل وجه نسبي وعن أقرب طريق يرسمه التفاعل الحادثي بالتعاون مع اصطلاحات العادة. هذه الذات التي (فرض) علينا تحقيقها لكي نتمم بذلك حلقة في سلسلة طويلة لا نهاية لامتدادها وتعانقها مع سلاسل أخرى عجيبة التشكيل.

هنا تصبح القيم الإنسانية جميعها وعلى اختلاف أنواعها أجساماً محنطة قد صفت في صناديق ثمينة جميلة النقوش رائعة الألوان.

وسط هذه التيارات العاصفة التي نقلت الفكر الإنساني من مضجع مريح كان ينعم فوقه الإنسان بحمله الهنيء الذي تجسد فيه تفكيره وعمله وانتصاره إلى حقل صخري الطرقات شائك المروج؛ وقف هذا الإنسان حائراً مشدوهاً يتأمل رماد لذاته تذروه الرياح ما بين قدميه والأفق البعيد...

كان لا بد أن يقول شيئاً. فقاله. وكان الفن.

وهذا الشيء الذي كان الفن قد صنف كما صنف أي شيء آخر قيل. ووزع في مذاهب ومدارس واتجاهات.

وأعم ـ أعني وأبرز ـ هذه المذاهب التي صنف فيها الفن هي الواقعية؛ واللفظة ترجمة للاصطلاح الفرنجي (Realism) والرمزية (Symbolism)

والتعبيرية (Expressionism)، وما وراء الواقعية (Surrealism).

والواقعية في الفن هي ضبط الصور العقلية التي تتكون بنتيجة حالات وجدانية تستجيب فيها النفس لمؤثر خارجي بعينه، ونقل هذه الصور إلى الخارج عن طريق اصطلاحات واضحة سبق أن وضعها أو ألِفها الذهن الإنساني. وتختلف

الرمزية ــ ولو أن أكثر الناس يرى غير هذا الاختلاف ــ عن الواقعية في التجاء الرمزية، في النقل، إلى اصطلاحات غير واضحة كل الوضوح يستعير صاحبها بعضها من المعاجم التقليدية ويبتكر بعضها الآخر في شكل يرى فيه هو وضوح الصورة عند نقلها من مخيلته إلى مخيلة فردٍ آخر.

والمذهب التعبيري ــ وهو مذهب حديث في التصنيف ــ لا يرى أي ضرورة للتقيد بقواعد الاصطلاحات المألوفة. كل ما يهمه هو أن ينفذ إلى الزاوية التي تقبع فيها الهيولى الفردية، وأن ينقض عليها انقضاضاً صاعقاً فيه العنف وبعض البشاعة ليريك بعد ذلك نتيجة هاتين العمليتين، عملية النفوذ وعملية الانقضاض في خطوط منتفخة وألوان دسمة.

أما ما وراء الواقعية "السريالية" فإنه مذهب ــ إن صحت النسبة ــ يختلف كل الاختلاف عن الواقعية والرمزية والتعبيرية. هذه المذاهب التي يظهر فيها بوضوح أثر الترابطات الذهنية بالحالات الوجدانية كما يظهر فيها أيضاً أثر المنطق والجهد في نقلها مجموعات صورية تامة التكوين تحدث عند صاحبها بعد تفريغها في قوالب ملموسة شعوراً من الارتياح والانتصار.

إن السريالية "مذهب" يعود في نشأته إلى سنوات قليلة سبقت نشوب الحرب العالمية الأولى. وبدأ هذا المذهب الحديث سيره في محاولات تحررية في سبيل التخلص من ضغط كابوس المقاييس الفنية الذي كان جاثماً جثوماً متسع الأطراف في أواخر القرن التاسع عشر في أوربا. هذه الفترة التي كثر فيها عدد الاتجاهات الفنية والأدبية في أوربا واصطدمت التيارات الفكرية المتدفقة من ألمانيا وإيطاليا وأميركا وبريطانيا بصنوفٍ من الأدب الخفيف الذي كان يسيطر وقتئذٍ على الذوق الأدبي في أوربا الوسطى الغربية. فقد وجد بعض الفنانين من شعراء وموسيقيين ورسامين أن الطريقة التي كانوا "يصنعون" فيها إنتاجهم الفني ينحصر في شمول حالات وجدانية وفكرية تكاد تكون عادية في مادتها الأساسية وخطوطها الجوهرية،

وإن للذهن أثراً ظاهراً فيها يدنيها من الإنتاج العلمي والفلسفي. فعمدوا إلى محاولة جديدة جريئة أرادوا فيها أن يتم تسجيل ما يرد إلى مخيلتهم من صور إبداعية كما هي تماماً بصرف النظر عن جمال هذه الصور أو قبحها وعن مطابقتها للمقاييس الاجتماعية أو تنافرها معها، على ذات الطريقة التي يسجل بها المحللون النفسيون الخواطر السائبة أو أحلام اليقظة. وكانت هذه المحاولة قائمة على اعتقاد هذا الفريق أن الفن الصحيح هو الذي يرسم الانعكاسات التي تتولد نتيجةً للتفاعل القائم بين نضالنا الخارجي وذاتنا المجردة، بعيداً عن دائرة المنطق بعيداً عن التأثر بأي توجيه فكري. فبرزت الدادية "نسبة إلى دادي Dadi" تشق لتيارها خطوطاً مشوهة هوجاء واستمرت كذلك حتى أخذت الأوساط الأدبية والعلمية في أوربا تعير اهتماماً كبيراً للفرويدية. – مذهب الدكتور سيكموند فرويد – وأخذت نظريات هذا العالم الكبير في التحليل النفسي والأحلام والغريزة الجنسية ومظاهر النشاط الفردي وارتباطها بالطاقة النفسية "Libido" تنتشر بين طبقة المثقفين من كتاب ونقاد وفنانين فوجد الفريق المجدد والمخلص في كل ذلك تشجيعاً له على المضي في الاتجاه التحرري الذي خطه لنفسه ومادة علمية تدعم مذهبه الجريء. وراح المتحمسون المخلصون منهم يصرخون صرخاتٍ عميقة صادقة قائلين "ليست قضية الفن قضية اطمئنان أو ارتياح مجرد ولو كان ظاهرها يوهم ذلك... مالنا ولهذه الأشلاء نحاول أن نصنع منها باقات من الزهور العابقة.. دعوا ذاتنا ترتاد عارية هذه المروج التي تنتفض بالربيع ويتمايل سطحها المرن الجميل كرقصة رائعة في معبد قدسي.. دعونا، دعونا ترتادها ملامسنا وقد تعرت من الأربطة التي تحز فيها، ودعوا هذه "الأنا" تنطلق وتمرح بكل ما فيها من قوة استمتاع وبكل ما فيها من رغبة مخنوقة تعكسها على جدران النفق الأزلي ظلالاً ندية لدُماها التي لاحدود لانصهارها وتمثلها في صور وأشكال واهتزازات تغريها ثم تسكرها سكرةً فيها أحلام وفيها آمال وفيها انطلاقات تجمد كلها كأقزام حائرة باسمة مطمئنة..

وتعددت هذه الصرخات الصادقة وشجعها فريق واع من النقاد في فرنسا والولايات المتحدة بصورة خاصة حتى نمت المحاولة الجديدة وصارت الفكرة الناشئة عالماً واضح الحدود مميز الأشكال سمي بالسريالية. وولد لهذا العالم رواده من نخبة رجال الفن في الرسم والشعر والموسيقا. وأصبح مفهومه: ما يرسمه العقل الباطن باصطلاحاته الخاصة من صور يمثل بها واقعه الفردي ممزوجاً بحنين الأجيال التي تحيا فيه.

وتفسير هذا التعريف على ضوء التحليل النفسي "Psychoanalysis" يبدو يسيراً لا تعقيد فيه:

إن الإنسان مخلوق يعيش بوحي من غرائزه التي يشترك في عدد كبير منها مع غيره من المخلوقات. وهذه الغرائز ترمي إلى غاية هي المحافظة على كيان ــ ولنقل ذات ــ الكائن الحي. كما أنها ليست جديدة.

أعني أنها لا تختلف في واقعها عند جيل بعينه عن واقعها عند جيل آخر تقدمه. وهذه الغرائز في دفعها للكائن الحي للمطابقة مع تغيرات البيئة الفيزيكية وتوابعها التي تحيط به تصطدم بعقبات تكتسب من اصطدامها بها خبرة يبقى أثرها في الكائن الذي تتمثل فيه. غير أن الغريزة بوعيها الخاص والصدمة التي تستهدف لها، مع الأثر المتولد منها.. كل ذلك يتقطر ويتساقط في الخزان الكبير الذي ندعوه بالعقل الباطن. هذا العقل الذي يحاول دائماً أن يوجد تلاؤماً بين جميع العناصر التي تعيش متجمعة فيه. وتنفرد إحدى المحاولات بتمثيل حالة إنسانية عامة تنبثق من الفرد وكأنه كل ما مرّ وكل ما سيأتي من أجيال. ويصدف أن يقذف العقل الباطن هذه الحالة كما هي تماماً إلى دائرة الشعور فيسجلها الفرد كما هي أيضاً وهذه هي السريالية.

وقد تنقذف الصورة من اللاشعور في حالة نفسية يكون فيها الانتباه غير شامل لها كل الشمول. ومن القضايا المعروفة في السيكلوجيا الحديثة أن تمركز الانتباه ــ أياً كان نوعه ــ في بقعة حسية أو ذهنية لا يستمر إلا لحظة أو لحظات

قليلة. والصورة لا بد أن تحدث في المجموعات العصبية العليا استجابة خاصة يبقى فيها أثرها وانطباعها واضحين بينما تبقى الصورة ذاتها، في حدودها التكونية، أشكالاً غير واضحة.

فإذا جاء صاحبها ليسجلها، بالرسم أو بالكتابة أو بأية طريقة أخرى، لم يجد لكيانها الخطوط الهندسية ــ من ألفاظ وأشكال أو ألوان ــ مع أن الأثر والانطباع اللذين تركتهما في مجموعاته العصبية العليا حالة واضحة كل الوضوح. هنا يضطر لمعالجة الوضع بطريقة أخرى. فيعمد أولاً إلى الخطوط الهندسية ــ الألفاظ أو الأشكال أو الألوان ــ الباقية التي استطاع الانتباه التقاطها وتثبيتها في الحافظة ثم يلجأ إلى اصطناع خطوط هندسية جديدة يسكب فيها انطباع الصورة الحي الذي يلمسه في ذاته بوضوح. فإذا تم له ذلك خرجت الصورة إلى الوجود في أسلوب هو مزيج من السريالية والرمزية؛ لأن أثر الذهن أصبح ظاهراً فيه في الالتجاء إلى المعجم التقليدي في التفسير والتشبيه والإسهاب!

غير أن هذه الطريقة في تسجيل ما ولده اللاشعور باصطلاحاته السريالية ليست سريالية محضة كما أنها تمت بالوقت ذاته إلى الرمزية بروابط واضحة. إلا أن الصبغة السريالية تطغى عليها لأن الصورة قد ولدت في الأعماق نتيجة تفاعل أقصى المعرفة الإنسانية بالحنين الذي لا ينتهي امتداده في الحلقات البشرية.

ولما كان لا بد من تصنيف كل ما قيل في مذاهب ومدارس واتجاهات

فإن أقرب مذهب يمكن أن تصنف فيه هذه "المحاولة" هو المذهب الذي رأينها أن ندعوه بالفرنجية "Para – Surrealism" وقد يكون من الصعب ترجمة هذا الاصطلاح إلى العربية. إلا أن الاصطلاح العربي "شبه السريالية" يعبر كثيراً عن التحديد الذي تتضمنه التسمية الفرنجية. وآمل أن يكون قريباً اليوم الذي تصبح فيه لغتنا العربية لغة علمية تامة فلا تعود الحاجة إلى الاستعانة بالتعابير الفرنجية عندما نكتب في أيِ موضوع يتناوله الفكر الإنساني من وجهة عامة أو خاصة.

وفي المجموعة التي يتضمنها هذا الكتاب عدد من القطع التي هي من شبه السريالية. أما التمييز بينها وبين القطع السريالية فلا يحتاج إلى عناء ذهني كبير.

وقد حاول بعض المنتجين الفنيين في الرسم والكتابة في الغرب أمثال "Andre Breton" و "Toni Del Danzio" و "Nicolas Kalas" و "Lionel Abel" و"Leonora Carrington" و "Kurt Seligmann" و "Mary Wykeham" و"Picasso" و "Hughes – Stantas". أن يحطموا بعض القيود التقليدية في الرمزية وأن ينطلقوا نحو عوالم جديدة اعتقدوا أن شمسها هي غير الشمس التي ألفتها أبصارهم والتي ترسم أنصاف دوائر مكانية يوهمها الذهن التقليدي دوائر زمنية تامة، في نقاطها المتلاصقة رؤى مهدٍ يبتسم وقبر يرتعش. فكان ذلك منهم محاولة فيها بعض التوفيق وبعض النجاح في نقش خطوط متشابكة قد أطلق التقاء بعض منها ببعض آخر مجالاً لتكوُّن حلم عالمٍ جديد.

إلا أن هذا النوع من الإنتاج الفني الذي سموه خطأ بالسريالية لم يكن سريالياً في حدود التعريف الذي وضعناه للسريالية على ضوء البحث العلمي من جهة وواقع الإنسان من جهة أخرى، هذا التعريف الذي جعلنا منه عالماً خاصاً واسع الآفاق سحيق الأغوار، تنحدر إليه النتائج الفلسفية التي ينتهي إليها العقل عن طريق الدرس العلمي الشاق، وتنحدر إليه أنواع الاختبارات الفردية كما ينحدر إليه أيضاً ذوب الزمن وذوب الألم واللذة في حدودهما التجريدية. وينصهر الكل هناك مع الحنين الأبدي الذي يربطنا بالأرض ومع تمرد الغريزة التي لا تعرف السنين ولا تفقه الزمن. ويتبنى اللاشعور هذه المادة المصهورة ويتعهدها بالصقل والتهذيب بأساليبه الخاصة؛ ثم يقذفها إلى الوجود سلسلة من قصص تنتفض ظِلالاً للفرد في مهده ولحده وللإنسان في كهفه وحقله ومخبره وفي ناطحات السحاب.

أما سريالية أندره بريتون وجماعته فلا تخرج عن كونها آثاراً ذهنية مباشرة تحيط بها خطوط هندسية من الرمزية المتطرفة. وهي لا تفرق كثيراً عن جميع

أنواع الإنتاج الفني الذي عرفه العالم من هومر لشكسبير وبيرون وفرلين ومن الجاهليين إلى شوقي وأشباهه. فبريتون بدلاً من أن يقول "أن الحنين الوطني يقتات بالدماء التي تعصرها حفنات الرمال التي عربدت فوقها المعارك" كما يقول شوقي وأشباهه مثلاً فهو يقول ــ مثلاً أيضاً ــ نفسي ظمأى لظلال عروق الصحراء. إلا أنه لم يخرج في ذلك عن محاولة اقتضاب الفكرة التي تعيش في حواشي وعيه اليقظ لكل ما يحيط به من مؤثرات خارجية.

إن أصحاب مثل هذا الإنتاج الذي عرفه العالم منذ القدم لا يتطلبون من الخواص العقلية عدداً أكبر من العدد الذي يتطلبه أي بناء ماهر.

وحسبنا لنتأكد من صحة ذلك، أن ننتبه انتباهاً جدياً إلى مختلف الأحاديث التي يتبادلها الناس في مجالسهم وأماكن لهوهم وزياراتهم وسمرهم وفي وحدتهم وأن نسجل الطريف منها تسجيلاً مضبوطاً. أننا، لا شك، نجد في ما نسجل بضاعة قيمية في وسعها أن تصبح (إنتاجاً فنياً) إذا صنعنا لها خطوطاً هندسية مهذبة منمقة، وبالغنا في هذا الصنع والتركيب مبالغة لا بد منها في إحداث حالة دهشة لاشعورية عند المستمع أو المشاهد.

وبمثل هذا الإنتاج تزخر المكاتب في مختلف أنحاء العالم وبمختلف اللغات.

وأعتقد أنه من المستحسن للفرد عند درسه للسريالية وعند اطلاعه على مقطوعات سيريالية أن يطيل التفكير قليلاً وأن يحاول استعادة ما في حافظته من معرفة علمية جدية.

* * *

هذا ما أراه، وهذا ما يمليه عليّ منطقي العلمي. قد أكون مخطئاً وقد أكون مصيباً.

أ. ميسر

علي الناصر

شفة..

أشلاء من زهرة ممزقة،

مشوهة لم يبق من تناسقها

إلا قطرة دم

ترنو إلى عين.

* * *

زوبعة من ريش.

ثلج.

ريش حلّق في الأعالي؛

فراغ مطلق

أنة لا تنتهي.

* * *

وشم لا حيلة فيه،

أنت تسير وهو يسير،

امتزاج!

استغاثة صامتة..

عين محترقة

* * *

عمود فقري

بالٍ جديد.

مؤرخ نبي؛

قطرات وضيعة،

صبا،

سراب.

* * *

صدر يتقوس ببطء

زهر يزيد بالاحديداب

نمو متقابل

ضحكة مزدوجة

* * *

شجرة الدلب

شلال هائل

غنج في الأعالي

أطفال

دودة

سنونو تعشعش

* * *

هيولى ثلاثةٍ

واحد.. وثانٍ؛

الثالث:

يتيم.

أم تشتهي ولا تجاب

فقاعة تنفجر وتتكور

شعاع من عقم.

* * *

قدح مجنون

شارب ورع

ترياق

شاهدة قبر

* * *

دم في الأفق

دم في شفة

حمرة

بدء

زرقة مجنحة

وشاح يخفق

فك عجيب

* * *

بقايا ألواح محطمة

أمواج ثائرة

رعود.. بروق

ثورة في السماء

ثورة في البحر.

* * *

بنات البحر على الساحل

منشورة الشعر
شبابة
حبور أبله
بقايا ألواح محطمة
زهرات عائمة
تضرع إلى السماء.
أرواح تتعارك

عظام تتقارع
ضوضاء صامتة
سكون رهيب
أرواح تتلاطم
دموع صادقة كاذبة
نسيان.

* * *

فراش
وسادة.
رأس لا تستريح،
عين حولاء.

* * *

نَفس خافق
يتمرغ في التراب.

ريشة رأس تصعد إلى السماء؛

سهم!

ذيل طاووس يحترق.

* * *

إغفاءة مضطربة؛

حلم يزهر.

حيرة.

إغفاءة صماء،

حسرة تتكرر وتتكرر..

لا وعي.

* * *

جفن مثقل

رؤية مشوشة..

سعادة،

الضباب،

إله باسم.

* * *

ثلاث دقات،

دقة!

عرف،

سكر،

قبر شفاف

حياة.

* * *

فرسان والبريد،
مرحلة انتهت؛
تبتديء الأخرى.
أربعة حوافر،
جدة
أربعة أطفال.

* * *

قدمي تمشي
تمشي لا أثر لها،
تنتعل اللهب،
تسرع وتسرع
لا سبيل للإبطاء.
سراب في متناول اليد
أبعد من البعيد؛
قدم تسرع ملتهبة
ذرة من رماد.

* * *

جبل قاف نهاية الدنيا؛
جبل قاف كأس من خَدر.
ياسمينة قاحلة، كفن، فور من دم..

جبل قاف،

خذي وعار..

رحمة لا تتناهى.

جبل قاف النهاية.

* * *

أنا في طريق لا أتميز له أولاً من آخر؛

ولكنني أساق فيه.

أقذار وأوحال

أشواك وعثرات

أوحال وأقذار تتراكم بالخطى.

الخطوة في البدء هوجاء رعناء

الساق لا تشعر بالقذَر.

* * *

الأفياء والواحات تتجسم وتتجسد،

العين تتقلص؛

لقد عقد الوهم

وقبضت كلتا يديّ على العدم الخالق.

* * *

يدان ضارعتان مرتجفتان

تحاولان أن تتعلقا برداء الفجر الهارب.

جبان.

أظفار ناشبة،

قطرات من دم..
دميةٌ رائقة حمراء

* * *

عصا، مسمار، حرف.
حدث يجترّ
قِدَم سحيق؛
فقاعات ذات ألوان أبدعها الضجر
رعشة..
موت باسم.

* * *

من خلال الآباد نغم مرتعش
بسيط كابتسامة، عميق كالوهم، مظلم كقبر،
نغم يستيقظ ويغفو؛
قلب في امتداد الكون
صغير كفؤاد زهر فان.

موسيقا تجلجل وترعد وتثور،
موسيقا كأنفاس طفل حالم؛
جِنّة عابسة وقورة،
روح لا تفنى.

* * *

أنا.. أنا..

نيزك

ذرة فحم

إله مبدَع مبدِع

عفن

قنوط

منفث عار.

* * *

وقف الزمن

لا آلاف وخزاتٍ دامية،

العين تحيط بالكون

القلب نبت نديّ

أشلاء

* * *

ملعقة تجرف..

تكيل الزمن،

ملعقة جائره

* * *

أنا الراكع بإخلاص وصدق.

حياة تتقطر،

دموع سوداء،

أنا القدّاس!

حفيف
ابتهال؛
استغاثة من أعالي المآذن،
شهيق لا تسمعه إذن الأرض.
* * *
فرعون
أزل
كليوباتره
من جانبي الرواق
صدى ناي سحيق.
صحراء.. صحراء..
نغمة من جليد
جليد أبدي
مومياء!
* * *
جهنم!
شهيق
زفير..
سراب قهقهة
سرير طفل
* * *
زهرة ضئيلة لا يراها إلا مجنون

مر بها هانئة
لأن النور قد جمَّلها بما تشاء،
عروسة لا لعريس.
قلبها الصغير الأبيض
وقد حفت به هالة من زرقة السماء
يرقص جذلاً حتى في العاصفة.

العاصفة تهدم القصور
النار تأكل المدن
الحرب تلتهم البشر.

الزهرة الضئيلة
ذات القلب الأبيض والهالة الزرقاء
تبسم لا عن شعور.

* * *

قلب يؤكل
دود محظوظ
مرمر فخم
كتابة مدلة

عمال يكدحون
غبار يعج

سبيل أحياء

* * *

واحد أيار

هدأة من جنون

قفص

استطالات تكوى فتتقلص

واحد أيار

دهر

ضجر

جماد ناطق

جليد

غفوة سمحاء.

* * *

دموع مغلفة

غلة تنقع

قشرة جد وحشية

سعير..

عيون

جداول

جنة.

دموع مجلجلة

دموع محترقة

جهنم.. جنة..

عين ذات كوتين!

* * *

شعر،

تيجان،

نبضان حياة

زهوّ ألوان

نغمة مكتومة

شعر

نشوة مسّ.

* * *

لبدة أسد..

كمالٌ لنقص.

وجه ظلمةٍ شبه شفافة؛

عين تبص

نور يتراجع

وثبة إلى الأمام

أورخان ميسر

نهر تعانق ضفتاه مدّ البصر،

مجراه:

أوحال داكنة

تناغم في انسيابها الأصداء المرتدة من

المصب غير المنظور.

جذوع أشجاع.. بقايا عظام

يرقصها التيار.

الأصداء:

بقايا آهات وقهقهات.

* * *

ارقصي أيتها الشعلة،

وليعج فضاؤك بالأخيلة المرتعشة.

إن الزمان، اللحظة، في غفوة

ارقصي.. ارقصي..

ارقصي قبل أن تهزأ يقظة الزمان

من حلمك الهزيل.

* * *

رمال.. رمال

الظمأ يبتسم

أشلاء سير

عناق..

الصحراء تبسم.

* * *

"مهداة إلى السيدة م.س"

ظل تتعثر أقدامه المنهوكة

وسط ضباب تحجرت أنداءه؛

ظل تتلقفه أيدٍ مشنجة..

ثمل!

عيناه المحنطتان قيد الأفق،

يداه المرتجفتان تعبثان بالضباب،

قدماه.. قدماه المثلوجتان

مشدودتان إلى الأرض.

* * *

رؤى.

فوق مهدها المليء بالدموع

تحنو انتفاضة عين

تحاول أن تتفتح

لفجرٍ عقيم.

* * *

نفق.

جدران كاللانهاية.

أفواه؛

حلقات تلتهمها حلقات،

يد حلقةٍ

تتقلص وتتقلص وتتقلص..

* * *

نغم شارد،

تمثل في دمعة.

قطرة خمر؛

هدير يرقص!

* * *

"مهداة إلى ذكرى ش.م"

بسمة تعرق؛

في أهداب جفنها المغمض إلى الأبد

أحلام بلهاء

في نشوتها:

تحاول أن تلد وتلد..

* * *

حجَّر النور ناظريّ

في لوحات لخطوطها بداية ونهاية.

إلا أن هناك أضواءً تمردت على النور

وجعلته ينتفض في تخطيط أقواس قزح

لا تنضب ألوانها المتفجرة من حنين

الأرض.

هذا الحنين الذي دأبه أن يلتقط من
جوانب أمسي
بقايا صور وتماثيل
أحالتها السنون ألیافاً باهتة جافة،
ليجمدها في رؤاي
باقات نضيرة عابقة الأنفاس.
* * *
ثاكل
في دنياه:
احتضار لكل ما رسمته قدماه الحافيتان.
غمامة داكنة،
سحابة ندية،
صحو يحتضن الأفق.
* * *
بصيص
وقع خطوات
ظلال؛
نور يغمر الكون.
* * *
كان اليوم فاقد الحس
كأنه في غيبوبة الزمن الطاغي.
وكانت العاصفة تلتهم وقع خطواتي

الثقيلة فوق الممر المظلم.

سرت.. سرت طويلاً؛
ولم يكن للزمن في خاطري
إلا بقايا ذكرى هادئة
تعرّى هيكلها من الخطوط والألوان.

وكان المكان مغموراً بظلام صامت.
إلا أن عينيّ كانتا تريان وكأني في وضح النهار،
وكانت قدماي تسيران وكأنهما قد
ألفتا الطريق.

ولاح فوق الحفرة التي ترقد في جوفها ذاتي
صبايا يرقصن في حلقات لا حصر لها..
وكان يشق هذه الحلقات
صفوف من عجائز جلسن يصفقن في
حماسة ولذة؛.
صفوف لا نهاية لها..
وعملت يدايَ،
يداي المحمومة دون كلل..

كانت الحفرة ذاتها!

إلا أنها بدأت أعمقَ مما صنعته يداي قبل أجيال
وكانت الأنفاس ذاتها!
أنفاس الرواسب التي خلّفتها سيول
الأيام بين هيولى التراب.

هناك.. هناك في زاوية الحفرة،
كان:
مسخ ذو أطراف عديدة شُدت كلها إلى
جوانب الحفرة بشرايين شفافة
يسيب فيها سائل غريب اللون
يغلي،
تتصاعد من فوهة رأس المسخ
أبخرة مسكرة.

* * *

ثملتِ في رؤاي
نجمةً كلها عين،
تشع ألواناً كاللحن؛
برقعها الشفاف... رداؤها الفضفاض
تلامس أطرافهما
نثارَ الغيوم.

والفضاء في صمته القدسي

نشوانُ
إلا من ومضات لاهثة
تنطلق من الفينة والأخرى
من نيازك تمر في حلمه.

تمثال رائع
يحمل رأساً كلها عين؛
دخان.. بريق يعمي البصر.. ضوضاء..

سديم يسبح في صمت.

* * *

حدباء
في فقرتها العابسة
عين من زجاج.
الأم:
مأتم صامت.

فينوس
في برقعها النابت من جسدها الحار،
عين من زجاج.
الأم:

مأتم صامت.

* * *

قافلة،

لا ألوان لا حدود؛

قافلة تنتفض للمسات الخالق.

الخالق، اللوحة، ألوان

غفوة..

القافلة تجتاز اللوحة

الريشة تستيقظ

لا ألوان لا حدود.

* * *

مصباح

موسيقا لا تنضب ألحانها.

إصبع مشنجة

تخط في فضاء البصر

أكفاناً رائعة الألوان

* * *

شذا

تجمّد في رئة؛

ليس من عطر.

نسمة من صحراء

تعجّ فيها شموس،

عبق يتفجر.

* * *

جموع

سيل لزج

يخطو ويتثاءب.

التفاتة ذات اليمين وذات اليسار

عذارى

رؤى تبلور فجرها

نعمى!

* * *

تيار،

لا طاقة للتدفق.

زهور على الضفة

عين حولاء.

ولادة

ضمة عدم

تيار يتدفق.

* * *

ذكرى،

ظلال جثة مزقتها يد عابثة.

كهوف الأحلام ذات الأجواء العابقة

بالبخور،

طيوب..

راقصات المعبد المدفون

ينشرن الذكرى.

* * *

قد تبدو هذه المقطوعات بخطوطها الغريبة وألوانها المبهمة الغامضة ضربا من العبث في منطق القارئ الذي لم يألف ذهنه غير الوضوح التقليدي وغير السرعة في الترابط الحُكمي. وليس بعيداً أن تتداعى في ذاكرته محفوظات قياسية تدفعه إلى الاعتقاد أن مثل هذه الألفاظ والعبارات التي يستعملها السريالي في تسجيل "أخيلته" والتي تبدو وكأنه ليس من جامع بينها، ألفاظ وعبارات تكاد تكون عادية في حدودها الذاتية الضيقة. وليس بعيداً أيضاً أن يدفعه مثل هذا الاعتقاد إلى اعتقاد آخر يوهمه أن في وسع أي فردٍ آخر **أن يصنع إنتاجاً سريالياً**. فحسبه، مثلاً، أن يقول "منضدة.. يد تسير.. ضباب عابس" ليؤكد لنفسه أو لغيره صحة النتائج الترابطية الحكمية التي انتهت إليها محفوظاته القياسية.

إن الكتابة في منطق أي فرد أمي لا تزيد عن كونها خطوطاً متشابهة لبعضها استطالات ولبعضها الآخر انحناءات. وقد لا يستطيع مثل هذا الفرد أن يفرق بين كتابة عربية أو إفرنجية أو عبرية أو أرمنية. لأنها، كلها، في اعتباره مجموعة خطوط هندسية تتشابه في استطالاتها وانحناءاتها. وقد تدفعه الرغبة اللاوعية في التفوق التقليدي إلى محاكاة ما يصنعه الذين يعرفون الكتابة. فيحاول أن يرسم بعض الكلمات التي يختارها بالصدفة فيرسمها رسماً يرى فيه، بالنسبة إلى منطقه هو، مطابقة صحيحة للأصل الذي

رسم عنه. وقد لا يستطع أي فرد أمي آخر أن يميز بين الأصل وبين هذا الرسم. ولكن الأمر بالنسبة لفرد آخر خَبرَ بعضُ حواسه القراءة والكتابة وترابطت في حافظته معاني الاستطالات والانحناءات فإنه من السهولة أن يميز بين الجد والهزل.

إن هذا المثل الساذج يغني عن كثير من الإيضاح العلمي في الإجابة على سؤال قد يولده منطق القارئ الذي **لم يألف ذهنه غير الوضوح التقليدي وغير السرعة في الترابط الحكمي**. هذا السؤال الذي يمكن أن يكون مضمونه "إذا كانت السريالية في الكتابة **تبدو** مقصورة على الجمع بين ألفاظ وعبارات لا ترابط بينها، بصرف النظر عن استثارة هذه الألفاظ والعبارات لجو انفعالي خاص أو عدم استثارتها لمثل هذا الجو، فكيف نستطيع التمييز بين قطعة سريالية وأخرى تعمد صاحبها بدافع الجهل أو المجون اصطناع السريالية في الكتابة؟"

والسريالية في الكتابة تشبه من وجوه كثيرة ما يحاول تحقيقه، اليوم، رجال العلم في طرق تغذية الإنسان. أنهم يحاولون، وقد نجحوا في ذلك إلى حد بعيد، أن يجعلوا حبة في حجم الحمصة أن تعطي الفرد العادي ما يحتاجه جسمه من الحيوي (ج) مثلاً دون أن يضطر إلى إرهاق جهازه الهضمي بتناول ثلاث أو أربع برتقالات؛ وأن تمتعه الحبة ذاتها بذات الإحساس الذوقي الذي يولده طعم البرتقال المعروف.

غير أن الفرق بين استساغة الذهن للسريالية واستساغة حاسة الذوق وارتياح أعصاب المعدة وعضلاتها للحبوب المدسمة هو كالفرق بين الدماغ والمعدة ذاتهما!

إن الكلام المنظوم المقفّى في جميع اللغات على اختلاف أنواعها والمسمى شعراً ليس في الواقع العلمي إلا كلاماً جميلاً له اهتزازاته التوقيعية ولوحاته المغرية التي يستمتع بها الفرد استمتاعاً قوامه ميكانيكية العادة وترابطُ أخيلة الشوق الجنسي في أشكالها المستترة الوقورة.

إلا أن هناك نواحي أخرى نلمحها من خلال كل ما في كياننا من وسائط اتصال بالحياة في أشكالها المنوعة ومراحلها المختلفة، نواحي نرى فيها هذه

الأخيلة وقد تعرت من وقارها، ونرى العادة وقد ارتدت تدفقاً لتيار لا يلقى مقاومة في الخلايا العصبية، ونرى مثلنا العليا، ورغباتنا الجليلة، وآمالنا الحلوة، وطموحنا بما فيه من استثارة وتفريغ، ونرى نضالنا، وكرامتنا الفردية والإجماعية، وأطفالنا الذين نفخر بقذفهم إلى الوجود.. نرى كل ذلك وقد أصبح جوهراً واحداً يشعرنا شعوراً واضحاً دقيقاً بارتباطنا وتماثلنا شكلاً وانطلاقاً وهيولىً مع كل كائن ينمو ويتوالد ويتحطم ويتحول على هذه الكرة الكبيرة. ونرى أيضاً أننا، بالرغم من كل ذلك، لا نستطيع أن نطمس في أعماق خلايانا خطوط السراب المبعثرة في زواياها لهذه المجموعات التي أصبحت جوهراً واحداً.

هنا يندمج الإله المبدِع والجنين المبدَع فيؤلفان كياناً واحداً ونظرة واحدة وشعوراً واحداً وحياة واحدة تمتد ملايين السنين.

وبين خطوط هذا السراب وفي ظلال المعرفة الممتدة ملايين سنين مكانية أيضاً يسرح هذا الكيان الموحد ناثراً هنا وهناك خطوطاً مبهمة غامضة لم تحنطها السنون ولا قيَّدها امتداد البصر الفردي.

هذه الخطوط الغامضة المبهمة هي التي تكوّن مادة الإنتاج الفني الصحيح في الشعر والرسم والموسيقا.

* * *

كان الدكتور علي الناصر، حتى زمن قريب، في جملة الذين يأكلون البرتقال بكميات كبيرة[1] بدافع العادة والاستمتاع الآلي.

غير أنه كان سريع الاستجابة لتطور الفكر الإنساني وكان عقله سريع التحول من الشكل التكعيبي إلى الشكل الانسيابي، فاستذوق الحبوب المدسمة وعاف كميات الألياف التي ترهق أجهزة الجسم المختلفة. فاستطاع أن يقول في كلمات قليلة ما كان يقوله بالأمس في سطور كثيرة.

---

(١) راجع مؤلفاته: "قصة قلب" "الظمأ" و"البلدة المسحورة" و "الأغوار".

نظم الدكتور المقطوعة التالية المؤلفة من ٧٦ كلمة في عام ١٩٣٧:

قـــال لـــي القلـــب ســـاخراً فـــي المـــساء
قـــم نـــضع زهـــرة علـــى قبـــر حزنـــك
ذاك حـــــق الوفـــــاء، إيـــــه لمـــــاذا
حجبـــــت بالـــــضباب آفـــــاق عينـــــك؟
لـــــم أجبـــــه. فقـــــادني مـــــذهولا
ودرجنـــــا علـــــى الرفـــــات طـــــويلا
أضـــــللناه؟ لـــــست أدري ولكـــــن
تحـــت هـــذي الألـــواح إنـــي دفنتـــه
هـــا هـــي الـــسروة التـــي غرســـتها
أنملـــي فـــي التـــراب حـــين لحدتـــه
انحنينـــا علـــى الـــضريح لنلقـــي
زهـــرة مـــن ولائـــد الأضـــواء
فتعـــالى مـــن جانبيـــه فحـــيح
بـــارد كارتعاشـــة اســـتهزاء
نـــشر الحـــزن وهلـــة فـــي المـــساء

وكان منه هذا تسجيلاً لحالة شعورية عابرة. غير أن الجو الذي ولده تسجيل هذه الحالة وتداعي الحالات الفكرية والوجدانية التي أعقبت هذا التسجيل على مراحل لاضرورة لضبطها ضبطاً علمياً دقيقاً في رسالة مقتضبة مثل هذه؛ كل ذلك قد انحدر إلى اللاشعور الذي صهره وتبناه وقذفه في عام ١٩٤٧ كما هو في قطعته السريالية المؤلفة من ١٦ كلمة:

شفة

أشلاء من زهرة ممزقة

مشوهة لم يبق من تناسقها

إلا قطرة دم

ترنو إلى عين

وفي عام ١٩٣٩ نظم مقطوعته التالية المؤلفة من (١١٣) كلمة:

ســــــكون وأيــــــن لقلبــــــي الــــــسكون
وفيــــــه العواصـــــــف لا تنثنـــــــى
ســــــكون أهدهــــــد غمــــــي بــــــه
كقبـــــر الغريـــــب بقفـــــر هنـــــى

فـــــلا الأم تنثـــــر فيـــــه الزهـــــور
ولا الركـــــب يـــــسري بأرجائـــــه
ولا مـــــن (نكيـــــر) عبـــــوس دقيـــــق
يـــــسجل منـــــسيّ بأســـــائه

حيـــــاة تحـــــرّكُ منـــــذ الوجـــــود
بـــــسوطِ أصـــــمٍ عظـــــيم عمـــــي
تحـــــرك لا خيرهـــــا يرتجـــــى
ولا الـــــشر طبعـــــاً لهـــــا ينتمـــــي

هنـــــــاء إذا مـــــــا قبلـــــت الهنـــــاء
قـــبـــصير وفيـــــه شـــــقاء مديـــــد
هنـــــــاء أدرب نفـــــــسي عليـــــــه
وأقـــــبض كفـــــي وكفـــــى حديـــــد

وأقـــــبض كفيـــــه عليـــــه بحـــــرص
وأفـــــتح كفـــــي فمـــــسخاً أرى
يقهقـــــه مـــــن غفلتـــــي هازئـــــاً
فأمـــــشي ومـــــشيتي القهقـــــري

أقـــــيم لـــــوهمي وأبتاعـــــه
تماثيـــــل فـــــي قدســـــها أركـــــع
وأقـــــرع صـــــدري وأقـــــرع صـــــدري
وأحـــــرق روحـــــي؛ لهـــــا أضـــــرع

ولمـــــا أزيـــــل ســـــحاب الـــــدموع
تـــــراءى لمقلتـــــي الـــــساعره
بدايـــــة شـــــؤم، لهـــــا ظـــــاهره
تعـــــانق مـــــا زجَّ فـــــي الآخـــــرة

وفي عام ١٩٤٧ أخرج اللاشعور هذه المقطوعة مصهورة مع كل الأجواء اللازمنية التي عاشت في معرفة واختبار وحوادث وأحلام الدكتور في مقطوعته السريالية المؤلفة من (١٢) كلمة:

أنا.. أنا..

نيزك

ذرة فحم

إله مبدَع مبدِع

عفن

قنوط

منفث عار.

* * *

إن العين الثرة أقل روعة جداً من عين دموعها محترقة.

أ. ميسر

اثنـــان في واحـــد

١٩٦٨

اللوحات للفنان عدنان ميسر

المقدّمة

بقلم

الدكتور عبد السلام العجيلي

ثمة قضية مؤلمة قاسى منها كل الأناس الممتازين في كل العصور، فأثرت في شعورهم وفي لا شعورهم، وفي عقلهم الظاهر وعقلهم الباطن، تأثيراً كبيراً ترك ميسمه على حياتهم وفي إنتاجهم، سواء كانوا فنّانين أو فلاسفة أو قادة شعوب. هذه القضية يمكن طرحها على الصورة التالية:

"الجماهير في كل المجتمعات قطعان ضعيفة الحول قصيرة النظر، قد ارتضت لها في الأخلاق وفي التفكير وفي الفن مناهج ألفتها فلا تتحول عنها... مناهج سخيفة منذ ابتدعت أو أنها سخفت لكثرة ما سلكت، فكيف يراد مني أنا الإنسان المتميز في الإدراك والإبداع أن أكون فرداً في هذه القطعان أرتضي لنفسي ما ارتضته لنفسها؟ هذا شيء لا يكون، فلا بدّ من التمرُّد... ولا بدَّ من التفرُّد...!"

هذه هي القضية المؤلمة التي قاسى منها كل الأناس الممتازين في كل العصور. وفي محاولات التمرد للتفرد أنتج هؤلاء الممتازون روائع ما أنتجوه في كل الميادين، وحقّق كل منهم غايته أو طبّق محاولته بطريقته الخاصة التي أرادها طريقة متميزة، بعيدة عن الضريب أو المثيل. تمرّد أبو العلاء على سخف الإنسان وعلى جهالات المجتمع وعلى جور الخليقة وعمهها، فكان حبسه لنفسه في سجن الدار فوق سجن العمى وسجن الروح في الجسد، وكانت اللزوميات. وأمضّ غوته أن إنساناً مثله لا يستطيع أن

يخلص من حبائل الموت، ولا حتى من حبائل الشيخوخة التي تذهب بالشباب فتذهب بالجمال والحب، فكانت فاوست. وآخرون ممتازون لم يجدوا لتمرُّدهم في محاولة تفرُّدهم إلا أن يغرقوا الابتذال والرتابة في لهيب الحرائق أو في بحور الدماء، فكانت روما المتأججة سعيراً تحت أنغام أوتار نيرون، وكان دجلة الذي جرت مياهه سوداً بحبر الكتب المغرقة فيه، وكانت تلال الجماجم أمام المدن التي اجتاحها التتر، وكانت أوربا التي ذبح أبناءها نابليون ودمرها هتلر، وكانت هيروشيما وناغازاكي...

أكان ممكناً التفرد الذي حاوله أولئك الأناس الممتازون، امتياز الخير والشر، أو كان سهلاً التمرد الذي قاموا به؟ ربما كانت الجماهير قطعاناً وديعة لمن يعرف كيف يسوقها، ولكن الذي يتحداها لا يضمن لنفسه السلامة دوماً. لقد صلبت هذه القطعان المسيح، أو من شبّه لها، وأحرقت سافونارولا، وقتلت المتنبي لمسبة مبتذلة يتبادل صبيان الأزقة أقذر منها آلاف المرات كل يوم. هذا بعض عقاب المتفردين المتمردين. وبعض عقابهم أن يتمردوا ليتفردوا أعني ليكونوا وحيدين، فإذا بالقطعان تتبعهم إلى حيث تفردوا لتجعل من معتزلهم هيكلاً يمتلئ بالحجاج، والمريدين والاتباع. وبعض عقابهم، أو أشد هذا العقاب، أن يكتشفوا في آخر المدى من التمرد والتفرد، أن الحياة كانت تسخر بهم وتضحك منهم، وأنهم من حيث أرادوا التحرر خضعوا لنزوات جديدة، وقيدوا أنفسهم بقيود جديدة، وأنه لا مفرّ من التبعية والأسر.

قال أبو العلاء:

ولـــو طـــار جبريـــل بقيـــة عمـــره
عـن الـدهر مـا اسـطاع الخـروج مـن الـدهر

وقال إيليا أبو ماضي:

خلـت أنـني فـي القفـر أصـبحت وحـدي
فـإذا النـاس كلهـم فـي ثيـابي

قلت إن الممتازين من الناس قاسوا من هذه القضية في كلّ العصور. ومقاساتهم في هذا العصر أشدُّ وأشق.

فحين دخلت الإنسانية في القرن العشرين كانت قد قطعت في مسارها أشواطاً بعيدة وسلكت كل الفجاج، حتى ليخيّل إلى المرء أنه لم تبق طريق تصلح للتسيار فيها ولم تطرق. كيف يستطيع المرء أن يتفرد في أرض لم يبق فيها موطئ قدم إلاّ بالمناداة بالقضاء على كل قديم بالتبرؤ منه والطعن فيه وتهديمه. مثال ذلك: في أعقاب الحرب العالمية الأولى اجتمع نفر من المتمرّدين من الممتازين في الفن والأدب والتفكير الفلسفي وراحوا ينادون في بياناتهم: "لا رسامون، لا أدباء، لاموسيقيون، لا مثالون، لا أديان، لا جمهوريون، لا ملكيون، لا إمبراطوريون، لافوضويون... لا شيء... لا شيء... لا شيء..." أولئك هم مؤسسو حركة "دادا" المشهورة في فرنسا وألمانا وسويسرا. إلا أن عمر "دادا" لم يطل، ومن اجتمع عليها من الممتازين لم يلبثوا أن تكشفوا عن بنائين مهرة في ما نادوا به من التخريب. ولكن ظهور تلك الحركة كان إرهاصاً لما ستتمخّض عنه روح العصر من طرائق التفرد الجديدة في الفن والأدب والفلسفة وحتى في السياسة: السريالية والتجريدية والوجودية والعبثية والثورية إلى أن تنتهي إلى طرائق البتنيك والهبي ونرفانا الماريجوانا والـــ ل.س.د.

طرائق للتفرد؟ لا بد أنها بدأت كذلك، ولكنها كما نشاهد، لا تلبث حتى تتحول إلى مذاهب يعتنقها الكثيرون فتصبح لها قطعانها المطواعة للتمرد طواعية سالفاتها من القطعان للاستسلام؛ حتى ليخيل إلى الباحث أن التمرد والتفرد حديث خرافة ابتدعه تجار لوحات الرسم ومالكو دور النشر وأصحاب دور الأزياء. إلا أن الحقيقة غير هذا. فثمة تفرد حقيقي وثمة تمرد لا يعلن عن نفسه بقرع الطبول وبالصرخات الهستيريائية، إذ لا بد للعين المدققة أن تقع بين الحين والحين على رسام أصيل وشاعر مبدع بما تعنيه كلمة الإبداع، وموسيقي مبتكر، قد تمرد كل

منهم لا على المذاهب المطروقة وعلى مفاهيم القطيع وتقاليده فحسب، بل حتى على الشهرة نفسها، فلم يخضع موهبته لمتطلبات السوق ولا تزلّف بها عند سماسرة الإنتاج. يكفي الواحد من هؤلاء المتمردين أنه حقق في إنتاجه تمردّه وصدّق نفسه، فكان بذلك المتفرد الحقيقي في عصر يسير فيه الناس إلى النمطية المتشابهة حتى في الثورية والتحرر والانعتاق.

أقول هذا كله في مقدمة لمنتخبات مختارة من نتاج فنانين من هؤلاء الذين وصفتهم بالتفرد الحق: شاعر ورسام. شاعر ورسام كلاهما قد نبت في هذه التربة الشهباء من جفافها، وعاش في هذا الجو المتجهم في جديته، أعني بها تربة حلب وجوّها: علي الناصر وعدنان ميسر.

لقد ذكرت أبا العلاء بين المتفردين. إن في عبوس الدكتور علي الناصر وسخريته المرّة من الناس والحياة، وسخريته من نفسه، ما يذكر بأبي العلاء. غير أن ثمة اختلافاً يميز بينهما. فأبو العلاء كان، حين يحس بثقل القيود التي يحملها الإنسان الحساس، يضيف إلى القيود التي تململ منها قيوداً جديدة ليدلل على قدرته في تحدي القدر: قيوداً كقيود النباتية في المطعم، والتزام البيت في المسكن، ولزوم ما لا يلزم في الشعر. حتى ليبدو أبو العلاء مكذّباً كمصدق، وكافراً كمؤمن، ومتمرداً كمستكين ـ بينما لا يتستر علي الناصر في تململه من قيود الحياة بتقية، ولا يخفي نقمته على الخليقة والقدر، أو احتقاره للمجتمع والناس وراء تواضع مصطنع، أو تظاهر بالضعف والاستكانة. ولنأخذ مثلاً مجال نظم الشعر، وهو المجال الذي أراد أبو العلاء أن يتفرد فيه فالتزم ما لا يلزم. في هذا المجال أحس علي الناصر بثقل وطأة القيود الشكلية على التعبير الشعري، وذلك قبل أن تظهر في دنيا الشعر والأدب مذاهبها الجديدة، فطرح تلك القيود بأن نظم الشعر في قصائد أبياتها متحررة من أغلال الوزن الموحَّدة الرتيب الصارمة، ولكنه أبقى فيها على موسيقى التفعيلات (قصيدة إلى أم كلثوم في ديوان الظمأ).

لقد نشر الدكتور علي الناصر ديوان الظمأ الذي يحتوي القصيدة المتحررة من قيود بحور الخليل منذ نحو أربعين عاماً. ومنذ ذلك الحين ادَّعى أبوّة الشعر الجديد مدّعون كثيرون ليس بينهم علي الناصر، لأنه حين نظم شعره على هذا الشكل لم يكن يريد أن يبدع مذهباً جديداً في النظم، بل كان يريد أن يعبّر عن إحساسه الخاص بطريقة خاصة، فكانت تلك القصيدة. فهو حين وجد قيد البيت الموزون بالوزن التقليدي يحول دون ما يبتغيه من تعبير حطّم ذلك القيد، فكان في تحطيمه له متفرداً عمّن حوله، وعمن سبقه. لم يكن يهمه في شيء، بل لعله كان يؤذيه أن يمشي معه الناس في هذا الذي فعله، لأنه بذلك يكون فقد ميزة التفرد.

وقد حدث منذ عشرين عاماً أن أراد الدكتور علي الناصر أن يعبر مرة أخرى بطريقة خاصة عن مشاعره الخاصة، فأصدر مع أورخان ميسر ديوان شعر مبتكر، هو ديوان (سرّيال) الذي طبع في عام ١٩٤٥. إني أجزم بأن علي الناصر لم يكن هو الذي اقترح ذلك الاسم لذلك الديوان. فهو قد كتب، في حينها، مقطوعات شعرية لم يكن سهلاً لمذهب من المذاهب الشعرية المعروفة في الأدب العربي، وربما في الآداب الغربية كذلك، أن يستوعبها فأدرجها رصيفه أورخان ميسر في الشعر السريالي. ولقد كان أورخان ميسر متفرداً، ولكن بطريقته الخاصة، غير أن ما نشره في ذلك الديوان من الشعر السريالي كان يحكم ببعد مقطوعات علي الناصر عن السريالية. لعله كان تجريدياً فيها أكثر منه سريالياً. كان يعرّي الصورة حتى تتمثل بكلمة ويكثّف الحكاية المسهبة في نغم ينطلق من تجاور ألفاظ قلائل. هل تسمى هذه الطريقة من الأداء الشعري سريالية؟ "فليكن!" ربما كانت هذه هي الكلمة التي علّق بها علي الناصر على نعت مقطعوعاته تلك بهذا النعت. المهم أنه تفرد بطريقة تعبير جديدة عن مشاعره وأفكاره، وليسمِّ الناس هذه الطريقة بما يشاؤون من التسميات...

واليوم يخرج علي الناصر علينا بديوان جديد.

الصحيح أن القصائد في هذا الديوان الجديد ليست جديدة، أو أنها ليست جديدة كلها. إنها منتخبات من شعر الدكتور علي الناصر، ومن نثره الشعري، في أطواره الأدبية والنفسية المختلفة. ولعل "تفرده" في هذه المنتخبات ليس واضحا وضوحه في دواوينه الأخرى، أو وضوحه في حياته التي هي الصورة الأصلية لما ينظمه من شعر أو يعبر عنه من أفكار. إلا أن القارئ لا يلبث حتى يهتدي، من خلال المقطوعات المتباينة في أساليب النظم، الغنية في محتواها الفكري والعاطفي، ومن خلال مشاعر الحيرة والشك والقلق والتشاؤم والتمرد التي تتضارب فيها، إلى أن روحاً متفردة وشاعرية قد ولدتا هذه المقطوعات. إنه يقع فيها على عوالم غريبة ومشاعر غريبة، وتشبيهات غير مألوفة، وصور تصل في الغرابة إلى حد النشوز. قد يكون في هذه المقطوعات جفاف، وقد يعمي التعقيد أو الغموض على أفكارها أو أحاسيسها، أو على مواطن الجمال في صورها، ولكن الزاد النفسي والشعري فيها مكثَّف ومبتكر يرتفع بالشعر عن أن يكون نغماً مهدهداً للمتعب الذي يريد أن ينام أو للخلي الذي يريد أن يتسلى.

لا شك في أن هذا الديوان ليس كالدواوين العادية السهلة المتناول التي دأبت المطابع العربية على إخراجها لجماهير القراء. وإذا كان ثمة من يشك في هذا، أو من لا يخطر له هذا لأول وهلة يرى فيها الديوان، فإن هاجساً سيحمل إليه التساؤل والحذر منذ ما يبدأ بتقليب صفحات الكتاب فتقع عينه على لوحات عدنان ميسر المبثوثة بين هذه الصفحات معبرة بالرسم عما يقوله علي الناصر بالكلمات.

ولكن أنستطيع القول مخلصين أن لوحات عدنان ميسر هذه تعبر عن قصائد علي الناصر تلك؟

نحن نستطيع حقاً أن نقول بأن هذه اللوحات ترافق المقطوعات، ولكن أن تعبر عنها فهذا أمر مشكوك فيه. ذلك أن عدنان ميسر هو متفرد آخر من المتفردين في فنهم. بعض لوحاته التي يحتويها الديوان لوحات قديمة اختارها هو أو رآها

معبرة عن روح القصائد التي ترافقها، وبعضها رسمها خصيصا لهذه المقطوعات فالمفروض أنها تعبر حتماً عن روح المقطوعات التي رسمت لها. ولكننا، إذا أردنا التدقيق نجد أن هذه وتلك من لوحات عدنان ميسر لا تعبر إلا عما يفتعل في نفس راسمها أو عن انعكاس شعر علي الناصر في نفس راسمها وما أثاره ذلك الانعكاس من موحيات فنية.

ونستطيع القول بأن هذا الانعكاس لا بدّ وأنه يختلف كثيراً أو قليلا عن حقيقة ما أراد علي الناصر التعبير عنه باللغة الشعرية، وهو في الوقت نفسه مختلف عما يثيره شعر علي الناصر في أنفسنا نحن قراء الشعر ومشاهدي اللوحات، وإلا فمن ذا الذي يقدر على الجزم بأن علي الناصر أراد في مقطوعاته التأملية أو التشاؤمية أو الإنسانية، أو حتى في قصائده الغزلية، أن يقول ما رسمه عدنان ميسر في لوحاته السريالية من صور عوالم غريبة وأغوار عميقة وصحارى موحشة يتصارع فيها الموت والجنس وتفاهة الوجود ورعبه؟ أم ترانا نفهم نحن من مقطوعات علي الناصر تلك المعاني التي تبتعثها في النفوس رسوم عدنان ميسر؟ وسواء كان الجواب سلباً أوإيجاباً فإني أقدّر أنه لا يهم عدنان ميسّر. كل ما يهمّه أنّه سجل ما أثارته في نفسه أشعار علي الناصر وما حركت به ريشته في هذه الرسوم التي قد تكون تعبيراً أو تكون انعكاساً أو تكون تأثراً، أو تكون اندفاعاً لا شعورياً ليس له مبرر في المنطق أو المعقول.

شيء آخر نقدر أن نضيفه في هذا المجال، وهو أننا قطعاً لا نحسن فهم ما رسمه عدنان ميسّر بالشكل الذي أراد به أن يعبر عنه في رسومه. ولكن أترى الفنّان السريالي يرسم ما يرسم ليفهمه المشاهد؟ لقد قال "دوشان"، وهو أحد الأسلاف الأول للمذهب السريالي في التصوير، بأن المشاهدين هم الذين يصنعون الرسم، بمعنى أن المشاهدين بفهمهم أو تأثرهم، هم الذين يعطون اللوحة الفنية معناها أو قيمتها، أو حتى وجودها. وإذا كان هذا القول لا ينطبق انطباقاً تاماً على

الرسوم الكلاسيكية فإنه قول صادق بالنسبة للمدارس الحديثة في الفن. ولا سيما الفن السريالي.

وهذا المعنى الذي يحتويه قول "دوشان" هو إحدى ميزات السريالية. أنها تحول دون أن تسكب الناس في تقديرهم في قالب واحد. وهي لا تريد أن تحولهم إلى صور متماثلة لمشاهد واحد، بل تعطي كل مشاهد حقه في أن يفهم ما يراه ويتأثر بما يراه مثلما تؤهله لذلك ثقافته وذوقه وعناصر اللاوعي عنده. تريد أن تخلق من كل مشاهد إنساناً متفرداً، على الأقل في تقديره الفني.

فنحن حين نرى صورة الجوكندا مثلاً نفهم كلنا ما تعني ونعجب بروعة الأداء وفتنة الصورة والجمال العبقري للمناظر الطبيعية الخلفية وراء الموناليزا. وقد ننقسم إلى فريقين أو ثلاثة في فهم معنى البسمة الخفيفة على الوجه الساحر، ولكننا نظل بعد ذلك متفقين على تقدير العناصر الجمالية الأخرى في لوحة ليوناردو دافنشي. فهل يا ترى يتفق اثنان منا على فهم واحد لصورة من صور ماكس أرنست أو سلفادور دالي أو اللوحة المسماة "في الهزيع الأخير" من لوحات عدنان ميّسر في هذا الديوان؟

كما قلت، لكأن السريالية التي ينتسب فنُّ عدنان ميسر إليها تريد أن تطبع بالتفرد كل مشاهد... تفرّد في التذوّق الفني على الأقل!

وبعد، فهذه كلمة بين يدي شعر علي الناصر وفن عدنان ميسر. ليست الكلمة دراسة لهذا الفن ولا لذلك الشعر، ولا هي لهما أريد فرضه على القارئ. للقارئ حقه في أن يجد نفسه، وذوقه في ما يقرأ وفي ما يرى.

حسبي أنني فتحت له الباب وإني رفعت له قبساً من الضوء على الطريق.

عبد السلام العجيلي

إلى القارئ

حرفٌ وخطٌ يسعيانِ إلى اكتشاف
مدّخراتِ الأجيال في أغوارِ النفسِ الإنسانية،
تلك النفس التي هي روحُ الكونِ الذي لا يُحدْ،
والشعلة اليقظة الوحيدة في خضمٍ من أهباء
موّارة لا بداية لها ولا نهاية!
فالحياةُ تبقى ببقاءِ هذه الشعلة،
وتقيّم بمقدارِ ما تزيلُ من ظلمات!
إنّ هذه اللوحاتِ التي سطرها خطُ الفنانِ عدنان ميسّر هي انعكاساتٌ صادقة،
ورفاتٌ تلوحُ من تلك الدهاليزِ المظلمة!
هي النورُ المدركُ غيرُ المدّرك،
وهي حصيلةُ عمرٍ، وأيّ عمر!
أما الحرفُ الذي أفشى سرَّ الدكتور علي الناصر
فما هو إلا
جرحُ الحياة النازفِ حتى اللحد،
والملهاةُ الوحيدةُ في خواءِ الضجرِ الأبديّ!

الدكتور علي الناصر

شاعر

يا ذلَّهُ من شاعرٍ مفحَمٍ
لمَّا يثيرُ الكونُ إحساسَهُ

أحرفُهُ بُكْمٌ وَهي جرسُها
تَضيقُ عندَ النطقِ أنفاسَهُ

كأنَّهُ في عيِّهِ معْبَدٌ
لا تقرعُ العُبَّادُ أجراسَهُ!

تلاقيت والمــوت

تلاقيتُ والموتَ وجهاً لوجهٍ
فكان ابتسامٌ وكان ازدراءْ!
ظواهرُ فيها الوِدادُ الأكيدُ
وأخرى يتمتمُ فيها الرياءْ!
تلاقيت والموت فـــي حانـــةٍ   يهلّل في زائريهـــا الرجـــاءْ
تلاقيت والموتَ فـــي معبـــدٍ   يتمتمُ في مؤمنيـــه الـــشقاءْ
تلاقيت والموتَ فـــي غـــادةٍ   يرى الغدرُ فيها شقيقَ الوفـــاءْ
تلاقيت والموتَ في حانةٍ
يهلّلُ في زائريها الرجاءْ
تلاقيت والموتَ في معبدٍ
يتمتمُ في مؤمنيه الشقاءْ
تلاقيتُ والموتَ في غادةٍ
يُرى الغدرُ فيها شقيقَ الوفاءْ
تلاقيتُ والموت طيّ الربيعِ
وطيَّ الخريفِ وطي الشتاءْ

تلاقيتُ والموتَ لكنني

وإياه دوماً نجيدُ الدهاءْ

فلا هو يظهرُ مكنونَهُ

ولا أنا أهتكُ سترَ الخفاءْ

كأني وإياه منذُ البدايةِ

تِرْبا ولاءٍ وخلاَّ صفاءْ!

تلاقيت والموتَ وجهاً لوجهٍ

فكانَ ابتسامٌ وكان ازدراءْ..!

حكم القضاء

أبـــــؤسُ هــــــذا الحـــــيِّ حكـــــمُ القـــــضا

حكـــــمٌ علـــــى خذلانــــــه لا يحـــــورْ...؟

المـــــــوحلاتُ الـــــــسودُ ذاتُ الوبـــــــا

قـــــصورُنا المثلـــــى فـــــأينَ القـــــصورْ؟

والعامـــــــلُ المتعَـــــــبُ فخـــــــرُ الـــــــدُنى

ينـــــــامُ كالميـــــــتِ لـــــــئلا يثـــــــورْ

والمـــــــرأةُ الحبلـــــــى بـــــــرغمِ الـــــــشقا

تقـــــــرِّبُ القلـــــــبَ لـــــــدودِ القبـــــــورْ

وكـــــــلُّ هـــــــذا الكـــــــونِ تغريـــــــدةٌ

ألحانُهـــــــا الألـــــــوان ذاتُ العطـــــــور...؟

وكان الشباب

وكـــان الــشباب.. ظـــلالُ الـــرؤى تـــسيرُ بجنبيــهِ كالحاشـــية
ظـــلالٌ تعـــجُّ بهـــا القهقهـــاتُ وأخـــرى معبّـــسة باكيـــهْ
ومـــرَّ الزمـــانُ فأمـــستْ تلاشـــى ودبَّ التمـــرُّدُ فـــي الباقيـــهْ
فلـــم يبـــقَ إلا ظُليـــلٌ كئيـــبٌ يـــسيرُ بـــنعشٍ إلـــى الهاويـــة

العطر

أيُّ عطـــرٍ مـــضمّخٍ بخيـــالي حجّت الروحُ من "بُخـارى" إليـهِ
الصحارى علـى القحـول جنـانٌ والـسرابُ المـصهورُ لديـه
حَجرٌ أسود يُحَجّ إليهِ
وسجودُ الأشواقِ بين يديهِ
ليلةُ القدرِ
آه من سكْريهِ
ســـكرةٍ تنقــلُ الجحـودَ إلـــى اللهِ وأخـــرى مهيــضة فـــي يديْـــهِ

صحوت

صـــحوتُ وكـــان رجـــائي البقـــاء بـــسكرٍ عميـــق بعيـــد الأثـــرْ
ولمـــا أفقـــتُ ســـيرْتُ الوجـــود بنـــورٍ يـــضيءُ خفايـــا الـــصورْ

رأيــتُ الأزاهــرَ: زهــرَ الــسماء وزهرَ الريــاضِ، وزهــرَ البــشرْ

عذارى الخيالِ، عــذارى الحقــائق ممـــا استـــسرَّ وممـــا ظهـــرْ

رأيتُ الجميعَ بعُري فظيعٍ

يهيجُ في النفسِ شتى العبرْ

قرابينَ تربٍ بكفِ الفناء

ترجّى لربِ القضا والقدرْ

طَوَيتُ على المرِّ جنحي القويّ

وألقمتُ ثغريَ صمَّ الحجر!

سم معربد

إني إذا ضِعتُ في سكري وذا أملــي ضاعَ الــضياعُ ففــدّيني وهنّيـــي

أراكِ بدعةَ هذا الكونِ في خلَــدي تطوي المآسي فتهــديني وتغــويني

فقلبي والتي فيهـــا فُــسوقُ دمـــي سمّ يعربدُ في ذاتـــي وفـــي دينـــي

يا صرختين معاً لم تجــأرا عبثـــاً لولاكما الأرضُ ما دانَتْ لمـــأفونِ

حقّ على شفتيَّ

حـــقّ علـــى شـــفتيَّ تمجيـــد الألوهـــة بالقبـــلْ

أيـــصدُّ مـــن عبـــدَ الإلـــهَ وقـــد تمثـــلَ بالمقـــلْ

بالثغرِ، بالــصدرِ المنيــف، بحُــقّ أســرارِ الأزلْ...؟

جاء الربيع

جـــــاءَ الربيــــع وهـــــا نفـــــسي كعادتِهــــا
مـــــع الربيــــع تثيـــــرُ الـــــشوقَ ألوانــــا
شــــتيٌ مــــاضٍ علـــــى تكـــــرارِ هجعتِهــــا
طـــــيَّ الجليــــدِ تُرجّــــي زهرَهـــــا الآنـــــا
أخـــــالُ روحـــــيَ فــــي الأزهـــــارِ ناشـــــطةَ
وفــــي الغــــصونِ طموحـــــاً كـــــانَ وســـــنانا

عزريل

عزريــــــلُ، يـــــا أبلــــــهُ، كـــــم ميتـــــةٍ
ســـــجّلتَها منـــــذُ انبثـــــاقِ الحيـــــاةْ!
إحــــــصاؤك الجبـــــارُ إضـــــــحوكةٌ
منحوتــــــةٌ فــــــوقَ جبـــــينِ الممـــــاتْ
لـــــو كنـــــتَ حقـــــاً ذا حجـــــىً لارعـــــوتْ
يمنــــاك عــــن عـــــدّ رمــــالِ الفـــــلاةْ
نحـــــنُ الأولـــــى الأمـــــواتَ فــــي بـــــدئنا
والمنتهـــــى، يــــا غــــرُّ بعـــــثُ الرفـــــاتْ

لـــن أبتهــلْ ؟

أما مِنْ هدوءٍ؟

تغنَّيتُ وهمـــي وأحرقـــتُ فنّـــي

أما من هدوءٍ؟

عذابٌ، عذابٌ وبـــؤسُ اضـــطرابْ

سجينٌ طليقٌ وسجني عميقٌ

وليلي عتيـــقٌ، عتيـــقٌ، عتيـــقْ

رحمة الجدران

مـــــــا أرحـــــم الجـــــدرانَ حـــــينَ
تميــــــــلُ بــــــي أخـــــــذاً وردّا
وخيـــــــاليَ النـــــــشوانُ يُـــــــدْ
نـــــي مَـــــنْ أطـــــالَ البعـــــدَ بعـــــدا
أبغـــــــي معادلـــــــةَ الخُطـــــــى
عبثـــــاً ومـــــا نُوِّلْـــــتُ قـــــصدا
أخـــــــشى الكرامـــــــةَ أنْ تـــــــضيعَ
فـــــأرهق المجهـــــودَ جهـــــدا

تثاؤب

مــــا أرحـــم الـــسكرَ الـــشفيق إذا بـــدا
ينجيـــــكَ مـــــن هـــــمٍّ الزمـــــان القاتـــــلِ
ماضـــــيكَ والغـــــدُ فتـــــرةٌ وســـــنانةٌ
والحـــــالُ فيـــــه ضـــــلّة المتفائـــــلِ
تتثـــــاءَبُ الأحـــــداثُ فـــــي أقداحِـــــهِ
فكأنّهـــــا سُـــــفُنٌ رسَـــــتْ فـــــي الـــساحلِ!

أيها الغيب

أيهـــــا الغيـــــبُ، دعْ ختـــــامَ حيـــــاتي
غفلـــــةً كـــــي أجابِـــــهَ الأقـــــدارا!
لا تعكِّـــــرْ علـــــيَّ بهجـــــةَ ســـــكري
بخُمـــــارٍ فقـــــد ســـــئمتُ الخمـــــارا!
إنَّ فـــــي الغـــــور مـــــن خرائـــــب نفـــــسي
عازفـــــاً جُـــــنَّ يقـــــضمُ الأوتـــــارا!

ميسلون

ميسلون... ميسلون:
أملٌ ضاع، وجيش ظافر!
فتيةٌ من فرنسا، تركوا الأهل،
عليهم فتياتٌ قد لبسن الأسودَ؛
قطعوا البحرَ وفي أعماقهم لوعة،
والبعض عاف الولدَ!
في سبيل المجد...؟ لا
في سبيل الحق... لا
رأسماليون يزجون البلا لبني أوطانهم
ميسلونْ... ميسلونْ:
بضعة من قبور سُيِّجَتْ
فخرُ فرنسا.
تقيةً للشام قبر ماثلٌ مفردا

في سبيلِ الشرفِ المعبودْ،
في سبيلِ الوطنِ المغصوبْ،
قامَ في وجهِ العدى!.

عروبتي

أنت أمي وأنا ابنُكِ العاثر.
إنَّ كلَّ إخلاصي لكِ لمَّا يهدني إلى أن أكسبَ منكِ التفاتةَ عطف.

أريدُ أن أنثرَ على أقدامِك الأزهار،
وأن أعطِّرها بعطورٍ لا مثيلَ لها،
وأن أهلِّلَ لاندفاعكِ إلى العلاء،
وأهتفَ لعزَّتكِ حتى أبحَّ!

إنني أرى نفسي مضطراً أن أتسرَّب إلى هيكلكِ خلسةً،
وأن أنسلَّ إليه كسارقٍ نبيلٍ يعطي ولا يأخذ!
إنني لا أستطيعُ أن أصلّي لكِ مع جموعِ المصلّين،
لأنَّ صلاتي ليست ممّا تتشدَّقُ به الأفواه!

لقد قضيتُ عمراً طويلاً بيأسٍ قاتلٍ بسببك.
أما الآن فإنني أستقبلُ آخر أيامي،
وفي روحي بارقُ أملٍ وطيد!

إنني أتوقُ أن أقدّمَ كلَّ ما عندي للإسراعِ في تحقيقه،
وأن أكونَ كالزهر،
إذا ما ألحَّ به الظمأ، ينتشر كلُّ ما في روحِه من عبير
دفعةً واحدةً بدون أن يشعرَ به أحد!

نهم والجمال

نهـــــمٌ والجمــــــالُ زاهٍ وهــــــذي
همـــساتُ الفنــــاءِ تـــضحكُ منـــــي
لا أبــــالي اســــتهزاءَها بعــــدَ علمـــي
أنتـــي فـــي الحيــــاة أتبـــعُ فنّـــي
مغريــــاتُ الجمــــالِ أقــوى مـــن المــوتِ
فيـــا ملهمـــــاتُ للحـــبِّ غنّيـــــي!
واجعلـــي المــوتَ غفلـــةَ العمـــرِ واســـقي
صـــامتاتِ القبـــورِ خمــرَ التمنـــي!

ناسك

يمــــرُ بـــك الجمــــالُ ولــــيس يـــدري
بأنــــك ناســــكٌ عبـــدَ الجمــــالا
وهــــل يـــدري الإلـــهُ بعابديـــهِ
إذا مــــا أحرقـــوا المُهَـــجَ ابتهــــالا؟!
فـــلا تحـــزَنْ فحـــسبُكَ نــارُ شـــوقٍ
تُنَهنِهُـــهُ عنـــك فـــي العـــيشِ المـــلالا

الخَطوُ اللاّهبُ

حـــــذوتُ ليمنـــــايَ زهـــــرَ الريـــــاضِ
ويُـــــسرايَ جمـــــراً شـــــديدَ اللهـــــبْ
وســـــرتُ مِـــــنَ الأمِّ، طـــــولَ الطريـــــقِ
إلـــــى الأمِ حيـــــثُ انتهـــــاءُ التعَـــــبْ

يصرعني الحسن

يـــصرعنُي الحــسنُ فأمـــسي كمَـــنْ
أصـــابَهُ مـــسٌ عجيـــبُ القـــوى
فتـــارةً أســـبحُ فـــي عـــالمٍ
أســـمى ومعبـــودي بنـــاتُ العلـــى
حيـــثُ الهـــوى العلـــويُّ لـــي معبـــدٌ
لا تنطفـــي فيـــه شـــموعُ الرجـــا
وتـــارةً فـــي حانـــةٍ بُطّنَـــتْ
جـــدرانُها الـــسودُ بـــآهِ الـــشقا

في حمأة الـشهواتِ بـين الـدما بـين فظاعـات بنـاتِ الهـوى
أرتـاحُ، أرتـاحُ وأسـمو إلـى أرفعِ نعمـى يرتجيهـا النهـى!

فوضى

تـــأبى الفـــراشُ جـــوارَ آســـادِ الثـــرى
لقبـــيحِ منظرهـــا ومُخجـــل نتنهـــا
فعلـــى الأزاهـــرِ روعـــةً تطوافُهـــا
تزهـــو برقّتهـــا ورائـــعِ فنّهـــا
فوضـــى الخليقـــةِ باعـــدَتْ عنـــي الهنـــا
فطفقـــتُ أهـــزأ بالحيـــاةِ ومنّهـــا!

جامح

وهذي الورودُ بكفّ القضاءِ كأحلام مبتكرٍ سادرِ
وهذا الجمالُ ودودُ القبورِ كخلّيْنِ من زمنٍ غابرِ
وهذا الصباحُ وهذا المساءْ وهذي النجومُ بعرض
وهذا وهذي وما بعدها
وقلبي كئيبٌ كثيرُ العناءْ
فطوراً يودُّ فناء البقاءْ
وطوراً يرجّي انتحار الفناءْ!
فيا لي من جامحِ

موت الشاعر

نفّضتُ في الحقل حسّي
وفي المعابد روحي
وفي الصباح دموعي
وفي الغروب جروحي
وفي الليالي قنوطي
وفي الفنون طموحي
نفّضتُ في الحبِ حبّي
فحمّ آنُ نزوحي
فحلتُ نغمةَ ناي
في إذنِ كونٍ فسيحِ!

نرسيس

قعدتُ العمرَ في المرآةِ
أسعى أنْ أرى نفسي
فلم تعكسْ سوى أشباحِ
ما يهذي به هَجْسي
أحدّقُ طيلةَ الأيامِ
في رُشدي وفي مَسّي
كأني اليومَ نرسيسُ
الذي قد ضلّ بالأمسِ

انتظار

مـــا أفظـــعَ انتظـــار الـــساعاتِ تمـــشي علـــى
محمـــــومِ أعـــصابي بخطــــوٍ وئيـــدْ
أوّاهُ تنتــــــابُني ميتـــــــة
تطـــوي لـــيَ الأيـــامَ حتـــى تعـــودْ!

لم أسرق النار

لـــم أســرق النـــار بـــل آنـــستُها نِعَمـــاً
فـــي مقلتيـــكِ فلِـــمْ شـــبَّت تحرّقُنـــي؟
نـــسرُ "برومـــسيوس" تخلّـــى عـــن كرامتِـــه
مُـــذْ راحَ يطعـــمُ قلـــبَ العابـــدِ الفطِـــنِ

مرآة

شـــوّهتها يـــا نـــارُ شـــوهتِها
أواه، هـــل تـــدرينَ مـــا تـــصنعينْ
قـــد زانهـــا الحـــسنُ بزاهـــي الـــصبى
وأنـــتِ... بالتخريـــبِ لـــمْ تـــولعين؟!
بـــالله... يـــا مرآتَهـــا، بالوفـــا
صـــوني، كمـــا قـــد كنـــتِ، مـــا تعكـــسينْ!!

دمعة

لا تستحي، يا عينُ، من دمعةٍ
إمّا استباحَتْ سرَّها في الخفاءْ
لا تمنعيها، فهي في عجزها
قد تَهَبُ المحرومَ بعضَ العزاءْ

مهيض الجناح

يا خالقَ الإحساسِ لِمْ أبدعتَهُ
زمناً أمامَ الحسنِ في آلائِهِ
وجعلتَ نغمتَهُ رنيناً خافتاً
لا كانفجارِ الرعدِ في أصدائه
"بيكاس"(١) لا يهفو بجنحٍ واحدٍ
فحرمْتَهُ التحليقَ في أجوائِهِ!

بعث

فكيفَ أنا أحيا برقّةِ بارقٍ
على حين نعي الموت يخرس أنغامي
تماوُجُ شَعْرٍ أو تألّقُ بسمةٍ

---

(١) Pe'gase: حصان مجنح

ورعـــــشةُ لمـــسٍ تـــــستبدُّ بإلهـــــامي

أمـــا مـــوقنٌ بالبعـــثِ فـــي كـــلِّ لحظـــةٍ

ولـــــو أنَّ إلحـــادي يزعـــزعُ أوهـــامي

حقد

كلمـــا فـــي المـــرآة شـــاهدتُ وجهـــي

إصـــبعُ العمـــر تفقـــأ العـــينَ منّـــي

فترينـــي الأيـــامَ وهـــي خـــوالِ

فـــي ثنايـــا محفـــورةٍ حـــولَ جفنـــي

التّحـــدّي اللئـــيمُ يخلـــقُ قـــسراً

ثـــورةَ الحقـــدِ فـــي حيـــاتي وفنـــي!

حرمان

حتـــى القـــذى فـــي الخمـــر يعظُـــم شـــأنُه

إمّـــا عـــوى الحرمـــانُ فـــي أقدحِـــهِ

ويفـــوق عَـــرفَ الزهـــر نـــتنٌ صـــارخ

إن صـــاول الـــشوقُ الرهيـــب بـــساحه

فـــالوحش يـــستجدي إذا جـــوع طغـــى

جيـــفَ الفـــلا بزئيـــرِهِ ونباحِـــهِ

الأغــوار

يـــا أيهــا النـــورُ بهـــيُّ الـــسنا　　أشرقْ! سئمتُ الظلمةَ الـصادقهْ!
أريــدُ أن أنظــرَ هــذي الــرؤى　　ضـــاحيةً مخلّـــصةً مورقـــة
سكرانِ: سـكرُ الــروح أعتاضُــهُ　　بـــسكرةٍ خادعـــةٍ مـــشفقهْ
مـــالي وللأغـــوار أرتادهـــا
بمـــشعلِ أنفاسُـــه ضـــائقهْ!

الصبحُ؟ نعمَ الصبح، مـــا أجملَـــهْ
ظـــــاهرة أشـــكالُهُ المهملَـــــهْ!

يـــا ســـكرتي مـــا أفظـــع المنتهـــى
لا. لست أهوى منـــك مـــا أعلمُـــهْ
ويا ظلامــــي فـــي سِـــماكَ المنـــى
قد أزهرتْ رغـــم الـــدجى أنجمُـــهْ
زدنـــي بمجهـــولاتِ هـــذا الـــورى
زدني! ففي الأعمـــاقِ مـــا أكرمُـــهْ
مـــا لـــي وللأنـــوار عريانـــةً...
ما لي وفي الإبهـــام وهمـــي الـــذي
يقـــولُ: نعـــم الليـــلُ مـــا أجملَـــهْ!
شــــائقة أســـــرارُهُ المهملَـــــه!

حصان عربي أصيل

"حصان ينوء بحمله الثقيل في
أثناء اجتياز حافلات الترام
شارع حلب الرئيسي."

حصانٌ تحت حملٍ ثقيل،
يكادُ ببطنه وعراقيه يمسّ الأرضَ تحت هذا الحمل!
إنه أصيلٌ لا تزال عيناهُ تقدحانِ الشرر،
وأذناه المؤللتان حربتان تمزّقانِ صدرَ الهواء،
ومنخراه كشدقَيْ أسدٍ ثائر،
وذيلُهُ كشراعِ مركبٍ خرافيّ!
لا يزال متنُهُ ينتظرُ السرجَ المذهّبَ والأميرَ الحمداني...
وينتظرُ قرعَ الطبول لتجنّح قوائمه...!
إنه الآن كـ "بيكاس" صيدِ صاحبه الفلّاح الخشن؛
حملُه الجائرُ الثقيل، وسائقُه الجهولُ الغليظ،
لم ينقصا من عنفوانه،
لأنّه أصيلٌ يتحملُ غدرَ الزمن بثباتٍ وازدراء!
إنّ المصائبَ والأهوالَ لا تزعزعه!
عيناه تقدحانِ الشرر،
وأذناه تمزقانِ صدرَ الهواء،
وهو لا يزالُ ينتظرُ قرع الطبول، طبولِ بني حمدان!

مُوميــــاء

مومياء ممدّدةٌ على فراش عهرِها،
نُقشتْ عليها أحرفٌ أزليّة لا تفسّر،
مومياء وذراعاها متصالبانِ على صدرها ببساطة.
مومياء:
ألفٌ وتسعماية وخمسةٌ وستون، الشهرُ الخامسْ.
والليلةُ التاسعةَ عشرةَ منه...
ممدّدةٌ على فراشِ عهرها متصالبة الذراعين.
الجنيةُ الشقيةُ المكلّفة قسراً ببعثها
تجلسُ على حافة الفراش
عاريةً، مسدلةَ الشعر،
حانيةً عليها ببساطة مخلصة،
تغنّي والخمرةُ تردفُها،
تغني والأملُ المفقود يردفها،
وحسرةٌ في أعماقها تردفُها.
تغني بتمثيلٍ صادق، ابتهالٍ* من أعمق الأعماق.
القدرُ لا يعي...
مومياء ممدّدةٌ على فراش عهرها،
والجنيةُ ترفرفُ كالفراشةِ المحترِقة!

---

* - هكذا وردت في الأصل. - المحرر.

دودة الأرض!

دودةَ الأرض هـــــــــل تنبّـــــــأتِ يومــــــــاً
أنـــــكِ الكـــــونُ فــــــي مـــــداهُ الـــــسحيقِ
فـــــــإذا الكـــــونُ راح يفخـــــــرُ يومـــــــاً
مَـــــــنْ لــــــه غيــــرُ رمــــزِك المنطيــــــقِ
إنْ ثالوثَــــــه تقــــــيء لــــــه الــــــنفسُ
فيــــــا عابثـــــاتِ نفــــسي أفيقـــــــي
غيــــــرَ أنَّ الحــــــيَّ الجبـــــانَ يــــــداجي
شـــــهقةَ المـــــوتِ فــــي انتهـــاءِ الطريـــقِ!

أضحية

يـــــسوعُ مــــــا أنـــــتَ ســــوى آهـــــةٍ
صـــــــــــــعّدَها اللهُ لآلامِـــــــــــــه
أضــــــحيةٌ قــــــد قُــــــدِّمتْ فديــــــةً
لمــــــــالئ الــــــدنيا بآثامـــــــــــه
عيـــــدٌ لجلاديـــــه فـــــي ذا الـــــورى
ومغـــــــــنمٌ يُهْـــــــدَي لخدامـــــــــه!

اصبر!

الكـــــــــلُّ أفـــــــــواهٌ تهجّـــــــــي
فـــــي انفـــــرادي قــــولَ: اصـــــبرْ

والـــصبرُ فـــي رجـــعِ الـــصدى
هـــزءاً يلحّـــنُ صـــوتَ: اصـــبر
فطفقـــتُ أهـــذي كالـــسليبِ
متمتمـــاً يـــا قلـــبُ: اصـــبر

لا جدوى!

أنـــا وافتكـــاري كـــم تجادَلنـــا ســـدىً
كـــاليّمِ يقـــذفُ موجَـــه ويـــردُّهُ
ممـــا يهـــينُ الـــنفسَ أنّ جـــدالنا
يـــضني ولا يجـــدي فتـــيلاً جـــدّه
أســـرفتُ فـــي طلـــب الخيـــال فلـــم أزلْ
كالـــصبِّ يـــضرع والحبيـــب يـــصدُّه

إبـــاء

بـــئسَ القـــدر إن تـــزجَّ ســـفينةٌ
فـــي الـــيّمِ، قـــد نخـــرَ الزمـــانُ ضـــلوعَها
ســـكّانُها أعمـــى أضـــلَّ طريقهـــا
عجـــزاً، ومزّقـــت الريـــاحُ قلوعَهـــا
نعـــم البطولـــةُ أن تكـــافحَ جهـــدها
تـــأبى علـــى حلَـــكِ المـــصيرِ خـــضوعَها!

يسوع الصغير

يـــــسوعُ صـــــغيرٌ علـــــى ظهـــــرِهِ
صـــــليبٌ صـــــغيرٌ بلـــــونِ الزهـــــورْ
مـــــن الطـــــلِّ جُمِّـــــد مـــــسمارُهُ
فيـــــا لبهـــــاءِ الـــــصليبِ الغريـــــرْ
يـــــسوعُ صـــــغيرٌ بنـــــصحٍ مهيـــــب
يُتـــــأتئُ... يـــــا نغمـــــةً مـــــن عبيـــــر
مـــــلاذَك يـــــا جاحـــــدي نظـــــرةً
إلـــــيَّ. أنـــــا كعبـــــةُ المـــــستجير
فطأطـــــأتُ رأســـــي... لا عـــــن تقـــــىً
لإيمـــــانِ ذاك الإلـــــهِ الـــــصغيرْ

الصليب

يـــــسوع طعمـــــتَ المـــــوتَ يومـــــاً وليلـــــة
وعـــــشتَ علـــــى الأجيـــــال فـــــي صـــــدرة الغيـــــدِ
فيـــــا ليتنـــــي كنـــــتُ الفـــــداءَ لعلَّنـــــي
أرفـــــرفُ فـــــي جيـــــدٍ وأغفـــــو علـــــى جيـــــدِ

لا أريـد

لا.. لا أريـــــدُ يـــسوعاً فـــي طهارتـــــه
ولا ملائكـــــة الــــرحمن ذي المـــــنن
حـــسبي مـــن الفـــن شـــيطانية عـــصفتْ
بالـــصنج يـــذهلُ فـــي إيقاعـــه الفطـــن
يـــدورُ رأســـيَ فـــي أقـــدامِها كـــرةً
حتـــى أرى الـــذلَّ فـــي مقـــدوره العفـــن

تريـاق

أنثـــى الـــشياطين! أنثـــى الجـــن عـــاجزة
فهـــل لـــديكِ لفـــرط الحـــسِّ تريـــاقُ!؟
قـــد عـــشتُ أطـــولَ مـــا يُرجـــى وهـــا أنـــذا
لـــــسكرةٍ كحنـــــان الأمِ أشـــــتاقُ

هبـاء

العمـــى يرفـــعُ الـــرؤوسَ وهـــذي
عاهـــةٌ تحقـــرُ الثـــرى بانتقـــامِ
بـــؤرةَ العـــين! لـــيس فـــي الجلَـــدِ الأســـمى
خـــلاصٌ مـــن مبلـــساتِ الظـــلام

الثــــــرى والـــــــسماءُ طفـــــــلا هبــــــاءٍ،

مــــا تـــــرجِّينَ مـــــن هبـــــاءِ الأنـــــام؟!

جيفة

يـــا صــــرعة الـــشؤم[1] قـــد أهـــدوك باكيـــة

وشــــــيّعوك بــــسكب الــــدمع والحـــــزن

تبـــــــاركَ الكفــــــنُ المزهــــــو بجيفتِــــــه

وقـــــدّس القبـــــر رب الــــدود والعفــــــن

الإنسان والوحش

هــــل يــــدركُ الـــوحشُ مـــا تلقـــى فريـــستُهُ

مـــن مفجـــع الخـــوفِ والتعـــذيبِ والألَـــمِ؟

لكنـــــه غيـــــرُ ذي ذنـــــبٍ فلـــــو عـــــدلَتْ

دنيـــــاه لاقتـــــاتَ بالأعـــــشابِ كـــــالنّعمِ

إنـــسانُ! أنـــت مثيـــر البـــؤس مـــن نهـــمٍ

مـــا زلـــتَ عـــاراً علـــى الأيـــامِ مـــن قـــدمِ!

مهــرج

تـــــستبيني مـــــن المخـــــازي أمـــــورٌ

حـــــدتُ عنهـــــا كخاســـــرٍ مـــــن كفـــــاحي

---

(١) الطفل عند الولادة.

أيـــهِ تـــاريخُ! يـــا مهـــرَّجَ دهـــرٍ
يُـــضحكُ الثـــاكلاتِ طـــيّ النـــواح!

اضطراب

أمـــا لاضـــطرابَي مِـــنْ هـــدأةٍ
ســـوى المـــوتِ؟ يـــا ذلَّهـــا مِـــنْ حيـــاةْ!

تـــداويتُ بـــالخمرِ بالـــشعرِ بالحـــبِّ
مـــا أســـلكتْني ســـبيلَ النجـــاةْ

أحـــسُّ كـــأنّيَ فـــي صرصـــرٍ
مـــن الـــريح يجْترُّنـــي فـــي فـــلاةْ

أريـــدُ التـــشبُّثَ والاعتقـــادَ
بكـــلِّ الـــسخافاتِ فـــي الكائنـــاتْ

فتعـــزفُ نفـــسي عـــنِ الترَّهَـــات
وتـــشتاقُ نفـــسي إلـــى الترَّهـــاتْ!

قلب الزهرة

إنَّ قلبَ الزهرة يتفتَّحُ على جبينها
بألوانهِ وعطورهِ وأندائه؛
سفرٌ مفتوحٌ يوشوشُ لكَ بالجمالِ والصفاءِ والسلام!
لا معابدَ للزهرِ للاستجداء!
يوحي إليك الاطمئنانَ والعزاء،
يتساقطُ على المرج كقيلولةِ الفراش،
ويتلاشى عطرُهُ كانقضاء قبلة!
قلبُ الزهرة سفرٌ مفتوح يستحي قارئُهُ من نفسه،
لأنه لا يرتفعُ إلى مستواه!
أمَّا قلبُ الإنسان فهو يقبعُ في الظلمات،
يستترُ عن العيونِ بصفائحَ ودروع،
شعارُهُ الدمُ وروحُهُ الدمُ وخفوقُهُ الدم!
وعند الموت يدفنونه في أعماقِ أمّه،
فلا يحتضنُهُ إلاّ صدرُها يخفيه كالجريمة،
يطمسُهُ كالإثم، يعفيهِ ليطهّره!
ليس للزهرةِ معابدُ للاستجداء!
الصفاءُ إلهٌ قائمٌ بذاته!

دخـان غليوني

دخان غليوني في مسرح النظر
يخطٌّ لا يهدأ... يخطٌّ لا يهدأ:
العيشُ أحلامْ،
العيش أوهامْ،
العيش أسقامْ،
العيش للفنا!
أجبتُ غليوني:
الحلمُ ملهاةْ،
والوهمُ ملهاةْ،
والسقم ملهاةْ،
والقبرُ والفنا،
دخِّنْ ولا تعبأ!
دخِّن ولا تعبأ!

رحيــق

رحيقٌ يهدهدُ غمي العتيقْ

رحيقٌ، رحيقْ

فاطَربْ للهمِّ، للوهمِ، للموتِ

لحبّي العميقْ

لفسقي التقيِّ، لسرّ الحياةِ

الظَلومِ، الشفيقْ

لِجُبني، لزهوي كأنّي الدُنى

كأنّيَ مأمولُ.

كونٍ سحيقْ

رحيقٌ يهدهدُ غمّي سُدىً

لأنّي أفيقُ،

ولستُ أفيقْ!

أمـــي

"حكايتي"

يـــــدٌ كريمَــــــهْ
يـــــدٌ رحيمـــــهْ
أحبّيــــتْ بقلبـــــي
بفـــــرطِ حــــبٍّ:
حديقـــةٌ مـــن حـــدادْ
أنــــداؤها البعـــــادْ
أثمارُهـــــا ســـــمومْ
وجوهُهـــا جحـــيمْ
قــد أكثــرَتْ غـــلالْ
وأشــــبعَتْ كـــلالْ
لكنهـــــا حبيبَـــــهْ
لكنهـــــا حبيبـــــه!

لقـــد أتـــى الـــشتاءْ
تغريــــدُهُ بكــــاءْ
وهـــا هـــي الثلـــوجْ
بثوبهـــــا البهـــــيجْ
تكفّــــنُ الــــسوادْ
وتـــدفنُ الحــــدادْ!

خدر

خَدَرٌ فيه هدهداتُ الدهورِ
بُثَّ في أفقِ روضيَ المسحورِ
لم أعدْ فيه غيرَ رعشةِ ظلٍّ
أو قناديلَ طلّهِ المسجورِ
حلّتْ دفئاً ونغمةً وحياةً
في دهاليزِ قلبِهِ المقرورِ
أينَ جسمي؟ لقد تلاشى هباءً
وعلا الزهرَ رفّةٌ من مصيري
لحظةٌ تُرفعُ التسابيحُ فيها
قانتُاتٍ لمبدعٍ مستورِ!

في حمى القبر

إذا مُتُّ فارموا جانبَ الحقلِ جيفتي
قِرىً للضواري والطيورِ الكواسرِ!
وللطير ما يبقى من الجسم مأكلاً
وللدود ما تحوي حشاشة شاعرِ
فلست أرجّي في حمى القبر راحةً
وما أنا مِفراحٌ لزورة زائرِ
دعوني... فقد كفّنتُ في ميعةِ الصبى
غرامي، وآمالي، وغرٌّ خواطري!

سكرتُ

ســــــــكرتُ وكــــــان الله يمعــِـــــنُ معجَبـــــاَ
بأنفـــــةِ مخلـــــوقٍ تحـــــدّى المــــصاعبا
بــــــراءةُ إلهـــــامٍ هدتْـــــــهُ لأنـــــه
تفقّــــــةَ بـــــالكونِ الكثيـــــبِ فأغربــــا
أبــــيس[1] لقــــد شـــادوا لقرنَيْـــك معبــــداً
ومـــا بخلــــوا أنْ يمنحــــوا القـــــرد منـــصبا
خرافـــــةُ كــــــون أبــــدعوها لعجـــزِهمْ
وقــــد كنــــتُ فيهــــا كالمــــسيحِ مــــصلبًا

... بابتسام

قــــد يطفـــئ الحرقــــةَ دمــــعٌ جــــرى
لكــــنّ ذلّ الــــدمع شــــأنُ اللئـــامْ
والبـــوح قــــد يُــــذهبُ بعــــض الأســــى
لكنـــــه يحـــزنُ قلـــبَ الكـــرامْ
فـــالعزُّ كــــلُّ العِـــزّ يـــا خـــافقي
قبـــولُ مأســــاةِ القــــضايا بابتــــسامْ!

---

(١) ابيس: ثور مقدس معبود.

هذا الليل

اللَيـــــلُ هــــــذا الليـــــلُ كابوسُـــــــهُ
مـــــا نقـــضَ العهـــــدَ ومـــــا أخلفــــا
صــــــاحبتُهُ حينـــــاً علـــــى إلفـــــةٍ
وقلــــــتُ مــــــا أحلـــــى ومـــــا ألطفــــا
كــــان كـــصمتِ القبـــــرِ فــــي عطفــــه
يلفُّنـــــــي إمّـــــا رقـــــادي جفـــــا

هنيئاً

هنيئـــــاً لمَــــنْ فـــي العـــيش يوقـــدُ شـــمعة
ينيـــرُ بهـــا فـــي ظلمـــةِ العـــيشِ دربَـــه
ومـــن يـــستبيح الـــوهْم فـــي غمـــرةِ الـــشقا
ومـــن يهتـــدي يومــــاً فيعبـــدُ حبّـــهُ
تعـــدَّدَتِ الأربــــاب فــــي هــــذي الـــدنى
فطـــوبى لمـــن بالـــصدقِ ألّــــهَ ربّــــه!

تحدّ

نظـــــــرتُ فــــــي المـــــــرآةِ مستكـــــــشفاً
مـــــا خـــطَّ طـــولُ العمـــرِ فـــي صـــورتي
صـــــــدقاً لقـــــد أنكـــــرْتُ ذاتـــــي فكَـــمْ
قـــــــد خـــــانني الغـــــدّارُ فـــــي غفلتـــــي
أمـــــــا الـــــــذي مـــــا زالَ يُنْكـــــي القـــضا
بريـــــــقُ عينـــــــي فـــــي دجـــــى ظلمتـــــي!

غرفتي

يـــا غرفتـــي، يـــا محـــرمَ الأســـرارِ، يـــا حـــصنَ اختفـــائي

تـــــأوي إليـــــكِ الحادثـــــا   تُ علـى هـوانٍ فـي المـساء
كـــــالطيرِ يـــــأوي مخفقـــــاً   وفراخُـــهُ مُـــزقُ الخـــواء
يـــا غرفتـــي مـــا الأمُ أر   فقَ منك فـي ضـجري ودائـي
البـــابُ يوصَـــدُ فـــي وجـــو   ه كالحـــــاتِ بالغبــــاء
فـــأعودُ والـــنفسُ الكئيبـــةُ   آهـــةٌ بفـــمِ الرجـــاء
ليـــلٌ طويــــلٌ ليتـــه   لا ينقـــضي حتـــى الفنـــاء
فـــأراحُ مـــن عَنَـــتِ التـــصنّعِ   فـــي الظهـــورِ وفـــي الخفـــاء!

بعد لأيٍ

بعــــدَ لأيٍ دخلــــتُ هيكــــلَ حبّــــي

فـــإذا هيكلـــي العزيـــزُ خـــرابُ

نـــسجَتْ بيتَهـــا العناكـــبُ فيـــهِ

وتـــداعَى، يـــا وَيْلَتَـــا، المِحْـــرَابُ

رتَّـــلَ البـــومُ يأســـهُ فيـــه لـــيلاً

ونعـــاهُ عنْـــدَ الـــصباحِ الغـــرابُ

بعـــد لأيٍ دخلـــتُ هيكـــلَ حبّـــي

واهنـــاً، أســـتحِثُ أنقـــاضَ روحـــي

ثـــمَّ أوقـــدْتُ شـــمعتي وبكيـــتُ!

وادي الحياة

أحـــسُّ أنـــي بـــوادٍ لا حـــدودَ لـــه
تـــزورهُ الـــشمس أحيانـــاً علـــى عجَـــل
بوقّـــت الحـــينَ فيـــه صـــوتُ ناهقـــة
بحّـــتْ خـــواراً ولا تـــودي مـــن الكلـــل
أغـــصانُهُ فاغمـــاتٌ عرفهـــا عبـــقٌ
لكنهـــا تنهـــكُ المخلـــوقَ بالملـــل
وادي الحيـــاة! ألا مـــن خـــادع لبـــق
يـــسيغُ لـــي حـــشرجات الـــصدر فـــي أجلـــي

كل ما رأيته

كـــلُّ مـــا قـــد رأيتُـــهُ طـــولَ عمـــري
لـــم يكُـــنْ غيـــرَ ضـــلةِ الأوهـــامِ
نعمـــةٌ أســـبغَتْ علـــى عقـــمِ عيـــشي
ومـــضاتِ الأحـــلامِ والإلهـــام
فهنيئـــاً لخاســـرٍ مـــا ثنَتْـــهُ
عـــن هـــواهُ مـــواعظُ الأيـــامِ!

بين ضدين

تــــــــارةً أســـــــــتحيلُ ربّـــــــاً عظيمـــــــــاً
وجميـــــــعُ الأكـــــــوانِ طـــــــيُ فـــــــؤادي
ثـــــــم ينتـــــــابُني فـــــــراغٌ مريـــــــرٌ
فـــــــي ثنايـــــــاهُ تمّحـــــــي أبعـــــــادي
كيـــــــف أهـــــــدأ وكـــــــلَّ آنٍ أرانـــــــي
بـــــــينَ ضـــــــدينِ حـــــــائراً بـــــــاطّراد!

ويح نفسي

ويـــــــحَ نفـــــــسي مـــــــاذا تريـــــــدُ وهـــــــا قـــــــد
أرهقتْنـــــــي بمـــــــا هواهـــــــا يريـــــــدُ
كـــــــلَّ آن تبكـــــــي وتـــــــضحكُ ممّـــــــا
نُوّلـــــــتْ والمـــــــرادُ وهـــــــمٌ جديـــــــدُ
وأنـــــــا الـــــــرقُّ عاشـــــــقٌ متفـــــــانٍ
فـــــــي هواهـــــــا وعنـــــــه لـــــــستُ أحيـــــــد
ببغـــــــاءٌ أنـــــــا وطـــــــال أســـــــاري
رغـــــــم مـــــــسعايَ نطقَهـــــــا لا أجيـــــــدُ

رهين

لا تـسألِ العاشـق عـن عـشقه
ولا رهـينَ المـوتِ عـن موتِـه
كلاهمـا فـوقَ النهـى لا تـسَلْ
عـن وهمِـهِ الـسامي وعـن فَوْتِـه
يخـالُ فـي عينيـك سـرٌّ خفـي
بـدائعُ الألحـانِ فـي صـوتهِ

أنا والوهم

تحتـاجُ عينـي دمعـةً مهراقـةً
لا أن تجفَّ ويـستحرَّ ضـرامُها
يا ليتني "البوذيَّ" يخْـرق باسـماً
إذ قد عدَّتْه من الـدنى أوهامُهـا
لكننـي والـوهم فرعـا دوحـةٍ
ما نـال غيـرَ عنائِـه جرَّمُهـا

جذوة

لا تخمـدِ الجـذوةَ، يـا خـافقي
قـدمْ لهـا أشـواقَكَ الباقيـةْ
لا تتركِ الأيـامَ تمـضي سـدى
ما دامَ مـسراها إلـى الهاويـةْ
لا تخمـد الجـذوةَ، يـا خـافقي
طيبُ الأماني... لم تزل باقيـة!

نعمى بصوتك

نعمى بصوتِكِ لــو هبّــتْ علــى حجــرٍ
لأنبـــت الزهـــرُ أشـــكالاً وألوانـــا
أو دغدغتْ أذنَ ميـتٍ قــد عفــا أثــرا
لهــبَّ منتفــضاً فـــي اللحــد نــشوانا
ونـــور عينيـــك ســـرٌّ الله أرســـله
لـــيملأ الكـــونَ آلاء وإيمانـــــا
لــولا روائعُــكِ المثلـــى لمــا نطقــت
آلهـــةُ الـــشعرِ، والفنـــانُ مـــا كانـــا
ظننت أني ثكلــتُ الــشعرَ مــن زمــنٍ
فرحـــت أرفـــع بالإلهـــام صـــلبانا
وألـــبسُ القلـــبَ لـــيلاً دامـــساً حَزنـــا
مـــرتلاً حولـــه الآيـــاتِ أشـــجانا
حتى إذا لحــتِ لاح "الناصـــريُّ" ســناً
فكنـــتِ للأكمــــه المحـــرومِ إنـــسانا

الغرام الأشل

كتمتُ غرامـــي، وقيّــدتُ قلبـــي وأطفـــأت فـــي مقلتـــيَّ الـــشعَلْ
ســـنونُ طـــوالٌ، ويـــا شـــؤمَها.. أكابــدُ فيهـــا احتــضار الأمـــل
سنون طـــوال.. ســـنون طـــوال وليس يمـــوتُ الغـــرامُ الأشـــل!

صلاة الغائب

صلاة ترتفعُ من ضمير الإنسان الحيّ
إلى أخيه الإنسانِ الشهيد.
صلاة سمَتْ عن الطقوس وعن النطق.
صلاةٌ أطهرُ من دمعة الأم.
قربانٌ قانت مسفوحٌ على مذبح الإنسانية.
إيمانٌ يتعالى جازماً خالداً!

دعاء النبل والشرف يزجى إلى شهداءِ الحقّ،
إلى من في الجزائر وعمان، وفي كلِّ قطرٍ وصقع!

المطر

ياروحَ بلادي! انهمرْ... انهمر عاماً شاملاً.
إن السائمة قدَّمَتْ لك القرابين، قدمتها بسخاء؛
والعشب أحرق حتى جذوره بخورا ليستعطفك!

انهمرْ... انهمر!
أنت محسنٌ بلا منّ،
أنت يدٌ بيضاء لا يتحكَّمُ بها دماغ!

انهمرْ، لقد سبقتك عيونُ البؤساء!
أسرغْ، أسرغ ليكون لك قصبُ السبق!

بقــاء

يـــا جنـــونَ الحيـــاةِ فـــي كـــلِّ حـــيّ
وانفجـــارَ الحيـــاةِ طـــيَّ الفنـــاءِ
أنـــتِ أنثـــى والـــسرُّ فيـــكِ رهيـــبٌ
يتجلّـــى فـــي مغريـــاتِ البقـــاءِ
أبّـــديْ شـــعلَةَ النـــشور وبثْـــي
نارَهـــا فـــي ضـــمائرِ الأحيـــاء
لـــيس تُغْنـــي الأهبـــاءُ فـــي الكـــون مهمـــا
راوحَـــتْ فـــي مجاهـــلِ الأرجـــاءِ

الخمــر

فدى لك أيتها الخمر كل جمال الحياة!

إنك عدوة التوازن،
في موسيقاك نشاز،
وفي رؤاك اضطراب،
وفي شعرك هذيان!

إنك مزيّنة المرأة العبقرية:
تجعلين من شعرها أمواجَ البحار،
ومن عينيها سماواتٍ ضحيانة،
ومن عرقها أرجَ الخلود،
ومن ثغرها خدَرَ الموت!

إنَّ العلمَ والحكمة والوقار والفضيلة
مسوخ تستجدي على أبواب معابدك!
كلُّ إلهٍ جُحد إلا أنت!

إدراك

إنني لا أدرك من علم البلبل الألحان،

ولا الزهرة صنعة الأصباغ والتزين،

ولا الفراشة روح الحبّ،

إنني أجلُّ النمل والنحل،

ويستهويني وقار الأسد، وخداع النمر، وتوقّد

وأضمّ الحمل إلى صدري،

أضمّه لشقيقه القلب، وأضمُّ معه ذلّ الضعف!

إنني بمقدار حبّي الحياةَ أكرهها،

وبمقدار جنوني بالجمال أريد تحطيمه!

وأتوق للإيمان، وأغبط المؤمنين،

ويضحكني آدم، وتحيّرني حواء...!

نصف غمٍّ

لو أعطيتُ الرضا بذاتي وبما أعمل،

كما أعطيتُ الأنثى

من إعجاب وإيمان

لخفَّ نصف غمّي في الحياة!

الذكـريـات

تماثيـــــلُ، غَبـــرةُ مـــاضٍ ســــحيقٍ
علَتْهـــــــا فقُـــــدِّسَ جِلبابُهــــــا
يُتَوِّجُهـــــا الـــــوهمُ فـــي بـــدئِها
وتُرفَـــــعُ بــــالوهمِ أنـــــصابُها
وهـــا أنـــذا الغـــرِّ يـــا للــشقاء
يُبـــــادلُني اليــــأسَ مِحرابُهــــا
... عناوينُ فـــي مـــدْفَنِ الــذكرياتْ!

ذنبي

مريضٌ أنا والليل يجهل أنني
وحيد ولا أدري أأسعف بالصحب
فهَبْ أنهم حولي يفدّون مهجتي
فهل ينقذُ المحروب من ناصب الكرب
دعوني تقاضيني الحياةُ ذحولَها
وما كان ذنبي في الحياة سوى الحب!

وهن

أريد أن أستعيد الشوق واحزني
الشوقُ أمسى كصحو المدمن الوسن
يودّ لو لحظات السكر تنعشه
لكنه قد غدا ميتاً بلا كفن
أخانني الحبّ أم قد خنته سفَهاً؟
الدود لا ينتشي إلا على العفن
يا حبّ، والنفس في دهياءَ مظلمة
أبكي عليك وأبكي ذلّة الوهن

صورة الأم

"يتمنى وقد قرب موته، أن يغمض
عينيه على صورة هي صورة أمه التي
غدت ترابا"

أأغمـــــــض عينــــــــي علــــــــى صـــــــورة
تــــــؤانس روحـــــــي بليلـــــــي الطويـــــــلْ!
فهيهـــــــات هيهـــــــات: أمّـــــــي غـــــــدت
هبــــــاء... فمــــــا أعـــــسرَ المـــــستحيلْ!

حشرجة

إنّ هذه الكأس، وهذه الدمعة الخجلة،
وهذه الآهة الحبيسة، وهذا الخفوق
ليست كلها سوى محاولة فاشلة،
لتقنع نفسك أنك حيّ!
ما الفائدة من سراك في متاهات الأغوار؟
أكانت أغواراً حقاً، أم أخاديد حفرتها أظافرك الضجرة؟!
أيها القلب! قل لي من سخّركَ
لتكون أعظم مرتّل كنسيّ قانت
لأعظم إله موسيقي ساخر؟!
نزيف دمائك استشهاد في سبيل لاشيء!
أيها الحبُّ! أيها الثعبان الجميل، المنتقم، الجبان

الذي لا يجرؤ على قتل فريسته بطعنة واحدة!

افتخر بنزعي الطويل،

واطرَبْ لحشرجةٍ ذليلة توجب الغثيان!

هل لك

هل لك أن تمسح هذه الدمعة المتأرجحة في جفنك

بغدائر من أحببت؟

أو أن تحوّل عواءك إلى نغم أنيس شفيق؟!

صورتي

"صورة الشاعر على جدار عيادته"

صـــــورتي! أنـــــت فـــــي ليـــــالي شـــــتائي

كالـــــصديق الـــــوفيّ فـــــي إيناســـــي

تـــــرجعين الماضـــــي الـــــسحيق بـــــصدقٍ

ووضـــــوح كـــــأبرع الجـــــلاس

أســـــفي أنّ فـــــي لحاظـــــكِ رمـــــسا

لمـــــآسٍ عديمـــــة الإحـــــساس

بفـــــم يكظـــــم المـــــرارة قـــــاس

مـــــا ســـــقته الأيـــــام لـــــيس بنـــــاس

قهقهـــــي صـــــورتي فـــــنحن كلانـــــا

قـــــد جهلنـــــا ســـــلوكَ كـــــلٍّ النـــــاس

وجـه

قـد تخيّلـت، صـاح، فـردوس جـنّ
يـشدّهُ العـينَ، عـجّ بالمغريـاتِ؟
كـل مـا فيـه لـيس ممـا ألفْنـا
كـلّ مـا فيـه مفعـم بالحيـاةِ؟
لوّنتـه شـمسُ الغـروب بـشتى
همـساتِ الأنـوار والظلمـات؟
رقّمتْـه طلاسـم تمـلأ الـروحَ
بـوهم طغـى علـى الكائنـاتِ؟
يـستبيح النهـى بـسكر عجيـب
ويوجـد فيـه غمـوض الممـات...؟
جُلْتُ فيـه مـا بـين شـعرك والثغـر
وعـشتُ الـدهورَ فـي لحظـاتِ...!

عذاب الأريب

إنّ مـا ينهـك الأريـب عـذابا
جهلُـه كيـف جـاء هـذا العـذابُ
قلـقٌ ثـم حيـرة وطمـوح

وابتهـــــاج يحـــــزٌ فيــــه اكتئــــاب

لا أريـــــد الحيـــــاةَ جنّـــــة عــــــدن

جنّـــــــةُ الله إنْ عقلــــــــتَ عقــــــابُ

ســـرٌ صـــحوي هـــذا الجمـــال وبؤســـي

أن نفـــــسي عمايـــــــةٌ وضــــــبابُ

كيــــف أســـــتطيع أن أكثّـــف عمـــري

جرعـــــةً خمرُهـــــا الهـــوى والــــشبابُ

مبـاح

مبـــاح وهـــذا حـــقُ كـــلّ معـــذب

لأن يحتـــسي الأيـــامَ خمـــرةَ إســـعاد

فمـــاذا تبقّـــى للتعفّـــف بعـــد مـــا

تتـــوّجَ إيمـــانُ الـــشقيّ بإلحـــاد

دعـــوه فـــصدقُ المـــوت أودى بلبّـــه

وكبّـــل مـــا يـــصبو إليـــه بأصـــفاد

ماذا على المخلوق

مـــاذا علـــى المخلـــوق مـــن حمـــأة

إذا تحــــدّى اللحظـــــة الفانيـــــة!

المبهجات

المبهجات:

هناءةُ لحظة،

وطولُ احتراق

فيه ذكرى للمباهاة الكسيحة!

مَنْ أنا في هذا الفراغِ الرهيب؟

إنني أجذبُ الإيمان بكلِّ قواي فيستعصي،

وأصبغُ عينيَّ بكلِّ ما في الكونِ من أصباغٍ مبهجة،

فتستحيلُ سوادا!

هذا دماغي:

وكرُ الهذيان والخوفِ والحماقة،

وقد حمّلتهُ قبل أن أخلَق.

لم يستطعِ التحكّمَ بفوضاي!

أريدُ أن أعبدَ إلهاً واحداً

ــ أيَّ إلهٍ كان ــ

إلهاً يفهمُني وأفهمُه!

إنَّ في نفسي

انطلاقاً جامحاً،

وشوقاً أشد!

المبهجات: احتراقٌ مديد،

وذكرى قعيدة!

النشور

قال لي القلبُ فجأةً في المساء:
"قم نضعْ زهرة على قبر حزنِكْ
ذاك حقّ الوفاء. إيه لماذا
حجبَتْ بالضبابِ آفاقُ عينك؟"
- لم أجبْهُ. فقادني مذهولا
ودرجنا على الرفات طويلا
" أضللناه ؟ "
- لست أدري ولكن
تحت هذي الألواحِ إني دفنْتُهْ
ها هي السروةُ التي غرستَهْا
أنملي في التراب حين لحدْتُهْ
انحنينا على الضريح لنلقي
زهرةً من ولائدِ الأضواء
فتعالى من جانبَيْهِ فحيحٌ
باردٌ كارتعاشة استهزاءِ
نُشرَ الحزنُ فجأة في المساء!

نعمة الحياة

إنّ روحي تحيا كلّ ربيع
بالرغم من الأشتية المتكررة طوال سنيها المتعاقبة!
حقاً أنا ذرة من الأرض...
ولا شكّ أنها ستحيا في القبر،
وتتفتّح مع التراب خضرة وأزهارا،
ولكنها لن تعشق في وادي السكون!
إنها ستظلّ في حرمانها غيرِ الشاعرِ إلى أبد الآبدين!
إنّ نعمة الحياة لا تُعطَى إلا للمهتدين من الأحياء!
إنّ الحبّ منذ الأزل إلا الأبد
هو انطلاقة عبر الحدود، وهيهات أن تتكرّر!
هو النار التي لا تخبو،
والاشراقةُ التي ترفّ في الظلمات!

الصحو

حتى الكأس قد تتخلى عنك!
وحيدٌ أنت، وتظنّ أنك تعيش الحبّ الذي عرّفك بنفسك!
وماذا تؤمّل؟
أتبكي لأنك فقدتَ نعمة الخداع...؟
إنّ منتهى البؤس هو الصحو!

الفــن

ما أعظم إنسانيتك

تخلق من دخان المصانع زهوراً بريئة كبراءة الأطفال،

ومن السجون ملاجئ للراحة،

ومن اليتامى والمشرَّدين والمضطهدين

منشدين في جوقة الحياة

يرتّلون بخضوعٍ واستسلامِ اللاإيمان في الإيمان.

أنت سامٍ في تفاهتك، قادر بضعفك، محسن بفقرك!

أيها الفنّ!

أنت أكاليلُ الأزهار التي لا تذبل على قبر الحياة!

الكــون

نتوءان وعينُ شهوةٍ عمياء.

الأحياء رموز.

النسر يحلّق بجناح مهيض، وينقب بعينه الأبعاد.

قبلةُ لَغَب

تمطي حشرجة.

كُنْ إلهاً وحطّمْ كلَّ شيء!

لنعم الحياة

لـــــنعم الحيــــاة بأوزارهــــا

إذا مــــا ضـــللتُ بأســـرارها

وعاشت بروحي بنـــاتُ الــشروق

وكفّنـــتُ روحـــي بأزهارهـــا

وقامَتْ صـــلاتي بلحـــن الطيــور

وتبْـــتُ لربـــي بأســـحارها

وهدهدت ليلـــي بهمـــس النجـــوم

وباركـــتُ شمـــسي بأنوارهـــا

لـــــنعم الحيــــاة إذا مــــا حيــــاتي

تلاشـــت تبَـــستمُ فـــي نارهـــا!

ساعات بلا حدود

تأتي على الإنسان ساعات يرى

فيها الحياة بلا حدود

فعقالُهُ الأرضيّ يصبح بالهناءة

فوق مهزلة القيود

لكنها اللحظات وأسفي إذا

صدقت تروحُ ولا تعودْ!

أهــــواءٌ

أهواءُ هُزّيني فــأسٌ تعاســتي ضَــجرُ الــسكونِ
أهوى الجنونَ إذا تجــاوزَ طيــشُهُ حــدَّ الجنــونِ
يا مـــالئَ الأرجــاءِ بــالتُّحفِ المثيــرةِ والفُتــونِ
دعْ هذه اللحظاتِ تُنسي الخوفَ من سخفِ المنونِ

وجهي وعزرائيل

وجهـــــي وعزرائيـــــلُ لوحـــــةُ ملهـــــم
قـــــد هتّـــــك الـــــسرَّ الـــــدفينَ برســـــمِه
هـــــذي... الأخاديـــــدُ التـــــي فـــــي غورهـــــا
تُحـــــرَتْ مثيـــــراتُ الطمـــــوح بوهمِـــــه
رســـــمَتْ لـــــه صـــــورةَ الحيـــــاة فخـــــورة
بكِـــــذابها وأرثْـــــةُ نكبـــــةَ عقمـــــه
وجهـــــي وعزرائيـــــلُ لوحـــــةُ ملهَـــــمِ
هـــــي رمـــــزُ آدمَ فـــــي ســـــخافة جرمـــــه!

الخيالاتي

أنـــــا إنْ قـــــضيتُ فلـــــستُ آســـــفُ بعـــــدما
ذقـــــتُ الحيـــــاةَ لذيـــــذَها ومريرَهـــــا
هـــــذا الخيـــــالاتيُّ ينـــــشرُ ظلّنـــــا
عبثـــــاً وحاشـــــا أن يكـــــون بـــــصيرَها!

لـــوم

يلومـــــونني أنّـــــي أميـــــلُ مـــــع الهـــــوى
وهـــــل كـــــان لـــــي غيـــــر الهـــــوى نغمـــــة تغـــــري؟
إذا مـــــا الجمـــــال الغـــــضُّ لامـــــس نـــــاظري
أحـــــسُّ بنـــــورِ الله فـــــي خـــــافقي يـــــسري!

يا خمر

وجد روحي إليكِ يـــا خمــرُ يعلــو...!
خطـــراتُ الإلهـــام منـــكِ تـــوافي
وبنـــات الأحـــلام منـــكِ تـــوافي
وفظاعـــات كـــلّ إثـــم مريـــب
رمزُهـــا فيـــك ســـاذجٌ وبـــريء،
وظـــلام الـــشهوات أيّ ظـــلام
ضمن أقداحِ محتـــسيكِ يـــضيء!
ضجر النفس فيـك يحفـــر قبـــرا!
أنتِ ربٌّ
جلَّت صفاتكِ
زيدي
إن تعففـــتُ فـــي عفـــافيَ كفـــرا!

كبوة

تمـــــــلأ الـــــــنفسَ عنـــــــوة حـــــــسراتٌ
حـــــين تكبـــــو أشـــــواقُها مـــــن كـــــلالِ

منبت الإيمان

قـــــد ينبـــــتُ الإيمـــــانُ فـــــي تربـــــةٍ
أرضـــــها ثـــــديُ الهـــــوى والجحـــــود!

مأساة

أبماضـــــــيَّ أمْ بتافِـــــــهِ يـــــــومي
أتعـــــزّى، الحنـــــانَ يـــــا أوهـــــامي؟!
قـــد ســـئمتُ اجتـــرارَ مأســـاةِ عمـــري
واطّـــــــرادَ الأيـــــــامِ والأعـــــــوام
غيـــرَ أنّـــي مـــا زلـــتُ أرهَـــبُ حقـــاً
ســـــروةً تَستَـــسيغُ طعـــمَ عِظـــامي!

إلى نهال

غمّـــــازةٌ لمــــــا شُــــــدِهتُ بـــــسحرها
ناديـــتُ مـــن فـــرط اضـــطرابي: يـــا علـــي!
شـــيعيّةُ الآيـــاتِ مـــن يقـــرأ يجـــدْ
سُـــوراً مـــن الإيمـــانِ فيهـــا تتجلـــي
مـــالي وللحجـــرِ المقـــدّسِ بعـــدما
قـــد لامَـــستْ شـــفتاي خيـــرَ مقبِّـــل
يـــا شـــعرَها خـــذني لظلّـــك واكـــسني
ثـــوبَ الـــسواد كعابـــدٍ متبتّـــل
ثكـــل الـــشبابُ ولـــم تَمُـــتْ أشـــواقهُ
ويخـــاف مـــن عقـــم المـــشيب الممحـــل!

عجبت

عبيـــرُ الربيـــع شـــذا ثـــورةٍ
تـــأجّجُ فـــي رحـــمِ شـــوقٍ ولـــودْ
عجبـــتُ لمجهـــود مـــوتٍ وبعـــثٍ
يكـــرّرُ لا عـــن هـــدى فـــي الوجـــودْ!
ونحـــــن نحمّـــــلُ أوزارَهُ
ولـــيس بمقـــدورنا مـــا نريـــدْ!

تمثيل

هـــــــذا الخيـــــــالاتيُّ مبـــــــدعُ كوننـــــــا
لـــــم تـــسئمْ فـــــي تمثيلهـــــا أشخاصُـــــهُ
يـــا ويـــحَ قلبـــي كـــم أطلـــتْ خداعَـــهُ
حَمَـــــلٌ يفجّـــــرُ عبرتـــــي إخلاصُـــــهُ!

فتيّ

هيهـــات أن ينحنـــي ظهـــري وفـــي خلـــدي
روحُ الطفولـــــةِ بـــــالأحلام ترويـنـــــي
مـــا دام هـــذا الجمـــالُ الغـــضُّ يـــسحرُني
أنـــــا الفتـــــيُّ بإيمـــــاني وتكـــــويني!

عيناك

إنّـــي أشـــاهد فـــي عينيـــكِ مـــا جمعَـــتْ
هـــذي الطبيعـــةُ مـــن إبـــداع فنّـــان
ففيهمـــا أقـــرأ الآيـــات مكتـــشفاً
ســـرَّ الـــورى فهمـــا وحيـــي وقرآنـــي
ومنهمـــا مـــصدرُ الإلهـــام يرفعنـــي

علـــى جناحيـــه فـــوق العـــالمِ الفـــاني

أطيـــرُ فـــي عـــالم الأحـــلام مبتهجـــاً

مجـــرّداً عـــن تبـــاريحي وأحزانـــي

فنـــاظري وثنّـــي فـــي تعبُّـــدهِ

يرنـــو إليـــك بتقـــديسٍ وإيمـــان!

الصبر

الـــصبر صـــنْوُ المـــوت كـــم ذلّنـــا

بـــضحكةٍ صـــامتةٍ ســـاخره!

شقيقي الزهر

إنـــي أنـــا الحـــبُّ والنـــورُ البهـــيُّ ضـــحىً

وأدمـــعُ الطَّـــلِّ تغفـــو فـــوق أزهـــارِ

شـــقيقيَ الزهـــرُ لكنـــي أخـــو ألَـــمٍ

أوزارُ هـــذا الـــورى مـــا عـــشْتُ أوزاري!

آلاء هذا الكون

جـــاء الربيـــع فمـــا لـــشوقِك رادعٌ

يثنيـــك عـــن إبـــداع آنٍ مزهـــر

حـــــوَلانُ نفــــسِك آيــــةٌ أكـــــرمْ بهــــا

تنجيـــــك مــــن ضـــجر الحيـــاة المقفــــر

آلاء هــــــذا الكـــــون لا تحـــصى لمــــن

ســـــبرَ الوجـــودَ بفـــضل حَــسِ مبـــصر

الشباب الآبق

هـــل كـــان فـــي ألَـــقِ الجمـــال وفـــي الـــصبا

ســـــرٌ يعيـــــد لــــك الـــشبابَ الآبقــــا؟

هــــذا بريــــقُ العـــينِ تقـــدحُ نـــارُهُ

وفــــؤادُك الوســــنان يُـــوقَظُ خافقــــا

ظفَـــرُ الحيــــاة علــــى الممـــات كرامــــةٌ

جعلَـــتْ مــــن المـــاء المهـــينِ خلائقــــا!

لماذا؟

لمـــــاذا يعــــبّسُ صــــبحُ الفــــؤاد

إذا مــــا تــــذكّرَ وادي الـــسكونْ؟

لمــــاذا، وهــــل لـــك مــــن حيلـــةٍ

تعيـــــق المقـــــدَّرَ ألا يكـــــونْ؟

فتـــــوّجْ وقـــــارَكَ بالابتـــــسام

إذا مـــا أتـــاكَ رســـولُ المنـــون!

حينما

حينما أرى الحقَّ يزهق الباطل، وأرى الجمال في الوجود،
وأترع كأساً من الخمر، وأرى عندي غيرَها أقول:
إنّ الحياة لم تفقد رحمتها بعد!
وحينما أرى الموت يطيح الرؤوس بمنجله أقول:
إنّ الموت لم يفقد رحمته بعد!

بسمة الكون

كلب بعد جوع مميت يخطف عظما،
ويطلب به النجاة بكلٍّ ما أوتي من قوة،
يبدأ بقضمه، ولمّا يجد بقعةَ أمان.
تبتسم الحياة الورهاء* منتقمة من المخلوقات
ابتسامةً جوفاءَ كالكون!

كلب الأعمى

وفاءٌ متحضّر، عينانِ يقظتان،
عَوْنٌ بلا مَنّ، صحبة بلا مساومة...
أيها الإنسان! ألا ترتفع إلى هذا المستوى...؟!

---

* الورهاء: الحمقاء. – المحرر.

سروفا -١-

سروفا... سـروفا! أوهـل فـوقَ هـذا
غموضٌ يجَلْجِـلُ فـي غـورِ نفـسي؟!
طويْـــتُ الحيـــاةَ وســـاعاتِها
ومزَّقـــتُ شـــوقاً أعاجيـــبَ حـــسّي
شـــربْتُ بثغـــرِ مريـــرَ الرحيـــقِ
وبالـــدم خـــضَّبْتُ أنيـــابَ رجـــسي
هـــــصرْتُ فنـــائي فأيقظْتُـــــهُ
ودنَّـــستُ باليـــأسِ أقـــداسَ قدســـي!
سـروفا...
... بقيةُ همـسِ!

سروفا ـ ٢ ـ

سـروفا!

وقـــد عـــدْتِ... عـــدْتِ

لمـــــاذا تعـــــودينْ

ولم يبقَ منّــي غيــرُ الحنــينْ!

ولم يبقْ منــيَ غيــرُ اختــصارِ

لحــسّ شــفيقٍ غريــرِ حــزين!

لمـــــاذا تعـــــودين ؟ !

أما فــي الفــضاءِ

مكـــانٌ أمـــينْ

يعــودُ المــسافرُ

غـــبّ القنـــوطِ

إليـــــه ؟ !

أمَـــا مِـــنْ كمـــينْ؟

يخـــادعُ، يغتـــالُ...

حـــصنٌ حـــصينْ

لنعمى تمـــينْ ؟ !

بلاهة القدر

ذبـــــولُ الأزاهـــــر مـــــرأى فظيـــــعٌ
فكيـــــف بجـــــسمٍ ثـــــوى فـــــي الحفـــــرْ
وكيـــــفَ بقلـــــبٍ نبيـــــلِ الخفـــــوقِ
إذا ضـــــمّ إخفاقَـــــهُ وانـــــدثَرْ!
وكيـــــف بعـــــينٍ تحيـــــل الـــــضياء
بـــــدائعَ حـــــسنٍ يثيـــــرُ الفكَـــــرْ:
إذا الـــــدودُ هتّـــــكَ أســـــرارَهَا
فيـــــا لبلاهـــــةِ هـــــذا القـــــدَرْ!

الرحمة المثلى

إذا كـــــان حقـــــاً فـــــي الخليقـــــة رحمـــــةٌ
فعـــــلامَ لا تحنـــــو علـــــى مُحتاجهـــــا؟
حمقَـــــتْ فلاســـــفةٌ مـــــضتْ وتحيّـــــرت
مـــــن بعـــــدها زمـــــرٌ زهَـــــتْ بنتاجِهـــــا
الرحمـــــةُ المثلـــــى: ضـــــلالٌ مـــــؤمنٌ
فاستـــــسقِ عـــــن عَجْـــــزِ أجـــــاجَ أجاجهـــــا!

حماقة الأزمان

يــــا خـــضوعي المـــزري كرهْـــتُ حيـــاتي
وكرهْـــــتُ الحيـــــاةَ فــــي عــــصياني
انطـــحُ الـــصخرَ ديـــدني طـــولَ عمـــري
فتـــــشيعُ البأســـــاءُ فــــي وجـــــداني
لـــم يفـــدْني علمـــي وصـــدقُ يقينـــي
إنّ كـــــوني حماقــــــةُ الأزمـــــان!

هذا التقى

هـــذا التقـــى يـــا قلـــبُ مأســـاةُ الفـــضا
فأهنـــأ بموتِـــكَ قبـــلَ موتِـــكَ يـــا غبـــي!
هـــل راحـــةٌ..؟ خـــدَرُ المعـــذّبِ حينمـــا
يغفـــو علـــى الأمـــلِ البليـــدِ الأجـــدبِ
النـــارُ فخـــرُ الـــشوقِ فـــي تـــشعالها
فـــإذا خبَـــتْ فهـــي انتحـــارُ المتعَـــبِ!

شكوى فراشة

إن شقائي لا يُحَدّ...

تصورّ: إن نسيماً رهْوا يتقاذفُني كما يشاء!

ويتلاعب بي كما يهوى؟!

وكلّ زينتي التي تعبَتْ بإبداعها الدهور...

تزولُ بلمسة شفيقة؟!

وها هي أمي الأرض تطردني،

وتحرمني من دفءِ صدرها،

وتتركني أتسولُ على أعتاب الأزهار!

والغريب أن الزهر لا يقبّلُني بشهوة

كما يقبل النحلة،

وها أنا أعيش حياة معكوسة بخلاف المخلوقات!

أنا...

أموتُ بانتهاء الحب،

وأنا مجبرةٌ أن أجعلَ صدري

قبراً لحبيبي...!

* * *

اغرورقت عيناي لبؤس الإنسان!

في الهزيع الأخير

الدُّوارُ العتيدُ يشَدّهُ رأسي

وحبيسُ الآهات يقرعُ صدري

هلَعي مؤنسي فسحقاً لصبري

وهدوئي على أرائك جمْرِ

جفَّتِ العينُ فهي صحراءُ ثكلى

لا سرابٌ ولا أكاذيبُ بشْرْ

في الهزيعِ الأخيرِ، الليلُ ليلي

في الهزيعِ الأخيرِ أعبدُ ذُعري!

الطبيعة

أيتها الطبيعة ما أجملك!
إنّ ما يزيدك جمالا هو عدم وعيك المصير،
فالشتاء لا يقطّر دمعة حزن من أجفانك الساهية!
إنك لا تأبهين للعواصف مهما طغت!
إنك تعيشين اللحظة بكلٍّ ما عندك من صوفية،
فاللامبالاة هي سرّك الذي تحكّم بالأقدار!
هل بكتِ الشجرة على غصن كُسِرَ منها؟
هل لبست زرعةٌ ثوبَ الحداد على زهرة قطِفت منها؟
أيتها الطبيعة الحسناء وددت لو أنك
تفقهين الشادي لك عسى تُطمْأن أنانيتي!
إنك مع جمالك لا تبلغين الذروة
التي تجلس عليها أختك المرأة!
لكلّ مدّه وجزره...
إنّ الجمال يقظة في كون عظيم لا يعي!

زهرة الدرّاق

أوصلْنا إلى أن ندفن الأوهام بلا دموع...؟ !
أين الحب؟! أين الحياة؟! أين الزمن؟! أين القدر؟!
يا حزن زهرة الدراق، ويا بؤس الدموع التي تنثر عليها!

من رسائل كبار المستشرقين للمؤلف بمناسبة صدور دواوينه السابقة:

... وقد قرأت ديوانيكم بكل إمعان ولذة ورأيت فيهما شيئاً جديداً ليس في الأسلوب أو في الصورة الخارجية فقط بل وفي موضوعه ومعانيه. ومن السلاسل التي جلبت فكري بكليته (على باب الفردوس) فإن فيها دقة التحليل وعبقرية التصوير ما يجعلها من نماذج الفن الشعري في أعلى درجاته.

اغناطيوس كراتشفوفسكي الروسي

... J'y ai trouve', sous une form tre's original, l'exploitation des resources d'expression que la langue Arabe rece'le pour les pense'es les plus actuelles: Je suis de plus las du classicisme pe'rime' a' la Shawqi et je trouve votre essai tout-a'- fait de'monstratif.

Massognon

... Et je suis heureux de pouvoir vous dire que j,ai trouve' votre poe'sie fort de'licate et e'crite dans une langue merveilleuse.

Dr.widmer

في لوحات الأستاذ ميسر وقد نشرت معظمها الصحف العالمية:

... It is apparent from your work that you have high imagination and talent...

California June 7 , 1951 Walt Disney

... The print was so unique that we would like to write a picture story on it...

Chicago, Dec. 31,1954 Art photography

... your creations are tremendously dynamic, indeed terrific, especially tempation. They have a rather morbid quality or mood.

Syracuse Unin. Nov. 24,1950 Dr. R.F. Piper

الفهرس

الصفحة

عواصف قلب

الصفحة

على باب الفردوس

عطف الرئيسة والراهبات على عيسى

مجيء عيسى لأداء الشكر إلى الرئيسة والراهبات

أحلام الصباح

متفرقات

٣- البلدة المسحورة

٤- موانا

٥- سريال

٦- اثنان في واحد

شاعر

الصفحة

لمن أبتهل؟

الخطو اللاهب

نرسيس

مومياء

اضطراب

رحيق

بعد لأي

بقاء

الذكريات

المبهجات

أهواء

مأساة

سروفا -١-

سروفا -٢-

في الهزيع الأخير

الطبعة الأولى / ٢٠٠٦

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

يعتبر علي الناصر (١٨٩٦ - ١٨٧٠) أحد أبرز رواد التجديد والحساسية الشعرية والنثرية الجديدة في سورية والثقافة العربية عموماً خلال القرن العشرين.

تقديراً لريادته التاريخية، وأهميته الأدبية، تقدم وزارة الثقافة الأعمال الكاملة لعلي الناصر ضمن مشروع وزارة الثقافة لتقديم الأعمال الكاملة، أو مختارات منها، لرواد الفكر والأدب في سورية.

★ صدر في هذه السلسلة:

١ - سعيد حورانية: الأعمال القصصية الكاملة

٢- صباح محي الدين: الأعمال القصصية الكاملة

٣ - حسيب كيالي: الأعمال القصصية الكاملة

٤ - سنية صالح: الأعمال الكاملة

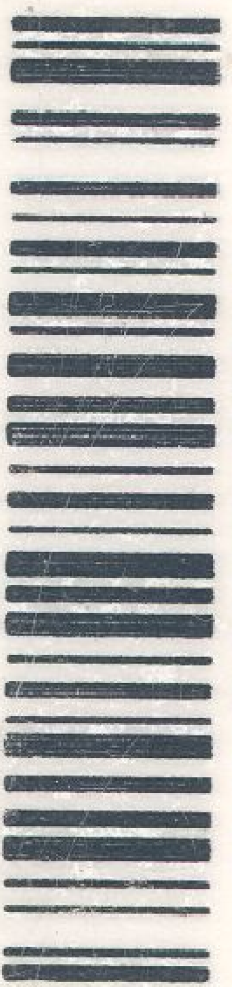
٥ - رفيق رزق سلوم : الأعمال الكاملة

★ يصدر:

١ - فرانسيس مراش: الأعمال الكاملة

٢ - جورج سالم: الأعمال الكاملة

٣ - شكيب الجابري: الأعمال الروائية





سعر النسخة داخل القطر ٢٣٠ ل.س في الأقطار العربية مايعادل ٤٦٠ ل.س

٢٠٠٦